يـوم الجـراد

ناثانيال ويست

- Author : Nathanael West
- Title: The Day of the Locust
- Translated by: Dr. Abd Al Raheem Yousif
- Afaq's first edition: 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Manager: Mostafa Alsheikh

- المؤلف: ناثانيال ويست
- العنوان: يوم الجراد
- ترجمة: عبد الرحيم يوسف
- طبعة آفاق الأولى 2018
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:

٢٠٩٢٨ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977 - 765 - 136 - 3

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة– من شارع محمود بسيوني – ميدان طلعت حرب– القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ – ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ – موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

ناثانيال ويست

يـــوم الجـــراد

رواية

ترجمة

عبد الرحيم يوسف

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

ويست، ناثانيال.

يوم الجراد – ترجمة: عبد الرحيم يوسف

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2018

280 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 20928 / 2017

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 136 – 3

1 – الأدباء (روايات)

2 – ويست، ناثانيال

مقدمة المترجم

حين أهدتني الصديقة الشاعرة الأمريكية آندريه يانج هذه الرواية في عام ٢٠٠٧، لم أكن قد سمعت باسم كاتبها من قبل. قالت لي آندي إن الرواية والكاتب لم يلقيا ما يستحقانه من اهتمام وإنها تراها رواية مهمة، وتشعر أنها ستعجبني. وأنا أثق في ذائقة وثقافة آندي التي تعمل مدرسة للكتابة الإبداعية في مركز نيو أورليانز للفنون الإبداعية، وعملت كمحررة لمجلة «مينا» التي كانت تصدر بالعربية والإنجليزية، وشرفت بالعمل محررًا مساعدًا بها في أعدادها الثلاثة التي نُشرت منذ ٢٠٠٥ إلى ٢٠٠٩. أخذتُ الرواية شاكرًا وتشاغلت عنها بضعة أشهر حتى أمسكت بها متصفحًا، وبدأت قراءة المقدمة المهمة للناقد الأمريكي ألفريد كازِن (١٩١٥ – ١٩٩٨)، وفيما أنا أقرأ المقدمة، كنت قد عقدت العزم على ترجمة هذه الرواية.

بدأت أولًا بالبحث عمَّا إذا كانت الرواية قد تُرجمت من قبل، فلم أجد أي عمل من روايات ناثانيال ويست الأربع قد

تُرجم إلى العربية. ورغم أنه في مقدمة ألفريد كازِن الموجودة في كتابنا هذا معلومات كافية عن حياة ويست وعن أعماله القليلة وعن أهمية رواية (يوم الجراد) بين الروايات المكتوبة عن هوليوود؛ إلا أني بدأت البحث عن الرجل نفسه عبر الإنترنت. وجدت وفرة في المصادر الإنجليزية وأقل القليل في المصادر العربية.

في سنين حياته القليلة (من ١٧ أكتوبر ١٩٠٣ إلى ٢٢ ديسمبر ١٩٤٠) نشر ناثانيال وفقًا لموسوعة الويكيبيديا أربع روايات وقصتين قصيرتين، وشارك في كتابة مسرحيتين وسيناريوهات ١٣ فيلمًا. ولم يكن ويست معروفًا على نطاق واسع خلال حياته، وإن تنامت شهرته بعد موته؛ خاصة مع نشر رواياته الأربع مُجمَّعة عن طريق شركة نشر (نيو دايريكشنز) عام ١٩٥٧. يعتبر الكثيرون روايته الثانية (الآنسة لونلي هارتس) هي عمله الأهم، لكن مجلة تايم اختارت روايتنا (يوم الجراد) ضمن قائمة تضم أهم ١٠٠ رواية مكتوبة باللغة الإنجليزية منذ عام ١٩٢٣ (عام تأسيس المجلة) إلى عام ٢٠٠٧، ونُشرت القائمة عام ٢٠٠٨. وقد تحولت (يوم الجراد) إلى فيلم بنفس العنوان تم إنتاجه وعرضه عام ١٩٧٥ من إخراج جون شليسنجر (مخرج فيلم «راعي بقر منتصف الليل») وبطولة ويليام أثيرتون وكارين بلاك ودونالد ساثرلاند. أما رواية

(الآنسة لونلي هارتس) فقد تحولت إلى السينما ثلاث مرات في أعوام ١٩٣٣، ١٩٥٨، ١٩٨٣.

حين بحثت في المصادر العربية كما قلت لم أجد الكثير، لكن في الباب السابع من الجزء الثالث من موسوعة (اليهود واليهودية والصهيونية) لد. عبد الوهاب المسيري، ذلك الباب الذي حمل عنوان (الأدب اليهودي والصهيوني) أورد د. المسيري (ناثانيال ويست) ضمن قائمة الكُتاب «الأدباء من أعضاء الجماعات اليهودية»؛ ويقصد المسيري هنا بالجماعات كلمة communities ويفضلها عن استخدام تصنيف «الأدباء اليهود» أو «الأدب اليهودي»، وقد كتب عن ويست:

«روائي أمريكي يهودي اسمه الحقيقي نيثان وينشتاين. وُلد ونشأ في نيويورك لأبوين مهاجرين من يهود اليديشية، كانا يرفضان التحدث باليديشية في المنزل، وشجَّعا ابنهما على الاندماج. ولم يحصل ويست على شهادة الثانوية العامة، فالتحق بالجامعات بوثائق مزيفة. ولم يُسمَح له بالانضمام لإحدى الروابط الجامعية لأنه يهودي، فكتب قصة رمزية عن ذبابة وُلدت تحت إبط المسيح، وتعيش على جسده، وتموت لحظة موته. ولعل الذبابة رمز للشعب اليهودي الذي يعيش على هامش العالم المسيحي، منبوذًا منه، عالةً عليه، يحيا بحياته ويموت بموته.

وفي عام ١٩٢٧، قبل أن يذهب إلى باريس، غيَّر نيثان اسمه وتبنى الاسم الذي عُرف به بقية حياته، وكتب رواية سيريالية تجريبية بعنوان «حياة بالسو سنيل الواهمة» (١٩٣١) هاجم فيها المسيحية واليهودية، وموضوع الرواية الأساسي هو بحث البطل بشكل عبثي عن شيء ثابت يمكنه الارتباط به. واتهمه بعض النقاد اليهود بأنه معاد لليهود واليهودية، وبأنه يهودي كاره لنفسه، الأمر الذي يثير قضية التصنيف: هل يمكن الاستمرار في تصنيف ويست باعتباره «كاتبًا أمريكيًّا يهوديًّا» أم أن من الأفضل تصنيفه باعتباره «كاتبًا أمريكيًّا من أصل يهودي»، أم مجرد «كاتب أمريكي علماني» (فقط) يهاجم مختلف العقائد الدينية؟

وروايات ويست عنيفة ساخرة ومُستخفة بالقيم الإنسانية، تحاول أن تُظهر أن الحب الإنساني إن هو إلا وهم لا علاقة له بالواقع الخارجي القاسي الصلب. كما أن روايته «المليون البارد» (١٩٣٤) هجوم على الحلم الأمريكي. وتجمع روايته «يوم الجراد» (١٩٣٩) -التي تدور أحداثها في هوليوود- بين اللاأخلاقية والأحلام الرؤياوية (الأبوكاليبسية).

ويذهب بعض النقاد إلى أن عدمية ويست تعبير عن رفضه مجتمعًا صنَّفه يهوديًّا في وقت لم تَعُد له فيه علاقة باليهودية، ولعل هجومه الشرس على كلٍّ من اليهودية والمسيحية هو

تعبير عن هذا الوضع الشاذ والفريد».

كما وجدت فصلًا عن كاتبنا في كتاب بعنوان (سبعة قصاصين أمريكيين) صدر عن دار المعارف عام ١٩٨٣؛ وهو كتاب يضم مقالات عن سبعة كُتاب أمريكيين بأقلام سبعة نقاد مختلفين، وقد جمع المقالات وقدَّم لها (وكتب إحداها) الناقد الأمريكي ويليام أوكنور، وترجم الكتاب إلى العربية أحمد كمال يونس. كتب الفصل الخاص بناثانيال ويست الناقد ستانلي إدجار هيمان، وتحدث باستفاضة عن حياة الكاتب وعن رواياته الأربع، ومن ضمن ما يحكيه عن حياته أنه كان «يقضي معظم أوقاته في القراءة»، وأنه وفقًا لمذكرات شقيقته «قرأ كل أعمال تولستوي في العاشرة من عمره، ولما بلغ الثالثة عشرة قرأ أعمال دوستويفسكي وغيرها من الأدب الروسي، كما قرأ أعمال فلوبير وهنري جيمس. ودرب كلبه الصغير على أن يعض كل من يدخل عليه حجرته وهو يقرأ». [وتبدو ثقافته الفنية والتاريخية والموسيقية جلية في روايتنا (يوم الجراد) الأمر الذي دفعني إلى وضع قدر لا بأس به من الهوامش التي رأيت أنها ضرورية أو ستساعد على فهم النص بقدر أكبر]. لكنه لم يكن تلميذًا نجيبًا، وبعد فترة من التعثر والانتقال من كلية إلى أخرى، التحق بجامعة براون «وبذل أقصى جهوده حتى نجح في جميع المواد»، بل وأنهى دراسته بالجامعة في عامين ونصف

فقط. واشتهر عنه أثناء دراسته أنه «متحفظ في سلوكه، لطيف مع أصدقائه، مجامل وكريم، (...) كما كان يجيد العزف على آلة البانجو». لم يتلق ويست تربية دينية تُذكر، «وفي أثناء وجوده في الجامعة كان يحاول التخلص من كل ما يربطه باليهودية».

بعد تخرجه عام ١٩٢٤، «تمكن من إقناع والده بإرساله إلى باريس»، وقضى هناك عامين سعيدين قبل أن يعود إلى نيويورك أوائل عام ١٩٢٦، عمل مع والده فترة في مجال المقاولات الذي لم يحبه، فتمكن بفضل علاقاته العائلية من إيجاد وظيفة مساعد مدير في فندق، وكان عمله الليلي يمكنه من قضاء الوقت في القراءة. كما كان يسمح لزملائه في الجامعة وأصدقائه من الكُتاب الصعاليك فيما بعد بالمبيت في الفندق مجانًا أو نظير أسعار مخفضة. ومع الكساد الكبير الذي جعل والده يفلس، غدا سطح فندق (ساتون) الذي كان ويست يعمل فيه مسرحًا لعمليات انتحار كثيرة، حتى أطلق عليه ويست لقب (قفزة الموت).

نشر ويست رواياته الأربع بين عامي ١٩٣١ و١٩٣٩، وفي عام ١٩٣٣ بدأ عمله في السينما الذي كان ملهمه الأكبر في كتابة روايته (يوم الجراد). وقد مكنه عمله في السينما «من أن يعيش حياة سهلة وآمنة لأول مرة منذ إفلاس ١٩٢٩»، لكنه كان «يكره أصحاب الأعمال في هوليوود الذين يستغلون موظفيهم،

ولا يتركونهم إلا بعد أن يلهثوا من التعب. لقد حاول الهروب من هوليوود بشتى الطرق». انضم إلى الحزب الشيوعي «كعضو رحالة يروج لنداءات الكتاب الأمريكيين الذي عقد في عام ١٩٣٥(كذا) كما روج لقرارات نقابة الكتاب السينمائيين. ثم عمل في جد ونشاط لصالح الديمقراطيين في صراعهم ضد الدكتاتورية في أسبانيا ولأغراض أخرى عديدة. لقد نشر في أوائل عام ١٩٣٣ قصيدة ماركسية في مجلة **Contempto** (...)، وأوقف عام ١٩٣٥ مع غيره من الشيوعيين، ووضع في السجن لبضع ساعات وذلك بتهمة (تعطيل المرور)».

في مقال نشره ويست «في مجلة كونتاكت عام ١٩٣٢ بعنوان (بعض الملاحظات) عن العنف كتب يقول: «قد يكون ما هو مأساوي في نظر الأوروبيين غير ذلك في نظر الأمريكيين. فالكاتب الأوروبي إذا أراد أن يكتب عن العنف (ولكي يبدو عنيفًا حقًّا) عليه أولا أن يكتب في علم النفس وعلم الاجتماع أبوابًا مطولة، وقد يحتاج إلى ثلاثمائة صفحة ليبحث عن الدوافع لجرائم صغيرة. ولكن الأمر غير ذلك في أمريكا. فإن القراء في أمريكا على استعداد لتقبل الأعذار الفنية إذا حذف الكاتب أي سبب يدعو إلى ارتكاب الجريمة».

ويختتم الناقد ستانلي هيمان مقاله عن ويست قائلًا: «لقد كان ويست رائدًا وبطلًا مثقفًا شجاعًا، سهَّل على الكُتاب الذين

جاءوا بعده، وكان من بينهم أحسن كُتابنا، سهَّل عليهم أن يكتبوا وبراحة ما كان يكتبه هو في وجه التحديات في أيامه».

* * *

بدأتُ ترجمة هذه الرواية في أول أغسطس ٢٠٠٩ ،وانتهيت منها في منتصف فبراير ٢٠١٠، لتكون أول كتاب كامل أترجمه. وقد حاولتُ قدر المستطاع أن أنقل لغة ناثانيال ويست الثرية بمستوياتها المختلفة الحادة والشعرية والوصفية والساخرة والمتأملة والمحللة والعامية. واستمتعت بالرواية قراءة وترجمة. وبعد محاولات متعثرة لنشرها، وبعد أن ترجمت عددًا أكبر من الكتب نشرتُ منها خمسة حتى الآن، وفي حديث مع الصديقة العزيزة سوسن بشير، أبدت حماسها لنشر الرواية، فعدت لمراجعتها وكتابة هذه المقدمة قبل إرسالها للأستاذ مصطفى الشيخ وفريق عمل دار آفاق، الذين أشكر لهم حماسهم وتعاملهم الراقي.

كما أود أن أشكر العديد من الأصدقاء الذين ساعدوني أثناء الترجمة وبعدها، سواء بإتاحة أعمال الكاتب، وفي ذلك أشكر مرةً أخرى الشاعرة آندريه يانج، والشاعر والكاتب الكبير علاء خالد، والأستاذ ياسر حفني، أو من خلال استشارة الأصدقاء الذين استعنت بهم أثناء الترجمة، وأخص بالشكر منهم الصديقة عائشة أحمد أبو بكر، والصديقة إيزابيل بيريز،

وكذلك الصديقة الفنانة هند بكر التي وفرت لي نسخة من فيلم (يوم الجراد)، والصديق المترجم د. خالد رؤوف لتحمسه للعمل وجهوده الكبيرة في محاولات نشره السابقة.

عبد الرحيم يوسف

الإسكندرية في ٣ سبتمبر ٢٠١٧

مقدمة

إن (هوليوود) الثمانينيات من القرن العشرين ليست هي عاصمة السحر ومصنع الأحلام الذي أثار فيما مضى ملايين الأمريكيين كأكثر الأماكن السحرية، وفي ذات الوقت المستحيلة على وجه الأرض. فلم تعد الأفلام تُنتَج في هوليوود ذلك الإنتاج الضخم الأشبه بأميال وأميال من بكرات المناشف الورقية. الآن تُصنع الأفلام في كل مكان وفي أي مكان من قِبَل منتجين مستقلين تمولهم شركات ربما لا تمُّت لصناعة الترفيه بأدنى صلة. ويستمتع صُنَّاع الأفلام الجدد بالمتع العابرة التي يجلبها تصوير فيلم في باريس أو موناكو أو حتى في نيويورك. ولكن يجب عليهم في كل مرة أن يصنعوا قنبلة؛ أن يحققوا نجاحًا مدويًّا. حتى صناعة «فيلم مذهل» فيما مضى لم تكن لتتطلب الملايين التي تُنفق بشكل روتيني اليوم على فيلم واحد. ويجب أن تبرر شعبيته وانتشاره – أكثر وأكثر – تكلفته «المجنونة». وإذا لم يحدث هذا فإن شركة الإنتاج التي خاطرت بإنتاج هذا الفيلم ربما تفلس أو تباع بواسطة شركة قابضة إلى شركة أخرى.

إن صناعة السينما اليوم، بتحولها لتغدو أصغر وأكثر تفككًا وأقل وضوحًا مما اعتادت أن تكون، هي شكل من أشكال المقامرة الكبيرة؛ من المضاربة الفلكية على أعلى الرهانات في عالم متقلب. في رواية «آخر أباطرة المال» لسكوت فيتزجرالد كان «مونرو ستار» منتجًا صاحب ذوق ومزاج لا يرفض أن يضطلع بمشروع من المؤكد أن يخسر بسببه المال. بنفس القدر يبدو من المستحيل كذلك تخيُّل وجود صانع أفلام مثل صامويل جولدوين في عالمنا اليوم. كان جولدوين واحدًا من المهاجرين الأسطوريين المصابين بجنون العظمة الذين ألهموا جون أبدايك قوله إن أعظم إسهامات اليهود في الثقافة الأمريكية هو الخيالات الشخصية التي حولوها إلى صناعة. كان جولدوين بسيطًا للغاية وعتيق الطراز على العكس من «فناني» اليوم المسرفين ذوي النزعة الإدارية، حتى أنه يُذكر عنه شكواه من أحد الأفلام الروتينية الكثيرة التي كانت تتجمع كل شهر في مكتبه: « عشرة آلاف هنا! عشرة آلاف هناك! الموضوع يتسع!»

إن نجوم الأمس العظام ، أمثال جريتا جاربو وكلارك جيبل الذين ارتفعوا فوق من هم على شاكلتنا بجاذبيتهم الجسدية التي لا تُعوَّض، ظهروا مرات لا حصر لها في العشرات من المجلات المصورة والمئات من نوادي المعجبين. بيد أنه قد خلفهم رجال ونساء ليسوا «آلهة وإلهات الشاشة الفضية»، ولكن مجرد ممثلين وممثلات متعددي المواهب وأذكياء يعشقون (الزَّوَغان) إلى روما لتصوير فيلم، فقط من المحتمل بين فيلم وآخر أن يجربوا حظوظهم في أحد مسرحيات (برودواي).

عندما مات هاري كوهن -مؤسس ورئيس شركة أفلام كولومبيا لوقت طويل- عام ١٩٥٦، تجمع زحام غفير في مقر شركة كولومبيا لحضور الجنازة. حينها تندر جروتشو ماركس[١] قائلا: « إذا أعطيت الجمهور ما يريده ، فستجده دائمًا». إن النماذج الطاغية من أمثال كوهن، لويس ب. ماير[٢] ، دافيد أُو سيلزنيك[٣] ، داريل زانوك[٤] والمشاعر القوية التي كانوا يثيرونها... كانت مثار نكات وثرثرة وحسد لا نهائيين. كان هؤلاء الرجال بالفعل نماذج ذات ثقة. لقد جمعوا سويًّا مختلف مهارات المقاول، ومدير الفرقة الموسيقية، ومكتشف المواهب، والمنتج؛ حتى أن واحدة من أفضل روايات هوليوود تظل هي تحية ف. سكوت فيتزجرالد لمَن يعد تقريبًا آخر هذه السلالة: إرفينج ثولبيرج أو «مونرو ستار» في رواية فيتزجرالد الأخيرة وغير المكتملة «آخر أباطرة المال» (١٩٤١). أما الشرير الفاسد «هيرمان تيبيس» في رواية نورمان ميلر «حديقة الغزلان» (١٩٥٥) والذي ينتزع خدمات جنسية من النجمات الناشئات عند توقيع عقود العمل فيثير اهتمامًا أقل؛ إنه مجرد كاريكاتير لـ «ماير» الشديد الوطنية. فخلال الفترة المكارثية في هوليوود

---

(١) **Groucho Marx** (١٨٩٠ – ١٩٧٧): كوميديان أمريكي ونجم سينمائي اشتهر كأحد أساتذة النكات منفردًا أو مع إخوته في فرقة «الإخوان ماركس».

(٢) **Louis Burt Mayer** (١٨٨٤ – ١٩٥٧): منتج أمريكي يُذكر عنه دائمًا أنه صاحب «نظام النجم» في شركة مترو جولدن ماير خلال عصرها الذهبي، حتى قيل إن شركة مترو بها نجوم أكثر من السماء.

(٣) **David O. Selznick** (١٩٠٢ – ١٩٦٥): منتج أمريكي اشتهر بإنتاجه فيلم «ذهب مع الريح» (١٩٣٩) الذي حصل عنه على جائزة أوسكار أفضل فيلم.

(٤) **Darryl Zanuck** (١٩٠٢ – ١٩٧٩): منتج وكاتب وممثل ومخرج أمريكي لعب دورًا رئيسًا في نظام استوديوهات هوليوود.

يعلن «تيبيس» متعففًا: «إنني حتى لا أريد أن أتنفس الهواء الذي يتنفسه أحد هؤلاء المخربين».. كان هذا هو الأسلوب القديم!

ولَّت أيضًا تلك الأيام عندما كانت الاستديوهات تمتلك الآلاف من دور السينما التي كانت تُخرج إليها أفلام الدرجة الثانية شهرًا بعد الآخر لتلبي الطلب، خاصة أثناء الكساد الكبير والحرب العالمية الثانية. ومنذ وقت طويل لم تعد شركات إنتاج سينمائية شهيرة شركات مستقلة، وبعض من أشهر الأسماء في المجال أصبحت الآن منخرطة في التسجيلات والشرائط وألعاب الفيديو، وغدت فروعًا لمصانع المياه الغازية الشهيرة والشركات متعددة الجنسيات.

كفَّت «هوليوود» عن أن تكون «هوليوود» عندما دخل التليفزيون إلى كل بيت أمريكي. كثيرًا ما تجد «نجمًا» في الأيام الخوالي لم يعد حتى اسمًا معروفًا للسياح المارِّين في «هوليوود بولِفارد» والمحدِّقين بلهفة في الأسماء العظيمة للزمن الماضي داخل النجوم الوردية المصطفَّة بطول الشارع. وخارج «مسرح جرومان الصيني» كانت أشهر «الشخصيات» في المجال قد ضمّنت بشكل طقوسي توقيعاتها وآثار أقدامها على الرصيف. لم يعد المسرح ملكًا لجرومان، والسياح الذين مازالوا يطلقون آهات الإعجاب لدى رؤيتهم للتوقيعات وآثار الأقدام يبدون غير متصلين بمجال العمل الحقيقي لهوليوود الآن -التليفزيون- بنفس القدر الذي يبدو به الناس عتيقي الطراز الذين مازالوا يصطفون «لرؤية بيوت النجوم».

من الخارج تبدو «هوليوود» اليوم غير مؤثرة، وقد عفا عليها الزمن،

وغدت ذكرى باهتة لذاتها. قد يلفت سائق «أوتوبيس مشاهدة المعالم» انتباهك ضاحكًا «إلى عيادة جرَّاح تجميل فيليس ديلير[٥]». (كانت مِس ديلير بوجهها الأكورديوني هي من أطلقت النكتة على جراح تجميلها أمام الجمهور). وربما أخبرك عامل الأوتوبيس عما دفعته كلوديت كولبير[٦] أو جاري كوبر (بالمليم) مقابل حمامات السباحة الخاصة بهما. عندما تلاشى نظام النجم ، تلاشى كل ما كان يتماشى مع «سحرهم». إننا نعيش في زمن أقل تنظيمًا. كانت مارلين مونرو آخر النجمات الصاخبات، وربما كان من الضروري لها أن تموت في ظروف تشبه في غموضها تلك التي أحاطت بمقتل الرئيس كينيدي أو إطلاق النار على البابا يوحنا بولس الثاني. لا توجد ممثلة اليوم يتم الاحتفاء بها لجاذبيتها الجنسية فقط، ولا يوجد ممثل يتحكم في عناوين الصحف ببساطة لعمله شيئًا معتادًا جدًّا في هوليوود مثل شم الكوكايين. عندما ذهب وولّى نظام النجم، سقطت عن «هوليوود» فضائحها الأسطورية، حفلها التنكري العام الذي كانت تبدو فيه أكثر غرائبيةً وتحذلقًا وشهوانيةً من المدن الأمريكية الأخرى. التليفزيون مصنع، ويصنِّع منتجات أكثر في القيمة الإجمالية من كل ما صنعته السينما عبر تاريخها. وينتسب التليفزيون إلى المحاكاة الساخرة أكثر منه للأدب. لكن «هوليوود» منذ البداية حفزت وأثارت قدرًا ملحوظًا من الكتابة الأمريكية ـ معظمها كتابة

---

(٥) **Phyllis Diller** (١٩١٧ – ٢٠١٢): ممثلة وكوميديانة أمريكية، أبدعت شخصية مسرحية لربة منزل ذات شعر هائش وملابس غريبة تلقي نكاتًا عن زوج يُدعى «فانج»، وهي تدخن من مبسم طويل، وهي من فتحت الباب للنساء للدخول في عالم الاستاند أب كوميدي.

(٦) **Claudette Clobert** (١٩٠٣ – ١٩٩٦): ممثلة سينما ومسرح أمريكية من أصل فرنسي.

ساخرة ولكنها متأثرة بكل القوى المبذولة لصياغة العقول والأخلاقيات والموسيقى والخطاب الأمريكي؛ بل وحتى الموضوعات والأساليب المخاتلة في السياسة الوطنية الأمريكية. وأفضل هذه الكتابات -كما تجلت في آخر روايات ناثانيال ويست «يوم الجراد» (١٩٣٩)- لم تكن أبدًا أقل من مأساةً.

تُرى ما الذي جعل «هوليوود» موضوعًا لا يُقاوَم بالنسبة للروائيين بدءًا من جون دوس باسوس وروايته «الأموال الكبيرة» (١٩٣٦) إلى «يوم الجراد»، ومن باد شولبرج وروايته «ما يجعل سامي يجري» (١٩٤١) إلى «حديقة الغزلان» (١٩٥٥) ورواية جوان ديديون «العبها كما هي» (١٩٧٠)؟ إنها خصوصية «هوليوود» الغابرة كصناعة تحكم مدينة، وشهرة «هوليوود» الذائعة بالبذخ والخواص التي منحها جنس معين من الناس لأنفسهم. تحدت «هوليوود» خيال الكُتَّاب لأنها لم تكن على نفس الكفَّة مع أي شيء آخر. وبالنسبة لمعظم الناس العاديين الذين كانوا يذهبون لحضور الأفلام بإخلاص ويتلذذون بالثرثرة عن النجوم والنجمات، كانت هوليوود بالتحديد «منيعة».

بشكل طبيعي كان الكتَّاب يشعرون بالعكس؛ فقد كانوا مفتونين باستوديوهات التصوير الفسيحة التي تعيد إنتاج أي مكان في العالم وأي فترة من التاريخ. وكان بذخ الحياة اليومية وكل مظهر يومي قد جعلا من الغرائبية المتاحة موضوعًا جاهزًا؛ حيث تجد ديكورًا لأحراش جنبًا إلى جنب مع صف من بنايات نيويورك ذات الحجارة البُنيَّة. واحد من أفضل المشاهد في رواية فيتزجرالد «آخر أباطرة المال» عندما تنكسر ماسورة

مياه رئيسة في أحد زلازل كاليفورنيا «الضعيفة»؛ فتنقذ سيدتان كانتا تزوران المكان نفسيهما من الفيضان بالركوب (على رأس ضخم للإلهة «سيفا»... كانت هذه المعبودة قد حملتها المياه محلولة من ديكور مشهد عن «بورما»).

ثم إنه كانت هناك أيضًا حقيقة أن أهل «هوليوود» -من ممثلين، بدلاء ممثلين، فنيين، مصورين، كُتَّاب- كانوا يعتبرون أنفسهم ببساطة فنانين مميزين، وأفرادًا متجاوزين لكل الأمريكان الآخرين. كان الإحساس بمنزلة المرء في «هوليوود» مرتبطًا بحجم إيصال مرتبه؛ ولم يكن الكاتب ذو الـ ٤٥٠ دولارًا في الأسبوع مُرحَّبا به داخل مجموعة يسودها كُتَّاب يتقاضى الواحد منهم ١٠٠٠ دولار في الأسبوع. لكن أهمية المال كانت في أنه سمح بشكل حياة أغرب في هذه البقعة غريبة الأطوار والمصطنعة في أغلب مظاهرها والمحبوسة بين الجبال والمحيط. إن «أغرب» التفاصيل المتعلقة بكاتب السيناريو الناجح «كلود إيستي» في رواية «يوم الجراد» هي كونه يعيش في بيت يحاكي نمط العمارة الاستعمارية الجنوبي، ويتأرجح للخلف والأمام على كعبيه مثل أي كولونيل في الحرب الأهلية، ويخاطب خادمه الصيني قائلًا: «أنت أيها الوغد الأسود!»، ويحتفظ في حمام سباحته بنسخة طبق الأصل وبالحجم الطبيعي لحصان ميت. وهذا يُكسبه الاحترام.

وعلى النقيض من هذه النجاحات السينمائية المبهرجة والمتحررة تمامًا والمنغمسة في الملذات إلى ما لا نهاية، تجد مجاميع من أناس مستلقين على ظهورهم فيما يبدو والذين قد أتوا إلى جنوبي كاليفورنيا

(غالبًا من الغرب الأوسط) من أجل الشمس الساطعة ولم يعد لديهم الآن شيء آخر يعيشون من أجله. وطموحهم هو تقاعد مليء بالنوم ودون إزعاج؛ لينتهي بموت هادئ تحت أشجار النخيل وعلى مرأى من المحيط.

أو هكذا كان يظن ناثانيال ويست. فالفرق بين «يوم الجراد» وكل روايات «هوليوود» الأخرى فعليًّا هو أن موضوع ناثانيال لم يكن من النجوم؛ بل الحرافيش الذين كانوا يدبُّون على أطراف عاصمة السينما. وعلى الرغم من أن «هوليوود» قامت واعتمدت على قدرتها على توقع وتلبية ذوق الجمهور، إلا أن الجماهير في «هوليوود» نفسها لم تبدُ أبدًا موضوعًا مناسبًا للروائيين حتى أتى هذا الكاتب الاستثنائي من نيويورك. لم يحاول وليام فوكنر –الذي قضى وقته في هذا المكان كمجرد كاتب سيناريو وسط آخرين– كتابة رواية عن هوليوود، ولكنه كتب بعض القصص اللطيفة عن الحياة الرثَّة لبعض المشردين في ضواحي هوليوود. أما الروائيان الإنجليزيان ألدوس هكسلي وكريستوفر إيشيروود فقد استقرا بالفعل في ضواحي «لوس أنجلوس». وقد هجا هكسلي في روايته «بعد عدة أصياف تموت البجعة» (١٩٣٩) لهفة كاليفورنيا نحو الخلود، وهجا إيفلين وو ولع المنطقة بالطقوس الجنائزية الغريبة في روايته «المحبوب» (١٩٤٨)؛ وهي عمل هزلي ومروِّع عن طرائق الحياة والموت في جنوبي كاليفورنيا، أكد بشكل خاص على النفاق وادعاء الورع في العمل الجنائزي بجبانات مثل «فورست لون». أما جون دوس باسوس فقد هجا في روايته «الأموال الكبيرة» (١٩٣٦) مخرجًا سينمائيًّا

مُدِّعيًا، في الوقت الذي هجا فيه باد شولبرج منتجًا شرهًا في روايته «ما يجعل سامي يجري» (١٩٤١).

بين كل هذه الروايات الكثيرة عن «هوليوود» تظل «يوم الجراد» هي الأكثر حدَّةً في نبرتها، والأكثر توهجًا في شخصياتها وأحداثها، والأكثر إدهاشا في تأكيدها واهتمامها بالجموع. إننا حين ننظر إليها فقط كعمل روائي فقد تكون أقسى هجوم من نوعه حدث تحديدًا على هذا النوع من الناس الذين لم يزعج مراقبو المشهد الهوليوودي أنفسهم أبدًا بملاحظتهم.

كان ناثانيال ويست -الذي ولد باسم ناثان فولينشتاين وينشتاين في عام ١٩٠٣ لأبوين من المهاجرين اليهود كانا قد كوَّنا ثروة من العمل في صناعة البناء- من المقدر له دائمًا أن يرى في الحياة من حوله أكثر مما يراه الآخرون. تحديدًا كان باستطاعته أن يرى الحياة بتفاصيلها الثرية والعبثية حيث كان رسام كاريكاتير ورسوم توضيحية موهوبًا؛ ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ كيف يُرى كل شيء في «يوم الجراد» من خلال عيني الرسام «تود هاكيت» الذي يفكر بشكل دائم في تلخيص كل انطباعاته عن «هوليوود» في لوحة اسمها «احتراق لوس أنجلوس». إن موهبة ناثانيال في الكاريكاتير ظاهرة في كل سطر من رواياته التي نشرها قبل يوم الجراد: «الحياة الحالمة لبالسو سنيل» ، «المليون البارد» و«الآنسة لونلي هارتس». وقبل وقت طويل من ظهور «أدب العبث» في أمريكا الخمسينيات، كان لدى ناثانيال إحساس غير مريح بالتضارب بين الأعراف والواقع في المجتمع القائم. وهذا شيء تقليدي بالنسبة لليهود

الذين يشعرون بأنهم رهائن القدر، ومشردون روحيًّا، ونماذج مهمشة. كان ناثانيال يرى نفسه دائمًا خصمًا للمشهد الوطني.

ناثان وينشتاين أصبح ناثانيال ويست. في هذا الوقت كان حتى يهود الطبقة الوسطى الموسرين يشعرون بأنهم محاطون بشكوك وتحيزات تقليدية، وكانوا غالبًا ما يصرون على السخرية من أسمائهم وخلفياتهم، مطلقين العنان لأنفسهم في شكل من الإيذاء والهجوم العام على نفاق العقيدة اليهودية، للدرجة التي تذكِّر المرء بالكاتب اليهودي المتمرد نورمان ميلر، الذي قال ذات مرة أن طموح حياته كان ألا يخطئه أحد ويراه كـ «ولد يهودي لطيف».

استطاع ناثانيال -دون أن ينتهي أبدًا من دراسته بالمدرسة الثانوية- أن يترسَّم طريقه من كلية لأخرى. في «براون» -حيث قابل الكاتب الساخر إس.جي. بيريلمان الذي سيصبح زوج أخته في المستقبل- عاش ناثانيال الحياة الصاخبة ظاهريًّا لطالب في عصر موسيقى الجاز، ولكنه كان في الأغلب ساخطًا، بل ومكتئبًا؛ فقد كان يلازمه إحساس بأن لا شيء في الحياة كان حقيقةً كما يبدو عليه. وكان يحس أنه شخصيًّا أكبر مثال على هذا «الزيف». كان طالب الكلية المتأنق هذا الذي يلعب دوره وهو مقتنع بأن «كل شخص» يلعب دورًا ما، مرتبكًا حيال الزيف الماثل في عائلته نفسها؛ تلك التي كانت تزعم انحدارها من أصول ألمانية بدلًا من أصلها الروسي، وكذلك حيال كفاحاته للبقاء بعيدًا عن مجال عملهم في صناعة البناء والذي كانوا يضغطون عليه لدخوله.

المثير للسخرية أن ناثانيال استطاع البقاء طافيًا أثناء فترة «الكساد الكبير» في الوقت الذي فقد فيه والده كل شيء؛ لأن علاقات عائلته أوجدت له وظيفة مدير فندق. وعلى الرغم من أن بدايات ناثانيال في الأدب كانت مع الجماليين والسيرياليين في العشرينيات، إلا أن مادة اهتمامه الحقيقي كانت الجماهير المنعزلة التي كانت ضحية للكساد الكبير. ومن خلف الحوائط الزجاجية لمكتبه في فندق «كينمور» في شارع «الثالث والعشرين الغربي» في مانهاتن، كان ناثانيال ويست يحس نفسه معزولًا عن الناس في ردهة الفندق، وإن كان ما زال على صلة بهم عن طريق الرؤية. وما رآه -عندئذ ولبقية حياته القصيرة (حيث مات في حادث تحطم سيارة وهو في السابعة والثلاثين بينما كان يسرع لحضور جنازة سكوت فيتزجرالد في ١٩٤٠)- كان أمريكا الثلاثينات المُرَّة. كان ناثانيال دائمًا غير متحمس لنوعية الحياة اليومية في الولايات المتحدة، وكما قال جاي مارتن أفضل كاتب سيرة لناثانيال «كانت اضطرابات زمنه تجعله متحررًا بشكل يفوق الخيال» حتى أن «التصادم كان يليق به تمامًا». وقال أحد أصدقائه أن ناثانيال كان «ذا نزعة كارثية جدًّا... كانت الكارثة تفتنه... ليس بمعنى صبياني، ولكن من وجهة نظر حيال المأساة الإنسانية».

كانت رواية ناثانيال الأولى «الحياة الحالمة لبالسو سنيل» هجائية فاحشة بليغة حول الجنس، والعمل في أمريكا، والأحلام الأمريكية التقليدية. وما زالت هذه الرواية تصدم القارئ غير الفطن الذي قد نسى كيف كان يمكن للكتابة الأمريكية أن تكون قاسية عن عمد أثناء الكساد الكبير. لكن أكثر كتاب ما زال اسم ناثانيال ويست مقترنًا به هو «الآنسة

لونلي هارتس» (١٩٣٣) وهو تقريبًا مرثية لا تُطاق عن تلك الكثرة من الأرواح البائسة التي تكتب لعمود «المحرومون من الحب» في إحدى الجرائد طلبًا للنصح في أكثر مشاكلهم خصوصية. يصبح الصحفي المكلف بالرد على هذه الخطابات -وعلى نحو هيستيري- أشبه بالمسيح في سعيه للتعامل مع أناس يوقعون خطاباتهم بالـ «اليائسة» أو «القرفان من الحكاية برمتها»، وبطريقة فيها ما فيها من الرمز يقتله زوج مُقعد لامرأة كانت تداوم على الكتابة له.

لقيت رواية «الآنسة لونلي هارتس» فشلًا تجاريًّا ذريعًا، مثلها في ذلك مثل كل الكتب التي نشرها ناثانيال ويست؛ لكن جدتها وجرأتها الأخلاقية جعلتاه يذهب إلى هوليوود ككاتب سيناريو. وبالرغم من أنه لقي نجاحًا قليلًا في محاولاته الأولى للحصول على رزقه من العمل في «مصنع القصة»، إلا أنه في النهاية راض نفسه على الاصطناع والإثارة الحسية المطلوبين منه. وقد أدهش كُتَّاب السيناريو الآخرين بقدرته على الإبقاء على الاستوديو الخاص به يعمل بمعزل تام عن حياته التخيلية كروائي. وقد كان من الطبيعي لهذا الخيال بكل انعزاله وتجهمه أن تلتقط عينه أول ما تلتقط لـ «يوم الجراد» هؤلاء الزعر والدهماء، حرافيش «هوليوود» الذين أتوا إليها فقط ليجدوا أنفسهم «مخدوعين». كان العنوان الأصلي للرواية هو «المخدوعون»، وما كان يشغل بال ناثانيال في الأغلب هو هؤلاء الناس الساخطون بشدة حتى أنهم في المشهد الأخير ـ البالغ القوة ـ من الرواية يتحولون إلى حشد من الغوغاء القتلة.

تُصوِّر رواية «يوم الجراد» عددًا من الغرائب: قزم يتكسب رزقه من

العمل كوكيل لمراهنات سباق الخيل، يتحدث بشكل فظّ، ويتردد على عاهرة تقذفه من حجرتها كصرة ملابس قديمة. ممثل كوميدي فاشل يكاد يموت بمرض القلب، ويطوف بالبيوت ليبيع مُلمِّع فضة مُصنَّع منزليًّا ورديء النوع لأصحاب البيوت، الذين يُجبَرون حينها على مشاهدته وهو يؤدي فاصله التمثيلي. أما ابنته فهي شقراء باردة ذات شعر أصفر باهت تستثير القزم وفنان الاستوديو «تود هاكيت» وكاتب حسابات فندقية متقاعد، في الوقت الذي تتألف حياتها العاطفية من حكايات أحلام اليقظة والتي أحيانًا ما تستغرق منها أيامًا وهي متمددة على ظهرها. هناك أيضًا أشخاص من الإسكيمو!! «كانت عائلة «جينجو» من الإسكيمو وقد أُحضروا إلى هوليوود لإضفاء بعض اللمسات الواقعية على فيلم عن الاستكشاف القطبي. ورغم أن الفيلم عُرض منذ فترة طويلة، إلا أنهم رفضوا العودة إلى ألاسكا. فقد أحبوا هوليوود. كذلك هناك رعاة بقر الاستديوهات وتشكيلة المكسيكيين المتخصصين في مصارعة الديوك.

ترك ناثانيال بشكل واضح عملية صنع الأفلام الفعلية خارج روايته، وركَّز على أشخاص مصابين بالخدر أكثر من المعتاد ويفتقرون إلى الحيوية. والمثال الأكثر تأثيرًا لرجل من هذا النمط هو «هومر سيمبسون» الذي عمل ككاتب حسابات لمدة عشرين عامًا في فندق «مِد ويست»، والذي أتى للاستشفاء، وقام بتأجير كوخ في «بينيون كانيون». «كان فقط ثاني منزل عرضه عليه السمسار، لكنه أخذه لأنه كان مُتعَبًا ولأن السمسار كان (فتوة)».

إن «هومر» يبدو فقط وبالكاد ملحقًا بمحيطه؛ إن هذا المحيط لا يحتويه بشكل دقيق. إنه بشكل ما مُلصَق على جنوبي كاليفورنيا، مثله في ذلك مثل المستوطنين الكثيرين جدًّا هناك، والذين لم يكفُّوا أبدًا عن الشعور بأنهم عابرون. بذكاء لامع وعبر عينه البديلة -تود هاكيت- يجعلنا ناثانيال ويست ننظر إلى كل تفصيلة مصطنعة يجب على «هومر» المسكين أن يعيش معها.

«كان المنزل غريبًا. كان به مدخنة حجرية هائلة وملتوية للغاية، ونوافذ ناتئة بتيجان كبيرة، وسقف مغطى بالقش هبط حتى غدا واطئًا جدًّا على جانبي الباب الأمامي. هذا الباب كان من خشب الصمغ وقد دُهن مثل البلوط المُدخَّن وعُلق على مفصلات ضخمة. ورغم أن هذه المفصلات مصنوعة بالماكينة، إلا أنها دُقَّت بحرص لتبدو مطروقةً يدويا. نفس ذلك النوع من الحرص والمهارة تم استخدامهما لعمل تعريشة السقف؛ والتي لم تكن قشًّا حقيقيًّا، بل ورق مقوى ومضاد للحريق تم تلوينه وتدعيمه ليبدو مثل القش».

يسقط «هومر» المسكين تمامًا وبلا جدوى في حب «فاي جرينر» البلهاء. هذه هي الذروة العاطفية لحياته. حتى هذه اللحظة كان «هومر» ضعيفًا في الإحساس، خائفًا أن يحس. عندما يستيقظ في الصباح يشعر بأنه «أكثر غباءً وإنهاكًا من المعتاد. كان الأمر دائمًا هكذا... فضلات مشاعر فقط». «هومر» هو رجل الجموع الذي يُعد بمثابة المركز الرمزي لـ «يوم الجراد». لكنه الآن يعيش من أجل رؤية «فاي جرينر» ـ التي حتى لو لم تكن مشغولةً بخيالاتها، فإنها لم تكن لتقدر على الاستجابة لرجل

ضئيل الشأن للغاية مثل «هومر سيمبسون».

في النهاية تسمح «فاي» لنفسها بتلقي الدعم من «هومر» (الذي لا يحصل على أي شيء في المقابل)؛ وإذ تضجر من اهتمامه المستمر فإنها تلقي به إلى الخارج. وأخيرًا عندما يموت والد فاي، هاري، المهرج الفاشل تفسر ابنته المنغمسة في ذاتها سكتته القلبية القاتلة على أنها المزيد من تهريجه الفاشل. ومع ذلك فإنها ليست بلا قلب؛ إنها فقط غافلة. تحوِّل سخرية ناثانيال ويست الجنازة نفسها إلى مصدر تسلية مفتوحة لهذه الشخصيات الملولة وفاقدة الإرادة. ومثل عائلة الإسكيمو التي تظل في هوليوود بعد أن عُرض فيلمها، يستمتع كل هؤلاء الغرباء عن هاري جرينر بجنازته لأنهم لا يفعلون شيئًا غير ذلك. كل هذا الملل، والفراغ، وافتقاد المعنى في قلب هوليوود! إنه لَنذير. فـ «المخدوعون» في رعبهم المتنامي سيتحولون قريبًا إلى العنف الذي هو ملمح يومي في الحياة الأمريكية. والانفجار الغوغائي الذي يُنهي الكتاب له نظيره في زلازل كاليفورنيا، والمحيط الهادي العاصف الذي ينحر الشاطئ، والصورة الدائمة في رأس تود هاكيت عن احتراق لوس أنجلوس في «عز الظهيرة».

إن حشود هوليوود -بالغة التضليل عندما تطارد أوتوجراف نجم أو تصطف من أجل ليلة افتتاحية في تملق ظاهريّ- تريد في الحقيقة أن تقتل معبوديها. تلك واحدة من أذكى تبصرات ناثانيال. في الفصل الأخير تأتي الذروة الرائعة عندما يُجن الحشد في افتتاح ما ويضربون خبط عشواء. يفكر تود في الحشد تمامًا قبل أن يكتسحه تياره المندفع

وينقذه البوليس من الأذى. يتأمل سخط هؤلاء الذين قد أتوا إلى هوليوود بحثًا عن الفردوس، عن تعويض لحياتهم الشاقة والتافهة بشكل مؤلم:

«وإذ يأتون هناك، فإنهم يكتشفون أن سطوع الشمس ليس كافيًا. يسأمون البرتقال بل وكمثرى الأفوكادو والفواكه الاستوائية. لا شيء يحدث. لا يعرفون ماذا يفعلون بوقتهم. لا يملكون الإمكانات الذهنية اللازمة للرفاهية، ولا المال، ولا الإمكانات الجسمانية اللازمة للمتعة... يزداد مللهم فظاعة أكثر فأكثر. يدركون أنهم قد خُدعوا ويشتعلون غيظًا. في كل يوم من حياتهم كانوا يقرأون الجرائد ويذهبون لمشاهدة الأفلام. وغذتهم الجرائد والأفلام بحوادث الإعدام من دون محاكمة والقتل وجرائم الجنس والانفجارات والحطام وأعشاش الحب والحرائق والمعجزات والثورات والحروب. هذه الوجبة اليومية جعلت منهم متثاقفين... ليس ثمة من شيء يمكنه أن يبلغ من العنف ما يقدر به أن يشد عقولهم وأجسادهم المرتخية. لقد خُدعوا وغُرر بهم. لقد كدحوا وادخروا من أجل لا شيء».

كانت هوليوود بالنسبة لأفضل روائييها مرآة استنسخت فيها عاصمة السينما تلك كل الاهتمامات والهموم الرئيسة للكاتب. لم يصور سكوت فيتزجرالد آخر أباطرة المال في كثير منه على أنه البطل الأخير على طريقة فيتزجرالد القديمة -«مونرو ستار» رجل صاحب أذكى المدركات لذلك هو محكوم عليه بالدمار. أما نورمان ميلر في روايته «حديقة الغزلان» فلم يرَ في ملهى هوليوود المفضل «بالم

سبرينجز» شيئًا غير المنتجين الواقعين في شرك الهيستيريا الماكارثية -وكذلك عناصر المشهد المفضل لـ«ميلر»: حفل العربدة الجنسية. أما أنجح روايات هوليوود الحديثة -رواية جوان ديديون «العبها كما هي»-فتصور كل شيء عبر عيني نجمة تعاني من انهيار عصبي. تربط جوان ديديون بحسها المحافظ بين اهتياجات بطلتها العصبية وبين رموز الانحلال الأمريكي مثل حالات الإجهاض، والشذوذ الجنسي، وتعدد العلاقات، والطرق السريعة المميتة ذات الخمس حارات والتي تقود «ماريا ويث» المسكينة عربتها فيها جيئةً وذهابًا لكي تظهر أنها تحتفظ ببعض التحكم في حياتها. مشكلتها أنها لا تستطيع تجاوز تدريبها (الويسترن) المبكر مع أب على نمط الممثل «جون وين». أما الآن فهي مبتلاة بـ«التهتك» و«الافتقار للجذور» الأمريكيَين. وبعد تحريض صديق مِثلي على الانتحار، تؤخذ إلى مستشفى أمراض عقلية حيث تحكي لنا منها الآن قصتها.

ربما تكون «العبها كما هي» محافظة في أصلها الاستلهامي، لكنها مبهرجة جدًّا في تأثيراتها. «وضعت ماريا قائمة بالأشياء التي لن تفعلها أبدًا. إنها أبدًا لن: تمر بالـ(ساندز) أو الـ(سيزر) بعد منتصف الليل. أبدًا لن: ترقص في حفل، لن تمارس السادية/ المازوخية إلا إذا أرادت...» هذا التوهج يفسر إلى حد كبير نجاح الكتاب بنفس القدر الذي يُعزى إلى المسلسل الطويل من المشاهد «السينمائية» التي انبنت عليها الرواية. إن «يوم الجراد» مكافئة لها في التجرد؛ فهي حادة، قاطعة، وبلا رحمة في هجائها العدواني. ولكن بعكس ديديون ـ المتخصصة (الذاتية جدًّا

بل الراثية للذات) في الهزات النسوية ـ كان ناثانيال ويست موضوعيًا، سياسيًّا، متبصرًا؛ ولذلك، كان أكثر روائيي هوليوود بعثًا لليأس. «يوم الجراد» هي هوليوود بلا فتنة، بلا أدنى تخفيف للعبث والقسوة الفعليين المتضمنين في مدينة -في الحقيقة صناعة- مجهزة تمامًا للـ«نجاح»، لدرجة أنها تمتطي على الفور أي شخص يسقط تحت عجلاتها.

ومثل كل روائيي هوليوود المُجيدين، رأى ناثانيال المكان كرمز لكل ما هو الأكثر إسرافًا وفسادًا وبعدًا عن الانضباط في الحياة الأمريكية. ولكن ناثانيال تفوق على أي روائي آخر منشغل بأساليب هوليوود المتخصصة، في رؤيته للمستقبل الأمريكي متمثلًا في كل هؤلاء الناس الذين اعتقدوا أنهم قد تخلصوا من ماضيهم. ولكونه هو نفسه نتاجًا لسنوات العشرينيات في القرن العشرين ومذهبها الفردي، فقد أدرك الحقيقة الباقية خلف الأحوال الأمريكية في الكساد الكبير. رأى أننا كنا نعيش عصرًا ليس فقط ذا ذوق جماعي (كانت هوليوود هي الصانع الرئيس) ولكن أيضًا ذا تحكم غير مؤكد. إن الجمهور المنعزل لن يقبل دائمًا أن يبقى محبوسًا.

تعكس مثل هذه الرؤى الكئيبة كل مرارة الثلاثينيات، بتخوفها من الديماجوجية الأمريكية وإمكانية صعود الفاشية الأمريكية. هناك مؤشرات قبل وفاة ناثانيال ويست في ١٩٤٠ على أن آراءه بدأت تغدو أقل خشونةً. كان أصدقاؤه وعائلته متأكدين من أنه لو استجاب ناثانيال لإشارة (قِف) عندما كان مندفعًا هو وزوجته من المكسيك لحضور جنازة سكوت فيتزجرالد في هوليوود، لعاش ليكتب كتبًا أكثر تناغمًا

من «يوم الجراد». لكن هذه الرواية تقف متفردة بين الكتابات الأدبية الهائلة عن هوليوود. إن يأسها ومزاجها سيجدان دائمًا صدى في العقل الأمريكي. لم يؤمن ناثانيال بتملق شخصياته أو بالانجذاب بعيدًا عن الحقيقة. ولذلك يظل كتابه هذا حيًّا.

ألفريد كازِن.

١

قرب وقت مغادرة العمل، تناهت إلى سمع تُود هاكيت جلبة هائلة في الطريق خارج مكتبه، اختلط فيها صرير الجلد بقرقعة الحديد، وزاد على كل هذا دقات ما يقرب من ألف حافر؛ فهرع إلى النافذة.

كان جيش من الفرسان والمشاة يمر. كانوا يتحركون كالغوغاء؛ وصفوفهم متكسرةً كما لو كانوا يفرون من هزيمة رهيبة. كانت معاطف الفرسان، وخوذات الحرس الثقيلة، وخيول «هانوفر» الخفيفة بأغطية رؤوسها الجلدية المسطَّحة وريشاتها الحمر المتمايلة كلها مختلطة ببعضها البعض في اضطراب وبلبلة. ومن خلف الفرسان أتى المشاة: بحر هائج من الألوية المتماوجة، والبنادق القديمة المائلة، وأحزمة الكتف المتقاطعة، وصناديق الذخيرة المتأرجحة. استطاع تود أن يميز مشاة إنجلترا ذوي الزيّ القرمزي بكتَّافاتهم البيضاء، ومشاة دوق (برونزويك)[٧] بزيِّهم الأسود، وقاذفي القنابل الفرنسيين بأوقية سيقانهم البيضاء الهائلة، والأسكتلنديين بركبهم العارية تحت تنُّوراتهم ذات النقوش المربعة.

(٧) **Brunswick**: دوقية تاريخية في الأراضي الشمالية الغربية من الإمبراطورية الرومانية.

وفيما تُود يتفرج ، اندفع من وراء ناصية المبنى رجل قصير سمين يرتدي قبعة من الفلين و(فانلة بنصف كم) وسروالًا قصيرًا ملمومًا عند الركبتين ملاحقًا هذا الجيش.

كان يصرخ في مكبر صوت صغير: «المرحلة التاسعة يا أولاد الحرام... المرحلة التاسعة!».

همز الفرسان خيولهم واندفع المشاة مهرولين. أما الرجل القصير ذو القبعة الفلينية فقد جرى خلفهم وهو يهز قبضته ويسب ويلعن.

بقي تُود يرقبهم حتى اختفوا خلف نصف مركب بخاري من مراكب المسيسبي، ثم وضع أقلامه الرصاص ولوحة الرسم، وغادر المكتب. وقف للحظة على الرصيف خارج الاستوديو محاولًا أن يقرر ما إذا كان سيمشي إلى بيته أم سيأخذ الترام. كان قد مر عليه أقل من ثلاثة أشهر في هوليوود، ومازال يجدها مكانًا مثيرًا للغاية، لكنه كان يحس بالكسل ولم يكن يود أن يمشي. فقرر أن يأخذ الترام حتى شارع «ڤاين»، ويمشي بقية الطريق.

كان أحد كشَّافي المواهب لشركة (ناشيونال فيلمز) قد أتى بـ تُود إلى «الساحل» بعد أن رأى بعض رسوماته في معرض لأعمال الطلبة في مدرسة (ييل) للفنون الجميلة.

لقد تم التعاقد معه بالتليغراف. لو كان هذا الكشَّاف قد قابل تُود، فربما لم يكن ليرسله إلى هوليوود ليتعلم تصميم الخلفيات والأزياء. فجسمه المفلطح الكبير، وعيناه الزرقاوان بطيئتا الحركة، وابتسامته العريضة الخرقاء جعلوه يبدو بلا أي موهبة على الإطلاق، وللحقيقة كان

يبدو بليدًا تقريبًا.

مع ذلك ـ وبالرغم من مظهره ـ كان بالفعل شابًّا مُعقَّدًا للغاية بطاقم كامل من الشخصيات؛ واحدة داخل الأخرى مثل مجموعة من العلب الصينية. وقد أثبتت لوحة «احتراق لوس أنجلوس» التي كان على وشك أن يرسمها -وبما لا يدع مجالًا للشك- أنه يمتلك الموهبة.

غادر عربة الترام عند شارع «ڤاين». وبينما هو سائر كان يتفحص حشود المساء. كان عدد كبير من الناس يرتدون ملابس رياضية، لم تكن في الحقيقة ملابس رياضية. كان ما يرتدونه من سويترات وسراويل قصيرة وبناطيل وسترات الفانيلا الزرقاء ذات الأزرار النحاسية كلها ملابس تنكرية. فالسيدة السمينة المرتدية قبعة اليخوت كانت ذاهبة للتسوق وليس للإبحار، والرجل ذو السترة الـ «نورفولك»[٨] والقبعة الصلبة لم يكن عائدًا من جبل؛ بل من مكتب تأمينات، والفتاة ذات البنطلون والحذاء الخفيف و(الباندانا) حول رأسها كانت قد غادرت توًّا عملها أمام لوحة مفاتيح، وليس ملعب تنس.

وبين هذه الأزياء التنكرية تناثر أناس من نوع مختلف. كانت ملابسهم كئيبة ورديئة التفصيل، اشتروها من مراكز البيع بالبريد. وبينما كان الآخرون يتحركون بسرعة، منطلقين إلى داخل المحلات الكبيرة وبارات الكوكتيل، كان هؤلاء يتسكعون على النواصي أو يقفون مولِّين

(٨) **Norfolk jacket**: سترة فضفاضة بحزام وصفّ واحد من الأزرار وثنيات أمامية وخلفية، صممت في الأصل كمعطف صيد بحيث لا تعوق الحركة عندما يرتفع الذراع لإطلاق النار، ويعود اسمها لمقاطعة نورفولك الإنجليزية.

ظهورهم للقثارين ومحدِّقين في أي شخص يمر. وعندما يرد أحد عليهم نظرتهم المُحدِّقة، تمتلئ عيونهم بالكراهية. في هذا الوقت كان تود يعرف قليلًا جدًّا عنهم، غير أنهم جاءوا إلى كاليفورنيا ليموتوا.

كان عازمًا على أن يعرف أكثر من ذلك. فقد كان هؤلاء هم الناس الذين شعر أنه يجب أن يرسمهم. لن يرسم مرةً أخرى أبدًا حظيرةً حمراء سمينةً أو سورًا حجريًّا قديمًا أو صياد سمك قوي البنية من «نانتاكِت»[٩]. فمنذ اللحظة التي وقع بصره عليهم فيها -وبالرغم من عِرقه وتعليمه وتراثه- عرف أن «وينسلو هومِر»[١٠] و«توماس رايدر»[١١] لن يكونا أساتذته، ويمَّم وجهه شطر «جويا»[١٢] و«دومييه»[١٣].

عرف هذا في الوقت المناسب تمامًا. فأثناء سنته الأخيرة في مدرسة الفنون بدأ يفكر في أنه من المحتمل أن يترك الرسم نهائيًّا. كانت المتع التي يتلقاها من مسائل التكوين واللون قد تناقصت في الوقت الذي ازدادت فيه براعته وأدرك أنه يسير في الطريق التي يمضي فيها كل زملاء دراسته: نحو الرسم التوضيحي أو الجمال الخالص. وعندما أتت إليه وظيفة هوليوود تلك، تمسَّك بها على الرغم من مجادلات أصدقائه

---

(٩) **Nantucket**: جزيرة على مبعدة ٣٠ ميلاً من كيب كود بولاية ماساشوستس.

(١٠) **Winslow Homer** (١٨٣٦ - ١٩١٠): رسام مناظر طبيعية وفنان طباعة أمريكي، اشتهر برسوماته البحرية.

(١١) **Thomas Ryder** (١٧٤٦ - ١٨١٠): فنان بريطاني، عُرف بلوحاته الكلاسيكية.

(١٢) **Francisco Jose de Goya** (١٧٤٦ - ١٨٢٨): فنان أسباني شهير، يُعد آخر الأساتذة الكبار وأول الحداثيين.

(١٣) **Honore Daumier** (١٨٠٨ - ١٨٧٩): مصور ونحات ورسام كاريكاتير فرنسي، تُعد أعماله الكثيرة تعليقًا فنيًّا على الأحداث الاجتماعية والسياسية في فرنسا خلال القرن التاسع عشر.

الذين كانوا على يقين من أنه يبيع القضية برمتها، ولن يعود للرسم ثانية.

وصل إلى نهاية شارع «ڤاين» وبدأ يصعد إلى «بينيون كانيون». كان الليل قد بدأ يهبط.

كانت أطراف الأشجار مشتعلة بضوء بنفسجي باهت، وتحول لون مركزها تدريجيًّا من الأرجواني الغامق إلى الأسود. نفس الحاشية البنفسجية -مثل مصباح النيون الأسطواني- كانت تحدد الإطار الخارجي لقمم التلال الحدباء القبيحة حتى أنها غدت جميلةً تقريبًا. لكن حتى طلاء الغسق الناعم هذا لم يكن يجدي فتيلًا مع البيوت. الديناميت فقط هو ما كان يمكن أن يكون ذا نفع ضد البيوت المكسيكية ذات الحظائر الكبيرة، والأكواخ الساموانية [١٤]، والفيلات البحرمتوسطية، والمعابد المصرية واليابانية، والشاليهات السويسرية، والبيوت التيودورية[١٥] الصغيرة، وكل تجميعة ممكنة من هذه الطرز التي اصطفت على منحدرات هذا الوادي الضيق.

وعندما لاحظ أنها جميعها من الجص والأبلاكاش والورق، ترفَّق وألقى باللوم في مسألة شكل هذه الأبنية على الخامات التي استُخدمت في بنائها. فالحديد الصلب والحجر والطوب تكبح خيال البنَّاء قليلًا، وتجبره على توزيع ضغوطه وأحماله والحفاظ على زواياه سليمة مائة بالمائة، لكن الجص والورق لا يعرفان قانونًا، ولا حتى قانون الجاذبية.

---

(١٤) نسبة إلى دولة ساموا التي كانت تعرف سابقًا بساموا الغربية، وهي مجموعة جزر في جنوبي المحيط الهادي كانت تابعة لنيوزلندا.

(١٥) نسبة إلى نمط العمارة التيودوري الذي ساد خلال العصور الوسطى في إنجلترا إبان حكم أسرة تيودور الملكية (١٤٨٥ – ١٦٠٣)، وقد شاعت محاكاة هذا النمط في عشرينيات القرن العشرين في هاواي مع انتشار السياحة هناك.

على ناصية طريق «لا هويرتا»، كانت هناك قلعة مصغرَّة من قلاع نهر «الراين»، وقد غُرست فيها أبراج صغيرة من الورق المُفبَّر من أجل رماة السهام. وبجوارها كان هناك كوخ ملون بشكل عالي الجودة وبه قباب ومنارات من «ألف ليلة وليلة». مرةً أخرى انتابه الترفق. كان المنزلان كلاهما باعثين على الضحك، لكنه لم يضحك. كانت رغبتهما في المباغتة متلهفة وصادقة إلى درجة السذاجة.

من الصعب أن تضحك على الحاجة إلى الجمال والرومانسية، مهما كانت نتائجها عديمة الذوق أو حتى رهيبة. ولكن من السهل أن تتنهد بحسرة. فقلَّما يوجد شيء أكثر بؤسًا من مسخ حقيقي.

❊ ❊ ❊

٢

كان البيت الذي يعيش فيه شيئًا مُتأبِّيًا على التصنيف يُدعى «سان برناردينو آرمس». كان مستطيلًا ارتفاعه ثلاثة طوابق، ظهره وجوانبه من جص غير مطلي تقطعه صفوف من نوافذ غير مزخرفة. أما واجهته فكانت بلون المُستردة المخففة ونوافذها -المزدوجة كلها- مؤطرة بأعمدة مغربية وردية، تحمل عتبات علوية على شكل زهرة التيوليب.

كانت حجرته في الطابق الثالث، لكنه توقف للحظة على (بَسطة) الطابق الثاني. في هذا الطابق كانت تعيش فاي جرينر، في رقم ٢٠٨. ولمَّا ضحك شخص ما في إحدى الشقق، جفل شاعرًا بالذنب، واستمر في صعوده.

عندما فتح بابه، رفَّت بطاقة ساقطة على البلاط. كان مكتوبًا عليها بخط كبير :

«المخلص إيب كوزيتش».

وتحتها بحروف أصغر مائلة عدة توقيعات طُبعت لتبدو مثل الملحوظات الصحفية :

«... مجموعة (لويدز) بهوليوود» ـ ستانلي روز.

« كلمة إيب أفضل من قيود مورجان» ـ جيل برينشو.

وعلى الوجه الآخر من البطاقة رسالة مكتوبة بالقلم الرصاص:

«كينجبن الرابع، سوليتير السادس. ممكن تعمل شوية خميرة بصحيح على قفا البهايم دول».

بعدما فتح النافذة، خلع سترته، وتمدد على السرير. عبر النافذة كان باستطاعته أن يرى مُربعًا من سماء مصقولة وغصنًا من شجرة أوكاليبتوس. هبَّ نسيم خفيف فحرَّك أوراقها الطويلة الرفيعة كاشفة عن جانبها الأخضر أولًا، ثم جانبها الفضي بعد ذلك.

بدأ يفكر في «المخلص إيب كوزيتش» حتى لا يفكر في فاي جرينر. شعر بالراحة وأراد أن يظل هكذا.

كان «إيب» موديلًا مهمًّا في مجموعة مطبوعات حجرية يعمل عليها تود بعنوان «الراقصون». كان أحد الراقصين، وكانت فاي جرينر واحدة منهم، وكذلك والدها هاري. كانوا يتغيرون مع كل لوحة، لكن مجموعة الأشخاص القلقين الذين شكلوا جمهورهم ظلوا كما هم: أشخاص واقفون يحدقون في المُؤدِّين بنفس الطريقة التي كانوا يحدِّقون بها في مرتدي الأقنعة في شارع ڤاين. تحديقتهم تلك هي التي كانت تدفع إيب والآخرين للدوران حول أنفسهم بجنون والقفز في الهواء بظهور ملويَّة مثل سمك السلمون المرقط المعقوف.

وبرغم السخط الحقيقي الذي كانت تثيره فيه عربدة إيب البشعة، إلا أنه كان يرحب بصحبته. فقد كان هذا الرجل الصغير يثيره؛ وبهذه الطريقة

كان يجعله متأكدًا من حاجته للرسم.

كانت المرة الأولى التي قابل فيها إيب عندما كان يعيش في شارع «إڤار» في فندق يُدعى «قصر ميرابيللا». شارع إڤار هذا كان له اسم آخر هو «زقاق ليزول»، وكانت أغلبية ساكني «القصر» من المحتالين والعاهرات، ومديريهم، ومدربيهم، ووكلائهم.

في الصباح كانت قاعاته تفوح برائحة المطهرات. ولم يكن تود يحب هذه الرائحة. علاوةً على ذلك كان الإيجار مرتفعًا لأنه كان يتضمن حماية الشرطة، وهي الخدمة التي لم يكن تود بحاجة إليها. أراد أن ينتقل إلى مكان آخر، لكن الكسل وحقيقة أنه لم يكن يعرف إلى أين يذهب جعلاه يبقى في «القصر» إلى أن التقى إيب. وكان لقاءً عارضًا.

كان في طريقه إلى حجرته متأخرًا ذات ليلة، عندما رأى ما ظنه كومةً من الغسيل المتسخ موضوعة أمام الباب الواقع على الجانب الآخر من القاعة. وفيما هو يمر إلى جانبها، تحركت الكومة مخرجةً صوتًا غريبًا. أشعل عود ثقاب ظنًّا منه أنها قد تكون كلبًا ملفوفًا في بطانية. وعندما توهج الضوء أدرك أنها رجل صغير.

انطفأ العود، فأشعل آخر بسرعة. كان قزمًا ذكرًا ملفوفًا في روب حمَّام نسائي من نسيج صوفي ناعم. أما الشيء المستدير في آخره فكانت رأسه المصابة باستسقاء خفيف، ومن رأسه تلك بقبق شخير بطيء مختنق.

كانت القاعة باردة وبها تيارات هوائية عنيفة. قرر تود أن يوقظ الرجل، فدفعه بإصبع قدمه. تأوه هذا، وفتح عينيه.

«لا ينبغي أن تنام ها هنا!».

«طظ في كلامك!» قالها القزم وهو يغلق عينيه مرةً أخرى.

«ستُصاب بالبرد».

لم تُثر هذه الملحوظة الودية غير المزيد من غضب الرجل الصغير. جأر زاعقـًا:

«أنا عاوز هدومي!».

امتلأ عقب الباب الذي كان متمددًا إلى جواره بالنور. فقرر تود أن ينتهز الفرصة ويطرقه. وبعد ثوان قليلة فتحت امرأة الباب مواربًا. وسألت:

«ماذا تريد بحق الجحيم؟».

«أحد أصدقائك في الخارج ها هنا وهو...».

لم يدعه أيّ منهما يكمل.

«ماذا إذن!» زعقت وهي تصفع الباب في وجهه.

«ادِّيني هدومي يا قحبه إنتي!» هدر القزم صارخًا.

فتحت الباب مرةً أخرى، وبدأت تقذف بالأشياء إلى القاعة. سترة وبنطلون، قميص، جورب، حذاء وسروال داخلي، ربطة عنق وقبعة تبعوا بعضهم البعض في الهواء في تعاقب سريع. ومع كل قطعة لعنة خاصة.

صفـَّر تُود في انشداه : «يا لها من امرأة!».

قال القزم : «تراهن؟ فخمة.. مومس كاملة وجودتها عالية».

ضحك على نكتته مصدرًا قوقأة عالية تليق بقزم أكثر من أيّ شيء آخر صدر منه حتى ذلك الوقت، ثم جاهد ليقف على قدميه مسوِّيًا الروب الفضفاض حتى يمكنه المشي دون أن يتعثر. ساعده تود في جمع ملابسه المتناثرة.

«قل لي يا سيد..» تساءل القزم «ممكن ألبس في مطرحك؟».

تركه تود يدخل الحمَّام. وأثناء انتظار خروجه، لم يستطع تود ألا يتخيل ما قد حدث في مسكن المرأة. وبدأ يشعر بالأسف على تدخله. لكن عندما خرج القزم مرتديًا قبعته، شعر تود بالتحسن.

أصلحت قبعة الرجل الصغير تقريبًا كل شيء. ففي هذا العام كان ارتداء القبعات (التايرولية) شائعًا في (هوليوود بوليفارد)، وكانت قبعة القزم نموذجًا طيبًا بلونها الأخضر السحري المميز والقبة المخروطية العالية. كان ينبغي أن يكون لها إبزيم نحاسي في واجهتها، ولكن فيما عدا ذلك كانت ممتازةً إلى حد كبير.

أما بقية زيِّه فلم يكن متماشيًا مع القبعة. فبدلًا من الحذاء ذي البوز الطويل والحزام الجلدي كان يرتدي بدلة زرقاء مزدوجة الصدر وقميصًا أسود وربطة عنق صفراء. وبدلًا من العصا الشوكية المعقوفة كان يحمل نسخة مبرومة من جريدة (دايلي رانينج هورس).

«آدي اللي باخده من اللعب مع نسوان بتلاتة مليم». قال على سبيل التحية.

أومأ تود برأسه وحاول التركيز على القبعة الخضراء. ويبدو أن

إذعانه السريع ذاك قد أثار حفيظة الرجل الصغير.

«مافيش مومس تخوزق إيب كوزيتش وتخلع بعملتها دي». قال بمرارة. «مش لما يكون في قدرتي أخلّيها برجل مكسورة بعشرين دولار، وأنا معايا عشرين دولار».

أخرج محفظة سميكة ولوَّح بها في وجه تود.

«بقى هي فاكرة إنها تقدر تخوزقني.. هِه؟ ماشي! خلليني أقول لك...».

قاطعه تود بسرعة:

«أنت على حق يا سيد كوزيتش».

دنا القزم من حيث كان تود يجلس، وللحظة ظن تود أنه سيصعد إلى حِجره، لكنه فقط سأله عن اسمه وصافحه. كان لهذا الرجل الصغير قبضة قوية.

«خلليني أقول لك حاجة يا هاكيت؛ لو ماعدِّيتش كنت كسرت الباب. المَرَا دي فاكرة إنها خوزقتني، بس هي خدت حاجة تانية جاية لها في السكة. لكن شكرًا على أيّ حال».

«انسَ ذلك».

«أنا ما بانساش حاجة. أنا بافتكر. بافتكر اللي بيعملوا معايا الوساخة واللي بيعملوا معايا الجميل».

قطَّب جبينه وظل صامتًا للحظة.

«اسمع..» قال أخيرًا.. «بما إنك ساعدتني، يبقى لازم أرد لك

الجميل. أصل أنا مش عايز كائن مِن كان يدور يقول إن إيب كوزيتش مديون له بأيّ شيء. عشان كده ح أقول لك إيه.. ح أدِّيك حاجة كويِّسة ع الخامس في (كالييتي). إنت تراهن بورقة بخمسة على مناخيره وح ترجع لك عشرين ورقة. اللي باقوله لك صحيح بجد».

لم يعرف تود كيف يجيب، وأهان تردده ذاك الرجل الصغير.

«هو أنا كنت ح أشور عليك بتور مخصي ما يساويش حاجة؟» تساءل عابسًا.. «هِه؟».

مشى تود في اتجاه الباب ليتخلص منه.

«لا» قال تود.

«يبقى ما تراهنش عليه ليه .. هِه؟».

«ما اسم الحصان؟» سأله تود آملًا أن يهدئه.

كان القزم قد تبعه حتى الباب، وهو يجر روب الحمَّام وراءه من كمّ واحد. كان كله على بعضه وبالقبعة أقصر من حزام تود بقدم.

«تراجوبان. هو كسبان أكيد أكيد. أنا أعرف صاحبه وهو عطاني كلمة ثقة».

«هل هو يوناني؟» سأله تود.

حاول أن يكون لطيفًا لكي يخفي محاولته لمناورة القزم حتى يخرج من الباب.

«آه .. يوناني . تعرفه؟».

«لا».

«لا؟».

«لا» قالها تود بحسم.

«خللي كروتك مكشوفة» قالها القزم آمرًا «كل اللي عايز أعرفه هو إزاي عرفت إنه يوناني إذا كنت ما تعرفهوش؟».

ضاقت عيناه بالشك وأطبق قبضتيه بإحكام.

ابتسم تود كي يهدئه.

«لقد خمنت فقط».

«بقى كده؟».

قوَّس القزم كتفيه كما لو كان سيسحب مسدسًا أو سيلقي بلكمة. تراجع تود وحاول أن يشرح.

«خمَّنت أنه يوناني لأن (تراجوبان) كلمة يونانية معناها (طائر الدراج)».

كان القزم ما زال بعيدًا عن الاقتناع.

«وإزاي عرفت معناها؟ هو إنت يوناني؟».

«لا، ولكني أعرف القليل من الكلمات اليونانية».

«يعنى إنت شاب ذكي.. هِه ،عارف كل حاجة».

أخذ خطوة قصيرة للأمام، متحركًا على أصابع قدميه، وتأهب تود لصد لكمة.

«راجل جامعي ..هِه؟ كويس، خلليني أقول...».

تعثرت قدمه في الإزار وسقط على يديه. نسى تود وانطلق يسب روب الحمَّام، ثم بدأ هجومه على المرأة مرةً أخرى.

«بقى هي فاكره إنها تقدر تخوزقني».

وظل يوخز صدره بإبهاميه.

«مين اللي عطاها أربعين دولار عشان عملية إجهاض؟ مين؟ وعشرة تانية عشان تروح الريف تستجم ديك النهار. بعتـَّها مزرعة كبيرة لتربية الخيول. ومين اللي طلعها زيّ الشعرة من العجين ديك المرَّة في «سانتا مونيكا»؟ مين؟».

«هذا صحيح» قالها تود، وهو يستعد لإعطائه دفعةً سريعةً عبر الباب.

لكنه لم يكن مضطرًّا لدفعه. فقد اندفع الرجل الصغير فجأةً من الحجرة وانطلق يعدو عبر القاعة ساحبًا روب الحمَّام وراءه.

بعد أيام قليلة، دخل تود محل أدوات مكتبية في شارع ڤاين ليشتري مجلة. وبينما هو يطالع الرفّ شعر بجذبة في أسفل سترته. كان إيب كوزيتش، القزم، مرةً أخرى.

«إزاي الأحوال؟» تساءل.

اندهش تود حين وجده بنفس الوحشية التي كان عليها في الليلة الأولى. فيما بعد، وعندما عرفه بشكل أفضل، اكتشف أن مشاكسة إيب غالبًا ما تكون ممازحة. وعندما يستخدمها مع أصدقائه، كانوا يلعبون معه مثلما يفعل المرء مع جرو ينبح، بتحاشي اندفاعاته المجنونة ثم إغرائه

ليندفع مرةً أخرى.

«بشكل معقول. لكن أعتقد أني سأترك البيت».

كان قد قضى معظم يوم الأحد باحثًا عن مكان للعيش، وكان مشغولًا تمامًا بهذا الموضوع. لكنه ما إن ذكر ذلك حتى أدرك أنه قد ارتكب خطأً. حاول أن ينهي الأمر بالاستدارة مبتعدًا، لكن الرجل الصغير سد طريقه. كان من الواضح أنه يعتبر نفسه خبيرًا في موضوع الإسكان. وبعد تحديد ونبذ دستة من الاحتمالات دون أن يتفوه تود ببنت شفة، خطر له في النهاية ذكر (سان برناردينو آرمس).

«هو ده المكان المناسب ليك، سان بردو. أنا عايش هناك، عشان كده كان لازم أعرف. ومالك البيت راجل على قد الحال. ياللا بينا ، ح أظبَّطك تمام».

«لا أعرف، أنا ...» بدأ تود.

شمخ القزم بأنفه على الفور، وبدا مهانًا بشكل مميت.

«متهيألي إنه مش كويس كفاية بالنسبه لك. ماشي، خلليني أقول لك حاجه، إنت...».

سمح تود لنفسه أن يرضخ للتهديد، وذهب مع القزم إلى (بينيون كانيون). كانت الحجرات في سان بردو صغيرة وليست بالشديدة النظافة. لكنه حالما رأى فاي جرينر في البهو، استأجر واحدة دون تردد.

* * *

٣

سقط تود نائمًا. ولمَّا استيقظ ثانيةً، كانت الساعة قد جاوزت الثامنة. استحم وحلق ذقنه ثم ارتدى ملابسه أمام مرآة خزانة الملابس. حاول أن يراقب أصابعه بينما هو يثبت ياقته وربطة العنق، لكن عينيه ظلتا تشردان إلى الصورة الفوتوغرافية المحشورة في الركن العلوي من إطار المرآة.

كانت صورة لفاي جرينر؛ لقطة ثابتة من فيلم هزلي بنظام البكرتين[١٦] عملت فيه كواحدة من المجاميع. كانت قد أعطته الصورة عن طيب خاطر كافٍ، بل ووقَّعتها له بخط كبير وحشي: «صديقتك المُحبة فاي جرينر»، لكنها رفضت صداقته، أو بالأحرى أصرَّت على إبقاء الأمر غير شخصي. كانت قد أخبرته بالسبب؛ فلم يكن لديه شيء يقدمه لها.. لا المال ولا المظهر، وهي لم يكن باستطاعتها أن تحب إلا رجلًا وسيمًا ولم تكن لتدع رجلًا يحبها إلا إذا كان ثريًّا. كان تود «رجلًا طيب القلب» وهي كانت تحب «الرجال طيبي القلوب» ولكن فقط كأصدقاء. لم تكن

(١٦) كانت الأفلام الطويلة تُسجل على بكرتين، يقوم مُشغِّل الفيلم في دور العرض بتشغيل الأولى وقرب نهايتها تظهر علامات مثل النقط أو الخطوط؛ لكي يستعد لاستبدالها بالأخرى.

جامدة القلب. كل ما في الأمر أنها وضعت الحب على طائرة خاصة؛ حيث لا يمكن لرجل بلا مال أو مظهر أن يرتحل.

شخر تود بضيق حين التفت إلى الصورة. كانت ترتدي فيها زيّ الحريم: بنطلون تركي تمامًا، صفائح واقية للصدر وصديري، ورقدت متمددة على أريكة حريرية ممسكة في يد بزجاجة بيرة، وفي الأخرى بقدح بيرة من الصفيح.

كان قد قطع الطريق بأكمله إلى (جليندايل)[١٧] ليراها في ذاك الفيلم. وكان الفيلم عن لاعب درامز أمريكي يضل طريقه في سراي تاجر دمشقي، ويجني الكثير من المتعة مع الحريم المقيمات. لعبت فاي دور إحدى الفتيات الراقصات. وكان لديها سطر واحد تقوله: «أوه يا سيد سميث!» وكانت تقوله بشكل سيئ.

كانت فتاة طويلة بكتفين عريضتين مستقيمتين وساقين طويلتين كالسيوف. رقبتها كانت طويلة أيضًا كالعمود. وجهها كان أكثر امتلاءً مما يمكن لبقية جسدها أن يوحي لك بتوقعه، وأكبر بكثير. كان وجهًا قمريًّا؛ عريضًا عند الصدغين وضيقًا عند الذقن والجبين. وكانت محتفظةً بشعرها الأصفر الباهت الطويل تاركةً إيَّاه منسدلًا إلى ما وراء كتفيها تقريبًا، وإن أبقته بعيدًا عن وجهها وأذنيها بشريط أزرق رفيع أُنزل من تحت شعرها ورُبط على قمة رأسها بفيونكة صغيرة.

كان من المفترض بها أن تبدو مخمورةً وقد كان، ولكن ليس من

(١٧) **Glendale**: مدينة في لوس أنجلوس، تُعد بمثابة ضاحية في تلك المقاطعة الكبيرة.

تأثير الكحول. رقدت متمددة على الأريكة وقد بسطت ذراعيها وساقيها كما لو كانت ترحب بحبيب، وكانت شفتاها منفرجتين في ابتسامة ثقيلة متجهمة. كان من المفترض بها أن تبدو داعيةً، لكنها لم تكن بالدعوة السارة.

أشعل تود سيجارةً وأخذ نفسًا بلهاث عصبي. بدأ يلهو بربطة عنقه مرةً أخرى، لكنه كان مجبرًا على العودة إلى الصورة.

لم تكن دعوتها للمتعة، بل للمجاهدة، قاسية وحادة، أقرب للقتل منها إلى الحب. إذا ألقيت نفسك عليها فكأنك تلقي بنفسك من حاجز ناطحة سحاب. ستفعل ذلك وأنت تصرخ. لا يمكن أن تتوقع قيامك مرةً أخرى. ستنغرس أسنانك في جمجمتك مثل المسامير في لوح من الصنوبر وسينكسر ظهرك. لن تملك حتى الوقت لتتعرق أو لتغلق عينيك.

استطاع أن يضحك على لغته، لكنها لم تكن ضحكةً حقيقيةً، ولم يكن بمقدورها أن تمحو أيّ شيء.

لو أنها فقط تدعه يفعل، سيكون سعيدًا بإلقاء نفسه مهما كان الثمن. لكنها لم تكن لتقبله. لم تكن تحبه، ولم يكن باستطاعته أن يعزز مستقبلها المهني. لم تكن عاطفيةً ولا بحاجة إلى الحنان، حتى إذا كان قادرًا عليه.

عندما انتهى من ارتداء ملابسه، أسرع خارجًا من الحجرة. كان قد وعد بالذهاب إلى حفل في منزل كلود إيستي.

٤

كان كلود كاتب سيناريو ناجحًا يعيش في بيت كبير، يُعد استنساخًا دقيقًا لقصر «دوبوي» القريب من مدينة (بيلاكسي) بالمسيسبي. وعندما اقترب تود من الممشى المحاط بسياج من خشب البقس، حيَّاه كلود من شرفة ضخمة بالطابق الثاني بأداء تمثيلي يتماشى مع نمط العمارة الجنوبي الاستعماري. كان يتأرجح على كعبيه للخلف والأمام مثل كولونيل في الحرب الأهلية، جاعلًا من يراه يعتقد بأن له كرشًا كبيرًا.

لم يكن له كرش على الإطلاق. كان رجلًا ضئيلًا ممصوصًا، له تلك الملامح الباهتة والأكتاف المنحنية التي تليق بموظف بريد. كان ليليق به كذلك المعطف الموهير البالي لذات الموظف وبنطاله الحائل اللون، لكنه كان كعادته متأنقًا. في عروة سترته البُنيَّة وضع زهرة ليمون. بنطلونه من صوف (هاريس) الكاروهات المائل للحمرة، وفي قدميه زوج من الأحذية ذات الرباط ولها لون الصدأ. وكان قميصه من الفلانيل العاجي، أما ربطة عنقه فحمراء غامقة حتى لتبدو سوداء تقريبًا.

بينما كان تود يصعد الدرج ليمسك بيده الممدودة، صاح كلود مناديًا كبير الخدم :

«تعال أيها الوغد الأسود ! جُلاَّب[١٨] بالنعناع».

أتى خادم صيني يعدو حاملًا السكوتش والصودا.

بعد أن تحدث مع تود لوهلة، أداره كلود في اتجاه زوجته أليس التي كانت في الطرف الآخر من الشرفة.

«لا تهرب» قالها هامسًا «سنذهب إلى نادٍ رياضي».

كانت أليس جالسة في أرجوحة من أغصان مجدولة مع امرأة تُدعى السيدة جوان شوارتزن. وعندما سألته أليس إذا كان يلعب التنس قاطعتها السيدة شوارتزن:

«يا له من شيء سخيف أن تضرب كرة لا تؤذي أحدًا، عبر شيء كان يجب أن يُستخدم لصيد السمك، لصالح هؤلاء الملايين الذين يموتون جوعًا توقًا إلى قطعة من الرنجة».

«جوان بطلة في تنس السيدات» أوضحت أليس.

كانت السيدة شوارتزن فتاةً ضخمةً لها يدان كبيرتان وكذلك قدماها، ولها كتفان مربعتان ناتئتا العظام. وكان لديها وجه جميل لفتاة ذات ثمانية عشر عاما وعنق مليء بالعروق والأعصاب القوية لامرأة ذات خمسة وثلاثين عامًا. كانت الشمس قد لوحتها بعمق مانحة إيَّاها لونًا ياقوتيًّا مع مسحة زرقاء خفيفة، الأمر الذي خفف قليلًا من التناقض ما بين وجهها وعنقها.

«حسنًا، كنت أتمنى لو كنا ذاهبين إلى أحد المواخير في هذه

(١٨) **Julep**: مشروب كحولي يتكون غالبًا من النعناع والبوربون (ويسكي أمريكي) والماء والسكر.

اللحظة» قالت «فأنا أعشقهم».

ثم استدارت إلى تود وبربشت جفونها.

«وأنت أيضًا يا سيد هاكت؟».

«هذا صحيح، يا جوان يا حبيبتي» ردت أليس بالنيابة عنه.

«لا شيء يضبط المرء مثل الماخور. وداوها بالتي كانت هي الداء».

«كيف تجرؤين على إهانتي!».

وقفت وأخذت ذراع تود.

«رافقني إلى هناك».

وأشارت إلى مجموعة من الرجال كان كلود واقفًا معهم.

«رافقها بالله عليك يا تود» قالت أليس «فهي تظنهم يحكون قصصًا بذيئة».

اندفعت السيدة شوارتزن بينهم ساحبةً تود وراءها.

«هل تقولون كلامًا بذيئًا؟» تساءلت «أنا أعشق الكلام البذيء».

ضحكوا جميعهم بأدب.

«لا ، نحن نتحدث في العمل» قال أحدهم.

«لا أصدق. يمكنني أن أشتمّ ذلك من الوحشية التي في أصواتكم. هيا.. قولوا شيئًا فاحشًا».

هذه المرَّة لم يضحك أحد.

حاول تود أن يتحرر من ذراعها، لكنها أبقت قبضتها الراسخة عليه.

مرت لحظة من الصمت المربك، ثم حاول الرجل الذي قاطعته أن يبدأ بداية جديدة :

«إن مجال العمل في السينما متواضع للغاية،» قال « يجب علينا أن نستاء من أشخاص مثل كومبيس».

«هذا صحيح» قال رجل آخر: «أشخاص من هذه العينة يأتون إلى هنا، ويجنون أموالًا طائلةً، ويتذمرون طوال الوقت من المكان، ثم يخفقون في مهامهم، ويعودون إلى الشرق ليحكوا ترهات عن منتجين لم يقابلوهم أبدًا».

«يا إلهي!» قالت السيدة شوارتزن لتود في همسة مسرحية مسموعة «إنهم يتحدثون عن العمل».

«دعينا نبحث عن الساقي» قال تود.

«لا. خذني إلى الحديقة. هل رأيت ما في حمَّام السباحة؟».

وسحبته وراءها.

كان هواء الحديقة ممتلئًا برائحة الميموزا[١٩] وزهر العسل. وعبر شق في النسيج المحكم للسماء الزرقاء برز قمر مُحبَّب بدا مثل زر عظمي ضخم. كان هناك ممر مبلط صغير -زادت في ضيقه زهور الدفلى التي تحف به- يؤدي إلى حافة المسبح الغائرة. وفي أسفلها قرب الغور العميق كان باستطاعته أن يرى كتلةً ما ثقيلةً وسوداء.

(١٩) زهور سريعة النمو، يشتهر نوعها الذي يُزرع في وسط وجنوبي أمريكا وجنوبي المكسيك بأنه يطوي أوراقه عند ملامسته أو تعرضه للحرارة.

«ما هذا؟» سأل.

ركلت بقدمها زر إضاءة مخبأ في قاعدة شجيرة، وإذ بصف من الكشافات الغاطسة يضيء الماء الأخضر. كان هذا الشيء حصانًا ميتًا، أو بالأحرى نسخةً طبق الأصل وبالحجم الطبيعي من حصان ميت. شمخت سيقانه متيبسة ومستقيمة وبدت بطنه منتفخة وهائلة، ونامت رأسه ملويَّةً إلى جانب، ومن فمه ـ الذي انفتح في تكشيرة مُعذبَّة ـ تدلى لسان أسود ثقيل.

«أليس رائعًا!» هتفت السيدة شوارتزن وهي تصفق بيديها، وتقفز صاعدةً هابطةً مستثارةً مثل بنت صغيرة.

«مِمَّ صُنع هذا؟».

«إذن أنت لم تنطلِ عليك الخدعة؟ ياللصفاقة! من المطاط بالطبع. وقد تكلف الكثير من المال».

«لكن لماذا؟».

«للتسلية. كنا ننظر إلى حمَّام السباحة ذات يوم وقال شخص ما -جيري أبيس على ما أعتقد- إنه بحاجة لحصان ميت في قاعه؛ لذلك أتت أليس بواحد. ألا تعتقد أنه يبدو جذَّابًا؟».

«جدًّا».

«ما أنت إلا وغد عجوز. فكر في كم السعادة التي لابد وأن يشعر بها كلود وأليس عندما يُريانه للناس ويسمعان تهليلهم وصرخات الـ «أوه» والـ «آه» ذات البهجة غير المحدودة».

وقفت على حافة المسبح، وأخذت تطلق صيحات «أوه» و«آه» بسرعة عدة مرَّات متتالية.

«أما زال هناك ؟» هتف شخص ما.

استدار تود، ورأى امرأتين ورجلًا قادمين في الممر.

«أعتقد أن بطنه ستنفجر» صاحت فيهم السيدة شوارتزن بجذل.

«لذيذ!» قال الرجل وهو يسرع لإلقاء نظرة.

«لكنه مملوء بالهواء فقط» قالت إحدى السيدتين.

بدت السيدة شوارتزن وكأنها على وشك البكاء.

«أنتِ بالضبط مثل السيد هاكيت الحقير ذاك. إنكما فقط لا تدعاني أغذِّي أوهامي».

كان تود في منتصف الطريق إلى المنزل عندما نادته. لكنه لوَّح لها، واستمر في طريقه.

كان الرجال الواقفون مع كلود ما زالوا يتحدثون عن العمل.

«لكن كيف ستتخلص من هؤلاء المهرجين الجهلة الذين يديرونها؟ لقد أحكموا قبضتهم الخانقة على الصناعة. ربما يكونون متعثرين فكريًّا، لكنهم للأسف رجال أعمال مهرة. أو على الأقل يعرفون كيف يدخلون مكانًا ما تحت الحراسة ويخرجون بساعة ذهبية بين أسنانهم».

«يجب أن يعيدوا ضخ بعض الملايين التي يجنونها في الصناعة مرةً أخرى، مثلما يفعل روكفلر مع مؤسسته. كان الناس فيما مضى يكرهون عائلة روكفلر، ولكن الآن بدلًا من الزعيق حول أموال النفط التي حصلوا

عليها بطريقة غير شرعية، فإن الجميع يمدحونهم على ما تفعله المؤسسة. إنه عمل جسور وممتاز ويمكن لصناعة السينما أن تفعل الشيء نفسه. أنشئ (مؤسسة السينما) وقدِّم مساهمات للـ (العلوم والفنون). وكما تعرف، اضربها بوجه المضرب».

انتحى تود بكلود جانبًا ليودعه، لكن كلود لم يدعه يرحل. قاده إلى داخل المكتبة، وأعدَّ كأسين مزدوجين من السكوتش. ثم جلسا على الأريكة في مواجهة المدفأة.

«أنت لم تذهب من قبل إلى بيت أودري چينينج؟» سأله كلود.

«لا، لكني سمعت عنه».

«إذنْ يجب أن تأتي إلى هناك».

«أنا لا أحب عاشقي الألعاب الرياضية».

«لن نتورط في أي رياضة. فقط سنشاهد فيلما».

«سيصيبني الإحباط».

«لن تُصاب بالإحباط في بيت چينينج. إنها تجعل أيَّ رذيلة شيئًا جذابًا بتغليفها بمهارة. إن ماخورها ذاك يُعد فخرًا للتصميم الصناعي».

كان تود يحب سماعه وهو يتكلم. فقد كان كلود أستاذًا في البلاغة الكوميدية المعقدة، والتي خوَّلته أن يعبر عن سخطه الأخلاقي، مع احتفاظه بسمعته كشخص اجتماعي وظريف.

ألقمه تود بدايةً أخرى: «أنا لا يهمني مقدار السلوفان الذي تلفها به». قال: «إن المواخير النتنة محبطة مثلها في ذلك مثل كل أماكن الإيداع:

البنوك، صناديق البريد، المقابر، ماكينات البيع».

«الحب مثل ماكينة البيع، هِه؟ ليست سيئة. تُدخل عملةً وتضغط معيدًا الذراع إلى مكانه. يحدث نشاط ميكانيكي ما داخل أحشاء الجهاز. تتلقى قطعة حلوى صغيرةً، تعبس في وجهك المنعكس على المرآة القذرة، تعدل قبعتك، تُحكم قبضتك على مظلتك وتسير مبتعدًا؛ محاولًا أن تبدو وكأن لا شيء حدث. هذا جيد، ولكنه ليس مناسبًا للسينما».

لعب تود مباشرة مرَّةً أخرى.

«ليس الموضوع هكذا. إنني أطارد فتاة منذ فترة، والأمر يشبه حمل شيء كبير بعض الشيء على أن تخفيه في جيبك؛ شيء كحقيبة أوراق أو حقيبة سفر صغيرة. إنه أمر غير مريح».

«أعرف.. أعرف. إنه غير مريح دائمًا. في الأول تتعب يدك اليمنى، ثم اليسرى. تُنزل الحقيبة وتجلس عليها، لكن الناس يندهشون ويتوقفون ليحدِّقوا فيك، فتعاود المسير. تخبئها خلف شجرة وتسرع مبتعدًا، لكن شخصًا ما يجدها ويعدو وراءك ليعيدها إليك. إنها حقيبة سفر صغيرة عندما تغادر المنزل في الصباح، رخيصة ولها مقبض سيئ، لكن قبل حلول المساء تكون قد أصبحت حقيبة ملابس كبيرة بأطراف نحاسية وبطاقات أجنبية كثيرة ملصقة عليها. أعرف.. إنه شيء جيد، ولكنه لن يصلح فيلمًا. يجب عليك أن تتذكر جمهورك. ماذا عن الحلاق المقيم في (بوردو)؟ لقد قضى يومه كله في قص الشعر وهو الآن مُتعَب. إنه لا يريد أن يرى مغفَّلًا يحمل حقيبة سفر صغيرة أو يلعب بماكينة عملات. ما يريده الحلاق هو الغرام والسحر».

كان الجزء الأخير من كلام كلود موجهًا لنفسه. تنهد بعمق، وكان على وشك أن يبدأ من جديد عندما دخل الخادم الصيني قائلًا إن الآخرين مستعدون للتحرك إلى بيت مدام چينينج.

❊ ❊ ❊

٥

انطلقوا في عربات عديدة. ركب تود في مقدمة العربة التي قادها كلود. وبينما كانوا يقطعون (صانسيت بوليفارد)، كان كلود يصف له مدام چينينج. كانت ممثلة شهيرة إلى حد ما في أيام الأفلام الصامتة، لكن دخول الصوت جعل من المستحيل بالنسبة لها أن تحصل على عمل. وبدلًا من أن تصبح كومبارس أو ممثلة أدوار صغيرة مثل الكثير من النجوم القدامى الآخرين، أظهرت حسًّا عمليًّا ممتازًا وفتحت مكتبًا للدعارة. لم تكن فاسدةً؛ فهي أبعد ما تكون عن هذا. بل كانت تدير عملها بنفس الطريقة التي تدير بها النساء الأخريات مكتبات الاستعارة؛ بدهاء وذوق.

لم تكن أيّ من الفتيات تقيم في مقر العمل. أنت تتصل، فترسل لك بالفتاة. الثمن كان ثلاثين دولارًا لليلة «اللعب» الواحدة، تحتفظ مدام چينينج بخمسة عشر منهم. ربما يعتقد البعض أن خمسين في المائة أجر سمسرة عال، لكنها في الحقيقة كانت تستحق كل سنت فيه. فقد كانت هناك نفقات إدارية كبيرة. كانت تحتفظ ببيت جميل للفتيات كي ينتظرن فيه، وبعربة وسائق لتوصيلهن إلى الزبائن.

ثم كان عليها أيضًا أن تتحرك وسط نوع معين من المجتمع، تستطيع

فيه أن تقيم العلاقات الصالحة. ففي النهاية ليس كل رجل بإمكانه أن يتحمل كلفة الثلاثين دولارًا. كانت تسمح لفتياتها أن يخدمن فقط الرجال ذوي الثروة والمركز ناهيك عن أن يكونوا ذوي ذوق وتقدير. وكانت مدققةً للغاية لدرجة أنها كانت تصر على مقابلة «اللاعب» المُحتمَل قبل خدمته. كانت كثيرًا ما تقول -وبصدق- إنها لم تكن لتترك فتاةً من فتياتها تذهب إلى رجل لا ترضى هي نفسها أن تنام معه.

وكانت بالفعل مثقفةً. كان كل الزوار من ذوي الحيثية يعتبرون مقابلتها مغامرةً مبهجةً. لكنهم كانوا يصابون بالإحباط عندما يكتشفون كم كانت مهذبةً. كانوا يريدون أن يتحدثوا عن مسائل حيوية معينة تحظى باهتمام عام، لكنها كانت تصر على مناقشة جرترود شتاين[٢٠] وخوان جريس[٢١]. ومهما حاول الزائر ذو الحيثية -وبعضهم عُرف عنهم الذهاب إلى مسافات هائلة بالفعل- إلا أنه لم يكن ليقدر أبدًا على أن يجد نقصًا واحدًا في تهذيبها أو أن يُحدث صدعًا في ثقافتها.

كان كلود ما زال يستخدم بلاغته المميزة في وصف مدام چينينج عندما أتت إلى باب بيتها لتحيتهم.

«إنه لشيء بالغ اللطف أن أراك مرةً أخرى» قالت «كنت بالأمس فقط أقول لمدام برنس ونحن نتناول الشاي إن كلود وأليس إيستي هما

---

(٢٠) **Gertrude Stein** (١٨٧٤ - ١٩٤٦): أديبة وناقدة أدبية وفنية أمريكية ألمانية الأصل. قضت معظم حياتها في باريس. حيث جعلت من منزلها صالونًا أدبيًّا ارتاده كبار كتاب العصر وفنانيه الطليعيين.

(٢١) **Juan Gris** (١٨٨٧ - ١٩٢٧): رسام ونحات عاش وعمل في فرنسا معظم سنين حياته، ويعد من رواد المدرسة التكعيبية.

الزوجان المفضلان لديّ».

كانت امرأةً مليحةً، ناعمةً وممتلئةً كالزبد، لها شعر أشقر وبشرة حمراء.

قادتهم إلى حجرة رسم، احتوى مخططها اللوني على البنفسجي والرمادي والوردي. كانت الستائر الـثينيسية وردية اللون، وكذلك كان السقف. أما الحوائط فغُطيت بورق رمادي فاتح به نقش لزهر بنفسجي صغير على مسافات متباعدة. على أحد الحوائط عُلقت شاشة فضية من النوع الذي يُطوى لأعلى، وأمام الحائط المقابل على جانبي منضدة من خشب الكرز كان هناك صف من الكراسي المغطاة بقماش قطني رمادي ووردي، مكسو بطبقة لامعة ومحاط بحاشية بنفسجية اللون. كانت هناك آلة عرض صغيرة على المنضدة، وشاب يرتدي ملابس السهرة يتحسسها.

أشارت لهم إلى مقاعدهم. ثم دخل ساقٍ، وسألهم عمَّ يريدون أن يشربوا. وعندما تم أخذ طلباتهم وملؤها، أطفأت المدام زر الإضاءة، وبدأ الشاب تشغيل آلته. أزَّت بطريقة باعثة على المرح، لكن كان لديه مشكلة في تركيز بؤرتها.

«ماذا سنرى في البداية؟» سألت السيدة شوارتزن.

«Le Predicament de Marie»[٢٢]

«يبدو لطيفا».

«إنه فيلم ساحر .. ساحر تمامًا» قالت مدام چينينج.

---

(٢٢) «مأزق ماري» (بالفرنسية في الأصل).

«نعم» قال المصور الذي كان ما زال لديه مشكلة.

«أنا أعشق «Le Predicament de Marie» إنه من نوعية رائعة حتى ليبدو مثيرًا بدرجة تفوق الوصف».

طال وقت الانتظار، وفي أثناء ذلك كان الشاب يتشاجر بيأس مع آلته. بدأت السيدة شوارتزن تصفر وتدبدب بقدميها وانضم إليها الآخرون. كانوا يقلدون جمهور المشاغبين أيام قاعات العرض التي كانت تذاكرها بخمسة سنتات.

«تحرك أيها المتواني البطيء».

«فيمَ تعجلك؟ خذ قبعتك».

«خذ حصانًا!».

«اخرج وانزل!».

أخيرًا وجد الشاب الشاشة بشعاع ضوئه وبدأ الفيلم.

Le Predicament de Marie

أو

La Bonne Distraite [٢٣]

كانت ماري –الحسناء– فتاةً عفيَّةً ترتدي زيًّا رسميًّا ضيقًا من الحرير الأسود على تنُّورة قصيرة للغاية، وعلى رأسها كانت تضع قبعة دانتيلا بالغة الضآلة. في المشهد الأول تظهر وهي تقدم العشاء إلى عائلة من

(٢٣) « الغامضة الحسناء».

الطبقة الوسطى في حجرة طعام مكسوة بخشب البلوط ومليئة بأثاث ثقيل منقوش. كانت العائلة محترمةً جدًّا وتتألف من أب ملتحٍ يرتدي معطف الفراك الأسود، وأم ذات ياقة من البلين[٢٤] ودبُّوس صدر من حجر الكاميو الكريم ذي النقش البارز، وابن طويل نحيل بشارب طويل وتقريبًا بلا ذقن، وفتاة صغيرة تضع توكةً هائلةً في شعرها وصليبًا في سلسلة ذهبية حول عنقها.

بعد قليل من الكوميديا السيئة حول لحية الأب والحساء، استقر الممثلون بشكل جاد على موضوعهم الأساسي. كان من الواضح أنه بينما تشتهي العائلة بأكملها ماري، كانت ماري لا ترغب إلا في الفتاة الصغيرة. وهكذا يستخدم الرجل الكبير فوطة الطعام لإخفاء أنشطته ويقوم بقرص ماري، والابن يحاول أن ينظر إلى ما تحت فتحة صدرها، وتربت الأم على ركبتها. أما ماري بدورها فتلاطف الطفلة خلسة.

يتغير المشهد إلى حجرة ماري. هي وقد خلعت ملابسها وارتدت قميص نوم فضفاضًا من الشيفون، محتفظةً فقط بجواربها الحريرية السوداء وحذائها ذي الكعب العالي. كانت تضع زينتها الليلية المتقنة عندما دخلت الطفلة. تأخذها ماري في حِجرها وتبدأ في تقبيلها. طرقة على الباب. ذعر. تخبئ الطفلة في الخزانة وتُدخل الأب الملتحي. يبدو متشككًا فتضطر لتقبُّل محاولاته للتقرُّب. يحتضنها وعندها تُسمع طرقة أخرى. مرةً أخرى ذعر ومشهد ثابت. هذه المرة الابن ذو الشوارب. تخبئ ماري الأب تحت السرير. لم يكد الابن يسخن حتى تأتي طرقة

(٢٤) مادة لينة من عظم فك الحوت، كانت تُستخدم لحشو الياقات ومشدات الخصر.

أخرى. تُدخله ماري في خزانة بطاطين كبيرة. الزائر الجديد هو سيدة البيت. ما تكاد هي أيضًا تتهيأ للعمل حتى يُطرَق الباب مرةً أخرى.

مَن كان يمكن أن يكون؟ تليغراف؟ شرطي؟ تعد ماري باهتياج أماكن الإخفاء المختلفة. العائلة بأكملها موجودة. تسير على أطراف أقدامها إلى الباب وتنصت.

«مَن يمكن أن يكون هذا الذي يريد أن يدخل الآن؟» تقول لوحة العناوين.

وهنا توقفت الآلة. وأصبح الشاب ذو ملابس السهرة مهتاجًا مثل ماري. وعندما استطاع أن يديرها مرةً أخرى، التمع وميض من الضوء وأزَّ الفيلم في الجهاز حتى انتهى كله.

«أنا آسف بشدة» قال «سأضطر إلى إعادة تدويره».

«إنه مقلب» صرخ أحدهم.

«خداع!».

«غش!».

«نظام التهييج القديم إيَّاه!».

دبدبوا بأقدامهم وصفَّروا.

وتحت غطاء الشغب الزائف، انسل تود خارجًا. كان يريد أن يحصل على بعض الهواء النقيّ. أرشده الساقي ـ الذي وجده تود يتسكع في الصالة ـ إلى الفناء الخلفي للمنزل.

لدى عودته، اختلس تود النظر داخل الحجرات المختلفة. وجد

في إحداها عددًا هائلًا من تماثيل كلاب منمنمة في خزانة تحف: كلاب صيد (بوينتر) زجاجية، كلاب صيد (بيجل) فضية، كلاب فطساء خزفية، كلاب (داشهند) الألمانية من الحجر، كلاب (بول دوج) من الألومنيوم، كلاب (الويبت) النحيلة سريعة العدو من العقيق، كلاب صيد (باست) من الصيني، كلاب (سبانييل) الصغيرة من الخشب. كل سلالة كلاب معروفة كانت مُمَثَّلةً وتقريبًا كل خامة يمكن نحتها أو تشكيلها أو الحفر عليها.

وبينما هو يتفحص تلك التماثيل الصغيرة بإعجاب، سمع فتاةً تغنِّي، فكر أنه يعرف صوتها، واختلس نظرة داخل الصالة. كانت ماري دوف إحدى أقرب صديقات فاي جرينر.

ربما كانت فاي أيضًا تعمل لدى مدام چينينج. وإذا كان الأمر كذلك فإنه مقابل ثلاثين دولارًا...

وعاد ليشاهد بقية الفيلم.

* * *

٦

لم يدُم طويلًا أمل تود في أن يُنهي مشكلته بدفع مبلغ صغير. فعندما جعل كلود يسأل مدام چينينج عن فاي، قالت السيدة إنها لم تسمع أبدًا بالفتاة. عندئذ طلب منها كلود أن تتحرى الأمر عن طريق ماري دوڤ. وبعد عدة أيام اتصلت به لتخبره أن لا شيء يمكن عمله. فالفتاة ليست في المتناول.

في الحقيقة لم يكن تود محبطًا. فلم يكن يريد فاي بهذه الطريقة، على الأقل ليس وهو ما زال لديه فرصة عن طريق آخر. وكان قد بدأ مؤخرًا يفكر في أن لديه طريقًا جيدًا. هاري –والدها– كان مريضًا وأعطاه ذلك مبررًا في أن يتردد على شقتهما. كان يؤدي لهما مشاوير صغيرةً، ويظل صحبة الرجل العجوز. وردًّا على طيبته ولطفه، منحته فاي مشاعر المودة والألفة التي تـُمنح عادة لصديق العائلة. وكان تود يأمل أن يعمِّق امتنانها ويجعله شعورًا جادًّا.

بعيدًا عن غرضه هذا، كان تود مهتمًّا بهاري، وكان يستمتع بزيارته. كان الرجل العجوز مهرجًا، وكان لدى تود كل الحب المعتاد الذي يحمله الرسام للمهرج. لكن الأهم كان شعوره بأن تهريج العجوز هو

مفتاح سر أولئك المُحدِّقين (مفتاح سر لرسام؛ أي مفتاح في شكل رمز) بالضبط كما كانت أحلام فاي مفتاحًا آخر.

كان يجلس بجوار سرير هاري، ويستمع إلى قصصه بالساعات. وكانت أربعون عامًا من الهزليات والمنوعات الخفيفة قد أمدته بعدد لا نهائي من القصص. وكما كان يقول؛ تألفت حياته من سلسلة خاطفة من «حركات النهوض قفزًا من وضع الانبطاح» و«الشناعات البالغة» و«الالتواءات الطائرة» و«مائة وثماني حركات» تـؤُدَى للهروب من وابل «المواقد المنفجرة». ويُقصد بالموقد المنفجر أيّ كارثة -طبيعية كانت أو بشرية- بدءًا من فيضان في (ميديسِن هات) بولاية (وايومِنج)، وحتى ضابط بوليس غاضب في (موس فاكتوري) بمقاطعة (أونتاريو) بكندا.

عندما بدأ هاري عمله المسرحي، كان يقيِّد تهريجه بحدود خشبة المسرح، لكنه كان الآن يهرِّج باستمرار. فقد كانت وسيلة دفاعه الوحيدة. كان قد اكتشف أن معظم الناس لن يحيدوا عن طريقهم ليعاقبوا مهرجًا.

كان يستخدم مجموعةً من الإيماءات الأنيقة ليؤكد الكوميديا النابعة من قوامه المنحني الميؤوس منه، وكان يرتدي زيًّا خاصًّا متشبِّهًا بملبس موظف مصرفيّ؛ بالأحرى تقليد بائس وغير مقنع لموظف مصرفيّ. تكوَّن زيُّه من قبعة مشحمة بحافة ضيقة وقبة عالية بشكل غير معتاد، وياقة عالية منشَّاة لها أطراف حادة كالأجنحة، وربطة عنق ذات نقط مستديرة، وجاكت لامع بصديري مزدوج، وبنطلون رمادي مخطط. لم يكن مظهره ليخدع أي إنسان، لكنه حينئذ لم يكن يقصد به أن يخدع أيّ إنسان. كان خبثه من نوع مختلف.

على المسرح كان فاشلًا تمامًا، وكان يعرف ذلك. لكنه يزعم أنه ذات مرة كان قريبًا جدًّا من النجاح. وليثبت مدى قربه ذاك، جعل تود يقرأ قصاصة قديمة من قسم المسرح في جريدة الصانداي تايمز.

«المهرج الوسخ» كان هذا هو عنوان المقال.

«لم تمت الكوميديا ديلارتي، فهي ما زالت حيَّة في (بروكلين) أو كانت حيَّة هناك في الأسبوع الماضي على خشبة مسرح (أوجليثورب) في شخص المدعو هاري جرينر. السيد جرينر عضو في فرقة مسرحية اسمها (سمكات اللينج الطائرة) والتي ربما تكون -قبل وصول هذا العدد إليك- قد انتقلت إلى (ميستيك) بولاية (كونيكتكت) أو أيّ مكان آخر أكثر ملاءمة من بلدة العائلات الكبيرة تلك. إذا كان لديك الوقت وتحب المسرح بالفعل؛ فتش بكل الوسائل عن (سمكات اللينج) أينما يمكن أن يكونوا.

السيد جرينر، وهو نفسه المهرج الوسخ المشار إليه في عنواننا، ليس وسخًا؛ بل نظيف وأنيق وجميل عندما يدخل في البداية. بيد أنه حالما ينتهي منه اللينجات، وهم أربعة آسيويين مفتولي العضلات، يصبح شديد الاتساخ. يغدو باليًا ودراميًا ولكنه يظل جميلًا.

عندما يدخل السيد جرينر، تتوقف آلات الترومبيت كما ينبغي. ماما لينج تلف طبقًا على طرف عصا تقبض عليها بفمها، بابا لينج يقوم بشقلبات جانبية، الأخت لينج تقذف وتمسك بعدد من المراوح واحدة وراء الأخرى دون توقف، الابن لينج يتعلق من قوس مقدمة المسرح بضفيرة شعره. وبينما هو يتفحص زملاءه العنيفين، يحاول السيد جرينر

أن يخفي ارتباكه بإبداء قدر زائد قليلًا من الاهتمام الجليّ بالآخرين. يُجازف بدغدغة الأخت فيتلقى ركلة قوية في بطنه ردًّا على اهتمامه البريء. بعد حصوله على هذه الركلة، يشعر بالألفة ويبدأ في إلقاء نكتة غبية. يتسلل الأب لينج من خلفه ويقذفه إلى الأخ الذي ينظر في اتجاه آخر. يسقط السيد جرينر على قفاه. لكنه يبدي جَـلَدًا وينهي قصته البليدة من الوضع مضطجعًا. وعندما ينهض واقفًا يضحك الجمهور -الذي فشل في الضحك على نكتته- من عرجه، فيستمر في العرج لبقية الفصل.

يبدأ السيد جرينر قصة أخرى أطول وأكثر بلادةً حتى من قصته الأولى. وبالضبط قبل أن يصل إلى بيت القصيد في النكتة يدوِّي صوت الأوركسترا عاليًا مغطيًا إياه. لكنه صبور جدًّا وشجاع جدًّا. يبدأ مرةً أخرى، لكن الأوركسترا لن تتركه يكمل. ولو لم يكن الأمر تمثيلًا بصراحة لكان الألم الذي تقريبًا وليس تمامًا بحمد الله -يكرمش جسده الصغير المتيبس شيئًا لا يُحتمل. إنه شيء مضحك بشكل رائع.

أما الخاتمة فشيء فخم. بينما تطير عائلة لينج في الهواء، يحاول السيد جرينر -المنجذب إلى الأرض بإحساسه بالواقع ومعرفته بالجاذبية الأرضية- جاهدًا أن يدفع الجمهور إلى الاعتقاد بأنه ليس مندهشًا ولا قلقًا من الآسيويين المتطايرين كالسهام النارية. تشير يداه بأن الأمر مألوف بينما ينكر وجهه ذلك. ولمَّا يمر الوقت ولا يُصاب أحد يبدأ هو في استعادة رباطة جأشه. يتجاهله لاعبو الأكروبات فيتجاهلهم هو كذلك بدوره. وهو المنتصر في النهاية؛ حيث يتوجه التصفيق والاستحسان إليه.

كان رأيي الأول هو أنه يجب على منتج ما أن يضم السيد جرينر إلى

أوبريت كبير بخلفية من الفتيات الجميلات والستائر اللامعة. أما الثاني فكان أن رأيي الأول قد يكون خطأً. أخشى أن السيد جرينر -مثله في ذلك مثل بعض نباتات الحقول المتواضعة التي تموت عند نقلها إلى تربة أخصب- من الأفضل له أن يُترك ليُزهر في العروض الهزلية الخفيفة ووراءه خلفية من المتكلمين من بطونهم وراكبات الدراجات».

كان لدى هاري أكثر من دستة نسخ من هذا المقال، العديد منها تهرأ ورقها. وبعد محاولة الحصول على عمل بوضع إعلان صغير في جريدة (ڤاريتي) مستخدمًا: («...يجب على منتج ما أن يضم السيد جرينر إلى أوبريت كبير ...» التايمز) أتى إلى هوليوود معتقدًا أنه سيتكسب رزقه من لعب مشاهد كوميدية صغيرة في الأفلام. لكن تبين له أن هناك طلبًا قليلًا على مواهبه. وكما صاغها هو بنفسه: «تعفن من الجوع». وكي يزيد من دخله الزهيد من العمل في الاستوديوهات، عمل كبائع متجول لمُلمِّع فضة كان يصنعه في حمَّام شقته من الطباشير والصابون وشحم مَحَاور العجلات الأصفر. وحين لا تكون فاي في (المركز الرئيس لتوزيع الأدوار) كانت تقله أثناء رحلات عمله لتوزيع بضاعته في سيارتها الفورد موديل T. وفي آخر رحلة لهما سويًّا سقط مريضًا.

وفي هذه الرحلة أيضًا تعرفت فاي على (عريس) جديد اسمه هومر سيمبسون. وبعد أسبوع من لزوم هاري الفراش قابل تود هومر للمرة الأولى. كان في صحبة الرجل العجوز عندما قطعت حديثهم طَرقة خفيفة على باب الشقة. استجاب لها تود ليجد رجلًا واقفًا في البهو، ومعه زهور لفاي، وزجاجة نبيذ أحمر حلو لوالدها.

تفحصه تود باهتمام. لم يقصد أن يكون وقحًا، لكن من النظرة الأولى بدا له هذا الرجل نموذجًا دقيقًا لهذا الصنف من الناس الذين أتوا إلى كاليفورنيا ليموتوا، نموذج مثالي في كل تفاصيله حتى العينين المحمومتين واليدين الجامحتين.

«اسمي هومر سيمبسون» قال الرجل لاهثًا، ثم تململ بتوتر، ومسح جبهته الجافة تمامًا بمنديل مطويّ.

«ألن تدخل ؟» سأله تود.

هز رأسه بتثاقل ودفع بالخمر والزهور إلى تود. وقبل أن ينبس تود بأي كلمة، كان قد تحرك مبتعدًا بتثاقل.

أدرك تود أنه كان مخطئًا. كان النموذج ينطبق على هومر سيمبسون جسديًّا فقط. أما الرجال الذين كان تود يعنيهم فليسوا خجولين.

أخذ الهدايا إلى هاري الذي لم يبدُ مندهشًا على الإطلاق. وقال إن هومر واحد من زبائنه الشاكرين للجميل.

«من المؤكد أن منظفي المعجزة هو الذي أتى به».

فيما بعد، وعندما عادت فاي إلى البيت، وسمعت القصة، سُرَّت كثيرًا. وحكى كلاهما لتود كيف حدث وقابلا هومِر مقاطعين نفسيهما وبعضهما كل بضعة ثوان ليضحكا.

في المرة الثانية رأى تود هومِر واقفًا يحدِّق في العِمارة مستظلًّا بنخلة في الجانب الآخر من الشارع. راقبه تود لدقائق قليلة ثم رفع صوته بتحية ودودة. ودون رد جرى هومِر مبتعدًا. في اليوم التالي والذي بعده رآه تود

مرةً أخرى يتوارى قرب النخلة. وفي النهاية أمسك به بعد أن اقترب صامتًا من خلف الشجرة.

«أهلًا سيد سيمبسون» قال تود بهدوء: «عائلة جرينر كانت ممتنةً جدًّا لهديتك».

هذه المرة لم يتحرك سيمبسون، ربما لأن تود جعل ظهره للشجرة.

«هذا شيء طيب» اندفع قائلًا بلا تفكير «كنت مارًّا... أنا أقيم في آخر الشارع».

استطاع تود أن يُبقي المحادثة لعدة دقائق قبل أن يهرب هومر مرةً أخرى.

في المرَّة التالية استطاع تود أن يقترب منه دون حاجة لمطاردة سرية. ومن ساعتها فصاعدًا كان هومِر يستجيب بسرعة جدًّا لتقرُّبات تود. جعله التعاطف -حتى في أكثر أنواعه وضوحًا- شخصًا ناطقًا، بل وثرثارًا تقريبًا.

* * *

٧

كان تود على صواب في شيء واحد على الأقل. فمثل معظم الأشخاص الذين كان تود مهتمًّا بهم كان هومِر من الغرب الأوسط. أتى من مدينة صغيرة قرب (دي موين) بولاية أيوا اسمها وينيفيل، حيث عمل لعشرين عامًا في فندق.

ذات يوم وهو جالس في الحديقة تحت المطر، أصيب بالبرد، وتطور البرد إلى التهاب رئوي. وعندما خرج من المستشفى وجد الفندق قد استأجر كاتب حسابات جديدًا. عرضوا عليه أن يوِّظفوه مرةً ثانيةً، لكن طبيبه نصحه أن يذهب إلى كاليفورنيا للراحة. كان للطبيب أسلوب آمر، فما كان من هومر إلا أن غادر وينيفيل إلى الساحل.

بعد الإقامة لمدة أسبوع في أحد فنادق السكة الحديد في لوس أنجلوس، استأجر كوخًا في بينيون كانيون. كان فقط ثاني منزل عرضه عليه السمسار، لكنه أخذه لأنه كان مُتعَبًا ولأن السمسار كان (فتوةً).

لكنه أحب موقع الكوخ. كان هو البيت الأخير في الوادي، وقد ارتفعت التلال وراء الجراج مباشرة. وتغطت تلك التلال بالترمس

وأجراس كانتربري والخشخاش وتشكيلات عديدة من الأقحوان الأصفر الكبير. كانت هناك كذلك بعض شجيرات الصنوبر وأشجار جوشوا وأوكاليبتوس. أخبره السمسار أنه سيرى يمامًا وسمَّانًا مريَّشًا، لكن طوال الوقت الذي عاشه هناك لم يرَ إلا بضعة عناكب سوداء مخملية ضخمة وسحلية. ومع الوقت أصبح مُغرمًا للغاية بالسحلية.

كان المنزل رخيصًا لأنه من الصعب تأجيره. فقد كان معظم الناس الذين يستأجرون الأكواخ في تلك المنطقة يريدون أكواخًا «إسبانيةً»، بينما كان ذلك الكوخ -كما زعم السمسار- «آيرلنديًّا». كان رأي هومر أن المكان يبدو غريبًا بعض الشيء، لكن السمسار أصر على أنه شديد الجاذبية.

كان المنزل غريبًا، به مدخنة حجرية هائلة وملتوية للغاية، ونوافذ ناتئة بتيجان كبيرة، وسقف مغطى بالقش هبط حتى غدا واطئًا جدًّا على جانبي الباب الأمامي. هذا الباب كان من خشب الصمغ، وقد دُهن مثل البلوط المُدخَّن وعُلق على مفصلات ضخمة. ورغم أن هذه المفصلات مصنوعة بالماكينة، إلا أنها دُقَّت بحرص لتبدو مطروقة يدويًّا. نفس ذلك النوع من الحرص والمهارة تم استخدامهما لعمل تعريشة السقف؛ والتي لم تكن قشًّا حقيقيًّا، بل ورق مقوى ومضاد للحريق، تم تلوينه وتدعيمه ليبدو مثل القش.

في حجرة المعيشة تم اتباع الذوق السائد؛ فقد كانت «إسبانية» الطراز. حوائط بلون برتقالي فاتح به نقط وردية عُلقت عليها العديد من الرايات الحريرية حمراء وذهبية منقوش عليها شعارات النبالة. وعلى

رف المدفأة وقفت سفينة شراعية كبيرة، هيكلها من الجبس وأشرعتها من الورق وحبالها من السلك. وفي المدفأة كانت هناك تشكيلة من نباتات الصبّار في آنية مكسيكية ذات ألوان مبهجة. بعض النباتات كانت من المطَّاط والفلين، وبعضها الآخر كان حقيقيًّا.

أضيئت الحجرة بثوابت حائطية على شكل سفن شراعية تبرز من سطوحها مصابيح كهرمانية مدببة. وثبتت على المنضدة أباجورة بقبعة ورقية تم دهنها بالزيت لتبدو كالرِّق، وُرسم عليها الكثير من السفن الشراعية. وعلى جانبي النوافذ تدلت ستائر حمراء مخملية من عوارض رفيعة سوداء مزدوجة الرؤوس.

تألف الأثاث من أريكة ثقيلة أرجلها على شكل رهبان سُمان، وغُطيت بحرير دمشقي حائل الحُمرة، وثلاثة فوتيهات منتفخة وحمراء أيضًا. وفي وسط الحجرة كان هناك منضدة طويلة جدًّا من خشب الماهوجني. كانت من طراز المناضد ذات الدعائم بين أرجلها ومرصَّعة بمسامير برونزية ذات رؤوس كبيرة. وبجوار كل كرسي من كراسيها منضدة صغيرة الرأس بنفس لون وتصميم المنضدة الكبيرة، ولكن في أعلاها ثبتت قرميدة صغيرة.

غير أنه في حجرتي النوم الصغيرتين استُخدم طراز آخر؛ أطلق عليه السمسار اسم طراز (نيو إنجلاند). كان هناك سرير بأعمدة أسطوانية من الحديد المحبب يبدو مثل الخشب، ومقعد طراز (ويندسور) من النوع الذي يُشاهد كثيرًا في محلات الشاي، وخزانة (جافرنر وينثروب) مدهونة لتبدو كخشب الصنوبر الأصلي غير المدهون. وعلى الأرضية

بساط صغير مصنوع يدويًّا بالسنارة والخيط. وعلى الحائط المواجه للخزانة كان هناك حفر ملون لمنزل ريفي من كونيكتيكت محاط بالثلج ولا ينقصه حتى الذئب. كانت الحجرتان متشابهتين تمامًا في كل تفصيلة. حتى الصورتان كانتا متطابقتين.

وكان هناك أيضًا حمَّام ومطبخ.

❊ ❊ ❊

٨

لم يستغرق الأمر من هومر غير دقائق معدودة كي يستقر في بيته الجديد. أفرغ حقيبته، وعلَّق بدلتيه -الاثنتان لونهما رمادي غامق- في خزانة إحدى حجرتي النوم، ووضع قمصانه وملابسه الداخلية في أدراج الخزانة الكبيرة. ولم يبذل أي محاولة لإعادة ترتيب الأثاث.

بعد جولة بلا هدف في المنزل والفناء، جلس على الأريكة في حجرة المعيشة. جلس كما لو كان ينتظر شخصًا ما في بهو فندق. ظل على نفس الوضع لمدة نصف ساعة تقريبًا دون أن يحرِّك شيئًا سوى يديه، ثم نهض ودخل حجرة النوم، وجلس على حافة السرير.

رغم أن الوقت كان ما زال في أول ما بعد الظهيرة، إلا أنه شعر برغبة شديدة في النوم. لكنه كان خائفًا من أن يتمدد ويذهب في النوم. ليس بسبب الكوابيس، ولكن لأنه كان من الصعب جدًّا عليه أن يستيقظ مرَّة أخرى. فعندما كان يسقط نائمًا، كان دائمًا يخشى ألا يستيقظ أبدًا.

لكن خوفه لم يكن في قوة حاجته. تناول منبهه وضبطه على الساعة السابعة، ثم رقد واضعًا إيَّاه بجوار أذنه. بعد ساعتين -مرتا كالثواني

بالنسبة له- انطلق المنبه. رنَّ الجرس لدقيقة كاملة قبل أن يبدأ كفاحه الممض للعودة إلى الوعي. كان كفاحًا شاقًّا. تأوه، وارتجفت رأسه، وركلت قدماه الهواء. وأخيرًا انفتحت عيناه، ثم اتسعتا. مرةً أخرى كان الانتصار حليفه!

رقد متمددًا على السرير يستجمع حواسه، ويختبر مختلف أعضاء جسده. استيقظت كل أعضائه عدا اليدين. كانتا ما تزالان نائمتين. لم يندهش. كانتا تتطلبان اهتمامًا خاصًّا دائمًا ما كانتا تتطلبانه. عندما كان طفلًا اعتاد أن يغرز فيهما الدبابيس، بل وفي إحدى المرات دفعهما في النار. لكنه الآن أصبح يستخدم الماء البارد فقط.

قام من السرير على دفعات -مثل رجل آلي رديء الصنع- وحمل يديه إلى الحمَّام. فتح الماء البارد. وعندما امتلأ الحوض غمر فيه يديه حتى المعصمين. رقدتا بهدوء في القاع مثل زوج من الحيوانات المائية الغريبة. وعندما ابتردتا تمامًا وبدأتا تدبَّان بخدر، رفعهما وخبأهما في منشفة.

شعر بالبرد؛ ففتح الماء الساخن داخل حوض الاستحمام، وبدأ يخلع ملابسه متحسسًا بأصابعه أزرار ثيابه بحثا عنها كما لو كان يخلع ملابس شخص غريب. تعرَّى قبل أن يمتلئ الحوض بما يكفي للدخول فيه، وجلس على كرسي بلا ظهر منتظرًا. أبقى يديه الضخمتين مطويتين على بطنه. ورغم أنهما كانت ساكنتين تمامًا إلا أنهما بدتا مكبوحتين أكثر منهما مستريحتين.

باستثناء يديه ـ اللتين كانتا تليقان بمنحوتة تذكارية ـ ورأسه الصغير،

كان متناسقًا بشكل جيد. كانت عضلاته كبيرة ومستديرة وله صدر ممتلئ ثقيل. ومع ذلك كان هناك شيء ما خطأ. فبرغم كل حجمه وشكله لم يكن يبدو قويًّا ولا ذا خصوبة. كان يبدو كواحد من مصارعي بيكاسو شديدي العقم الذين يجلسون متأملين بسوداوية على الرمال الوردية وهم يحدِّقون في تموجات الرخام المعرَّق.

عندما امتلأ حوض الاستحمام، خطا إليه وغطس في الماء الساخن. نخر معبرًا عن ارتياحه. لكن بعد لحظة واحدة بدأ يتذكر، فقط بعد لحظة. حاول أن يخدع ذاكرته بإغراقها بالدموع وإثارة نوبات النشيج التي كانت دائمًا تكمن متقلقلة في صدره. بكى بهدوء في البداية، ثم تصاعد البكاء. كان الصوت الذي يخرجه أشبه بصوت كلب يلعق عصيدة. حاول أن يركز على كم كان هو بائسًا ووحيدًا، لكن الأمر لم ينجح. ظل الشيء الذي كان يحاول يائسًا أن يتجنبه يزاحم ليشغل باله.

ذات يوم عندما كان يعمل في الفندق، تحدثت إليه نزيلة تُدعى رامولا مارتِن في المصعد.

«سيد سيمبسون.. أنت السيد سيمبسون كاتب الحسابات؟».

«نعم».

«أنا نزيلة الغرفة ٦ – ١١».

كانت صغيرةً وطفوليةً بأداء متسرع وعصبيّ. وفي ذراعيها احتضنت لفـَّة احتوت بوضوح على زجاجة چين مربعة.

«نعم» قال هومر مرةً أخرى مخالفًا طبيعته الودودة. كان يعلم أن

الآنسة مارتِن مَدينة بإيجار أسابيع عديدة، وسمع موظفة الغرف تقول عنها أنها سكِّيرة.

«أوه!...» استمرت الفتاة بغنج مظهرةً الاختلاف بينهما في الحجم «أعتذر عن قلقك بشأن فاتورتك، أنا...».

أربكته الألفة الحميمية في نغمة صوتها.

«ستضطرين لمحادثة المدير» قالها بحدة واستدار مبتعدًا.

كان يرتجف عندما وصل مكتبه.

كم كانت جريئةً هذه المخلوقة! كانت سكرانةً -بالطبع- لكن ليس للدرجة التي تجعلها لا تعرف ما تفعل. وبسرعة وسم إثارته بالاشمئزاز.

بعد ذلك بوقت قصير استدعاه المدير، وطلب منه إحضار بطاقة ائتمان الآنسة مارتن. وعندما دخل مكتب المدير وجد الآنسة كارليزل موظفة الغرف هناك. وسمع هومر ما كان المدير يقوله لها.

«هل أسكنتي الغرفة ٦ - ١١؟».

«نعم، فعلت يا سيدي».

«لماذا ؟ إنها واضحة بما يكفي.. أليس كذلك؟».

«ليس وهي غير ثملة!».

«لا تبالِ بذلك. نحن لا نريد من هم على شاكلتها في هذا الفندق».

«أنا آسفة».

استدار المدير إلى هومر، وأخذ منه بطاقة الائتمان التي كان يمسكها.

«إنها مَدينة بواحد وثلاثين دولارًا» قال هومر.

«يجب أن تسددهم شاءت أم أبت ثم تغادر الفندق. لا أريد من هم على شاكلتها هنا» وابتسم «خاصةً عندما يراكمون الفواتير. اتصل بها على التليفون من أجلي».

طلب هومر من عامل التليفون أن يوصله بالغرفة ٦ – ١١، وبعد وقت قصير رد عليه بأن لا أحد في الغرفة يرد.

«إنها في الفندق» قال هومر «رأيتها في المصعد».

«سأجعل مديرة الغرف تلقي نظرة».

كان هومر يعمل في دفاتره بعد عدة دقائق عندما رن جرس تليفونه. كان المدير مرَّةً ثانيةً. قال إن مديرة الغرف أبلغته بوجود ٦ – ١١، وطلب من هومر أن يأخذ إليها الفاتورة.

«أبلغها إما أن تسدد ما عليها، أو تخرج مطرودة».

كان أول ما خطر بفكره أن يطلب إرسال الآنسة كارليزل لأنه مشغول، لكنه لم يجرؤ على اقتراح ذلك. وأثناء إنهاء الفاتورة بدأ يدرك كم كان مُستثارًا. كان شيئًا مروِّعًا. موجات حسية صغيرة تسري في أعصابه ووخز خفيف أسفل لسانه.

عندما خرج من المصعد في الدور السادس شعر تقريبًا بالبهجة. كانت خطوته خفيفةً وقد نسي تمامًا يديه المزعجتين. توقف عند الغرفة ٦ – ١١ وأوشك أن يطرق الباب، ثم فجأةً انتابه الخوف، وأنزل قبضته دون أن يلمس الباب.

لم يستطع إكمال المهمة. سيكون عليهم أن يرسلوا الآنسة كارليزل.

وقبل أن يتمكن من الهرب، اقتربت مديرة الغرف التي كانت تراقب من آخر القاعة.

«إنها لا ترد» قال هومر بسرعة.

«هل طرقت بقوة كافية؟ هذه العاهرة موجودة بالداخل».

وقبل أن يتمكن هومر من الرد، دقت هي بعنف على الباب.

«افتحي الباب!» صاحت.

سمع هومر شخصًا ما يتحرك بالداخل، ثم انفتح الباب بوصات قليلة.

«مَن هذا من فضلك؟» تساءل صوت واهن.

«السيد سيمبسون كاتب الحسابات» قال لاهثًا.

«ادخل من فضلك».

انفتح الباب أوسع قليلًا ودخل هومر دون أن يجرؤ على الالتفات لمديرة الغرف. مشى متعثرًا إلى وسط الغرفة وتوقف. في البداية لم يكن واعيًا إلا بالرائحة الثقيلة للكحول والتبغ القديم، لكنه بعد ذلك وتحت تلك الرائحة اشتم عطرًا فاقعًا. تحركت عيناه في دورة بطيئة. على الأرضية كان هناك نثار من الملابس والجرائد والمجلات والزجاجات. وكانت الآنسة مارتن متكومة على نفسها في ركن من السرير. كانت ترتدي (رُوبًا) رجاليًّا من الحرير الأسود بأساور وطيَّة صدر سماوية اللون. كان شعرها المقصوص قصيرًا جدًّا وله لون وملمس القش،

وبدت كولد صغير. وزاد من شبابها الغض عيناها المنمنمتان الزرقاوان وأنفها المنمنم الورديّ وفمها المنمنم الأحمر.

كان هومر مشغولًا جدًّا بإحساسه المتزايد بالإثارة لدرجة منعته من الكلام أو حتى التفكير. أغلق عينيه لكي ينصرف إليه أكثر، مغذيًا بحرص ما كان يشعر به. كان يجب أن يكون حريصًا؛ لأنه لو ذهب بسرعة زائدة عن اللزوم فربما ذبل شعوره ذاك وحينها سيرتد باردًا مرةً أخرى. وهكذا استمر شعوره في التزايد.

«اذهب من فضلك. أنا سكرانة» قالت الآنسة مارتن.

لم يتحرك هومر، ولم يتكلم.

وفجأةً بدأت في النشيج. بدت الأصوات الخشنة المتكسرة التي تصدرها خارجةً من معدتها. دفنت وجهها في يديها ودقَّت على الأرض بقدميها.

كانت مشاعر هومر كثيفةً جدًّا لدرجة أن رأسه كانت تتمايل بعنف على رقبته كرأس دمية تنين صيني.

«أنا مفلسة. لا أملك أي نقود. لا أملك حتى عشرة سنتات. أقول لك أنا مفلسة».

أخرج هومر محفظته، وتحرك في اتجاه الفتاة كما لو كان سيضربها بها.

انكمشت مبتعدة عنه، وزاد نشيجها قوةً.

أسقط المحفظة في حجرها، ووقف فوقها لا يدري ماذا يجب أن

يفعل غير ذلك. وعندما رأت المحفظة، ابتسمت، لكنها استمرت في النشيج.

«اجلس» قالت.

جلس على السرير بجوارها.

«يا لك من رجل غريب» قالت بخجل «يمكنني أن أُقبِّلك لكونك بكل هذا اللطف».

أمسكها بين ذراعيه واحتضنها. أخافتها مباغتته، وحاولت أن تبتعد، لكنه استمر ممسكًا بها، وبدأ يعانقها بطريقة خرقاء. كان غير واعٍ على الإطلاق بما كان يفعله. عرف فقط أن ما شعر به كان حلوًا بشكل رائع، وأنه لابد وأن ينقل تلك الحلاوة إلى المرأة المسكينة الباكية.

هدأ نشيج الآنسة مارتن، وبعد قليل توقف تمامًا. كان بإمكانه أن يشعر بها تتململ وتستجمع قواها.

رنَّ جرس التليفون.

«لا تجبه» قالت بادئةً في النشيج مرةً أخرى.

دفعها بعيدًا برفق، وتعثر في طريقه إلى التليفون. كانت الآنسة كارليزل.

«هل أنت بخير؟» تساءلت « أم نطلب رجال الشرطة؟».

«بخير» قال وهو يضع السماعة مكانها.

انتهى الأمر تمامًا. ولم يعد بمقدوره أن يعود إلى السرير.

ضحكت الآنسة مارتن على حالة الأسى الحاد التي بدا عليها.

«أحضر الجين أيها البقرة الضخمة» صاحت بمرح «إنه تحت المنضدة».

رآها تتمدد بطريقة لا يمكن للمرء أن يخطئها. فعدا خارجًا من الحجرة.

والآن في كاليفورنيا كان يبكي لأنه لم يرَ أبدًا الآنسة مارتن مرةً أخرى. في اليوم التالي أخبره المدير أنه قد أدى عملًا جيدًا وأنها سددت ما عليها وغادرت الفندق.

حاول هومر أن يجدها. كان هناك فندقان آخران في وينيفيل -بيتان صغيران فقيرا الحال- وقد استفسر عنها في كليهما. وسأل أيضًا في الأماكن القليلة لتأجير الغرف ولكن بلا نتيجة. كانت قد غادرت المدينة.

عاد إلى نظامه اليومي المعتاد: العمل لمدة عشر ساعات، والأكل لمدة ساعتين، والنوم بقية اليوم. ثم أصيب بالبرد، ونُصح بالقدوم إلى كاليفورنيا. كان يمكنه بسهولة أن يتحمل ألا يعمل لفترة. فقد ترك له والده حوالي ستة آلاف دولار، وخلال العشرين عامًا التي أمسك فيها بدفاتر الفندق كان قد ادخر عشرة فوقها على الأقل.

* * *

٩

نهض خارجًا من حوض الاستحمام، وجفف نفسه بسرعة في منشفة خشنة، ثم دخل حجرة النوم ليرتدي ملابسه. كان يشعر بأنه أكثر غباءً وإنهاكًا من المعتاد. كان الأمر دائمًا هكذا. تجيش مشاعره مرتفعةً في موجة هائلة، تنحني وتثب، وتعلو وتعلو، حتى تبدو وكأنها لابد ستجتاح كل شيء أمامها. لكن لحظة الارتطام تلك لم تأتِ أبدًا. دائمًا ما كان يحدث شيء ما عند رأس الذروة ذاتها وتنهار الموجة لتعدو عائدةً مثل ماء يسقط في بالوعة، تاركةً -على أقصى تقدير- فضلات مشاعر فقط.

استغرق الأمر منه وقتًا طويلًا حتى يرتدي ملابسه كلها. كان يتوقف للراحة بعد كل قطعة بقنوط لا يتناسب أبدًا مع الجهد المبذول.

لم يكن هناك شيء يأكله في البيت وكان يجب عليه أن ينزل إلى (هوليوود بوليفارد) من أجل الطعام. فكر أن ينتظر حتى الصباح، لكنه عندئذ ورغم أنه لم يكن جائعًا قرر ألا ينتظر. لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة وستقتل الرحلة القصيرة بعض الوقت. فلو اكتفى بالمكوث جالسًا، سيصبح إغواء الذهاب للنوم مرةً أخرى أمرًا لا يُقاوَم.

كان الليل دافئًا وساكنًا جدًّا. بدأ نزول التل ماشيًا على طرف الرصيف. كان يسرع بين أعمدة الإضاءة حيث تتكاثف الظلال، ثم يتوقف للحظة عند كل دائرة ضوء. وقبل أن يصل إلى (البوليفارد) كان يقاوم رغبته في الجري. توقف لعدة دقائق على الناصية ليحدد اتجاهاته. وبينما هو واقف هناك -متأهبًا للطيران- كان خوفه يجعله يبدو بهيًّا تقريبًا.

عندما مرَّ العديد من الأشخاص الآخرين دون أن يعيروه اهتمامًا بدأ يهدأ. عدل ياقة معطفه وتهيأ لعبور الشارع. وقبل أن يخطو خطوتين سمع شخصًا يناديه.

«هيه.. أنت يا سيد».

كان شحاذًا التقطه بعينيه من مكمنه في ظل أحد المداخل. وبالغريزة التي لا تخطئ لهذا النوع من الناس عرف أن هومر سيكون هدفًا سهلًا.

«هل يمكنك أن تستغني عن نكلة؟»[٢٥].

«لا» قال هومر بلهجة غير مقنعة.

ضحك الشحَّاذ وكرر سؤاله مهددًا.

«نكلة يا سيد!».

وشهر يده في وجه هومر.

تحسس هومر جيب الفكَّة، وألقى عدة قطع معدنية على الرصيف. ولمَّا اندفع الرجل منكبًّا عليها ولّى هومر هاربًا عبر الشارع.

---

(٢٥) نيكل= خمسة سنتات.

كان سوق (صَن جولد) الذي دخله هومر مكانًا كبيرًا ومتألق الإضاءة. وكانت كل الحوامل الثابتة من الكروم، أما الأرضيات والحوائط فكانت مغطاةً بصفوف من القرميد الأبيض. وتلاعبت كشافات الإضاءة الملوَّنة على الفتارين والطاولات رافعةً من درجات الألوان الطبيعية للأطعمة المختلفة. كان البرتقال يستحم في الأحمر، والليمون في الأصفر، والسمك في الأخضر الفاتح، وشرائح اللحم في الوردي، والبيض في العاجيّ.

توجه هومر مباشرة إلى قسم الأغذية المعلبة واشترى علبة من حساء عش الغراب وعلبة من السردين. هاتان العلبتان مع نصف رطل من رقائق بسكويت الصودا سيكونون كافيين لعشائه.

خرج إلى الشارع مرةً أخرى حاملًا كيس مشترياته، وبدأ السير عائدًا إلى البيت. وعندما وصل إلى الناصية التي تؤدي إلى بينيون كانيون ورأى كم كان التل يبدو منحدرًا ومظلمًا، استدار عائدًا إلى الشارع المضاء. فكر في أن ينتظر حتى يأتي شخص آخر ليصعد التل، لكنه في النهاية استقل عربة تاكسي.

* * *

١٠

بالرغم من أن هومر لم يكن لديه شيء يفعله غير إعداد وجباته الهزيلة، إلا أنه لم يشعر بالملل. فباستثناء حادثة رامولا مارتن وربما حدث واحد أو اثنان متباعدان، كانت حياته ذات الأربعين عامًا بأكملها خالية من التنوع أو الإثارة. عمل ككاتب حسابات بشكل آلي؛ يجمع الأرقام ويدوِّن القيود بنفس الانعزال والمشاعر الغائبة التي يفتح بها الآن علب الحساء ويرتب سريره.

لو راقبه امرؤ ما وهو يباشر شؤون كوخه الصغير لظنَّه يسير وهو نائم أو أنه أعمى إلى حد ما. وبدت يداه وكأن لهما حياة وإرادة خاصتين بهما. كانتا هما اللتان تشدان الملاءات وتشكلان الوسائد.

ذات يوم بينما كان يفتح علبة سلمون للغداء، تلقى إبهامه جرحًا سيئًا. ورغم أن الجرح لابد وأنه كان مؤلمًا، إلا أن تعبير وجهه الهادئ والمُتشكِّي قليلًا لم يتغير. تلوت اليد الجريحة ألمًا على منضدة المطبخ حتى حملتها زميلتها إلى الحوض وغسلتها بحنان في الماء الساخن.

عندما لم يكن يؤدي عملًا منزليًّا كان يجلس في الساحة الخلفية -تلك التي دعاها السمسار بالفناء- على كرسي بحر قديم ومكسور. كان يخرج إليه على الفور بعد الإفطار ليحمِّص نفسه في الشمس. وكان قد وجد في أحد الخزانات كتابًا ممزقًا اعتاد أن يمسك به في حجره دون أن ينظر فيه.

كان هناك منظر أفضل بكثير يمكن رؤيته في أيّ اتجاه آخر غير ذلك الذي كان يواجهه. فلو حرَّك كرسيه مقدار ربع دائرة لكان باستطاعته أن يرى جزءًا كبيرًا من الوادي الضيق وهو يتلوى نازلًا إلى المدينة أسفله. لكنه لم يفكر أبدًا في أن يقوم بهذه الحركة. من مجلسه ذاك كان يرى باب الجراج المغلق ورقعة صغيرة من سقفه الرث المصنوع من الورق المفبَّر. وفي الواجهة كان هناك موقد أسخم لإحراق القمامة مبني من الطوب، وكومة من العلب الصدئة. إلى يمينهم قليلًا كانت بقايا حديقة صبَّار ما زالت فيها بضعة نباتات شعثاء معذَّبة على قيد الحياة.

أحد هذه النباتات -كومة من النصال السميكة الشبيهة بالمجاديف والمغطاة بإبر قبيحة- كان مزهرًا. فمن رأس العديد من نصاله العلوية برزت زهرة صفراء زاهية، تشبه إلى حد ما زهرة الشوك ولكنها أخشن. ومهما اشتد هبوب الرياح لم تكن بتلاتها تهتز أبدًا.

كانت هناك سحلية تعيش في حفرة بجوار قاعدة هذا النبات. كان طولها حوالي خمس بوصات، ولها رأس وتدية الشكل يندفع منها لسان مرهف مشقوق. كانت تتكسب رزقها الشاق بصيد الذباب الشارد من كومة العلب إلى الصبَّار.

كانت هذه السحلية واعيةً بذاتها وسريعة الغضب، وكان هومر يجد تسليةً كبيرةً في مراقبتها. فكلما أُحبطت واحدة من مطارداتها المدروسة كانت تراوح متنقلة على أرجلها القصيرة وتزفر من حلقها. كان لونها يتوافق تمامًا مع الصبَّار، لكنها حين كانت تتحرك متجهةً إلى العلب حيث يتكاثف الذباب كانت تبرز بوضوح شديد. كان بإمكانها أن تجلس على الصبَّار بالساعة دون حراك، لكن بعد ذلك تفقد صبرها وتندفع إلى العلب. وعلى الفور يكشفها الذباب وبعد إخفاقات عديدة كانت تنسل بخجل عائدةً إلى موضعها الأصلي.

كان هومر منحازًا إلى جانب الذباب. وكلما مرَّت إحداها بجوار الصبار متأرجحة في دائرة واسعة أكثر من اللازم كان يصلي بصمت من أجلها كي تستمر في طريقها أو تقفل عائدةً. وإذا حطَّت كان يراقب السحلية وهي تبدأ مطاردتها ممسكًا أنفاسه حتى تقتلها، متمنيًا طوال الوقت أن يُحذِّر شيء ما الذبابة. لكن مهما أراد للذبابة أن تنجو، لم يكن يفكر أبدًا أن يتدخل، وكان حريصًا ألا يتزحزح أو يصدر عنه أدنى صوت. أحيانًا كانت السحلية تخطئ التقدير. وعندها كان هومر يضحك بسعادة.

ما بين الشمس والسحلية والبيت كان هومر مشغولًا إلى حد كبير. لكن من الصعب القول إذا ما كان سعيدًا أم لا. ربما لم يكن هذا ولا ذاك، تمامًا مثلما لم يكن النبات هذا ولا ذاك. كانت لديه ذكريات تزعجه وليس للنبات شيء من هذا القبيل، لكن بعد ليلته الأولى السيئة هدأت ذكرياته.

١١

كان قد مرَّ عليه ما يقرب من شهر وهو يعيش بهذه الطريقة، عندما رنَّ جرس الباب ذات يوم في نفس اللحظة التي كان فيها على وشك تحضير غدائه. فتح الباب ووجد رجلًا يقف على الدرجة الأخيرة ممسكًا بكيس عينات في يد وفي الأخرى قبعة بحافة ضيقة. وبسرعة أغلق هومر الباب ثانيةً.

استمر جرس الباب في الرنين. فأخرج هومر رأسه من أقرب نافذة إلى الباب ليأمر هذا الشخص بالابتعاد، لكن الرجل انحنى بأدب بالغ وسأله شربة ماء. رأى هومر أنه رجل عجوز ومُتعَب وفكر أنه يبدو غير مؤذ. أخرج زجاجة ماء من الثلاجة، ثم فتح الباب وطلب من الرجل الدخول.

«اسمي يا سيدي هاري جرينر» نطقها الرجل بطريقة مُنغـَّمة مشددًا على كل مقطع.

ناوله هومر كوب ماء، فابتلعه بسرعة، ثم صبَّ لنفسه كوبًا آخر.

«ممتن لك كثيرًا» قالها بانحناءة مدروسة «كان هذا منعشًا فعلًا».

دُهش هومر عندما انحنى الرجل مرةً أخرى، مؤديًا عدة خطوات راقصة سريعة، ثم ترك قبعته تتدحرج على ذراعه. سقطت القبعة على الأرض. فتوقف ليستعيدها، ثم اعتدل واقفًا مُرتجًّا كما لو أن أحدا ركله، ودعك مقعدته آسفًا.

فهم هومر أن المقصود من هذا هو التسلية، فضحك.

شكره هاري بالانحناء مرَّةً أخرى، لكن شيئًا ما خطأ حدث. كان الجهد زائدًا عن الحد بالنسبة له. شحب وجهه وتحسس ياقته.

«وعكة عابرة» تمتم وهو يسائل نفسه إن كان يمثل أم مريضًا.

«اجلس» قال هومر.

لكن هاري لم يكن قد انتهى من عرضه بعد. انتحل ابتسامةً أنيقةً وخطا بضع خطوات غير ثابتة في اتجاه الأريكة، ثم تظاهر بالتعثر. تفحص السجادة ساخطًا، موحيًا بأنه قد وجد الشيء الذي أوقعه وركله بعيدًا. ثم عرج إلى الأريكة وجلس بتنهيدة صافرة مثل الهواء الهارب من بالونة.

صبَّ هومر المزيد من الماء. حاول هاري أن يقف، لكن هومر أصر على إرجاعه وجعله يشرب وهو جالس. شرب هذا الكوب كما فعل بالكوبين الآخرين؛ في جرعات سريعة، ثم مسح فمه بمنديله محاكيًا رجلًا بشارب كبير شرب لتوِّه كوبًا من البيرة ذات الرغاوي.

«أنت طيب بالفعل يا سيدي» قال «لا تخف أبدًا، يومًا ما سأوفيك الجميل ألف مرَّة».

قأقأ هاري.

ومن جيبه أخرج علبةً صغيرةً، ومدَّها إلى هومر ليأخذها.

«هدايا للبيت» قال معلنًا «علبة من (المحلول المعجزة) المُلمِّع العصري بامتياز، المُلمِّع الذي ليس له ندّ أو نظير، الذي يستخدمه كل نجوم السينما...».

قطع خطبته الإقناعية بضحكة رنَّانة.

أخذ هومر العلبة.

«أشكرك» قال محاولًا أن يبدو ممتنًا «كم ثمنها؟».

«السعر العادي، سعر التجزئة هو خمسون سنتًا، لكن يمكنك أن تأخذها بالسعر الاستثنائي؛ سعر الجملة: ربع دولار. السعر الذي أدفعه في المصنع».

«ربع دولار؟» تساءل هومر وقد تغلبت عادته للحظة على تهيبه «يمكنني أن أشتري علبةً حجمها ضعف هذه بربع دولار في المتجر».

فهم هاري الرجل الذي أمامه.

«خذها، خذها بلا مقابل» قالها بازدراء.

انخدع هومر لدرجة الاحتجاج قائلًا:

«أعتقد أن هذه اللمعة ربما تكون أفضل بكثير».

«لا» قال هاري وكأنه يرفض رشوةً بازدراء.

«احتفظ بنقودك. لا أريدها».

وضحك، لكن بمرارة هذه المرَّة.

أخرج هومر بعض الفكة وقدمها له.

«خذها من فضلك. أنا متأكد أنك بحاجة إليها. سآخذ علبتين».

وضع هاري رَجُلَه حيث أراد له أن يكون. وبدأ يجرِّب تنويعة من الضحكات، كلها مسرحية؛ كموسيقي يضبط آلته قبل الحفل. وأخيرا وجد الضحكة الصحيحة وأطلقها. كانت ضحكة الضحية.

«كُفّ من فضلك».

لكن هاري لم يكن بمقدوره أن يكفّ. كان مريضًا بالفعل. وكان الحاجز الأخير الذي يبقيه متوازنًا على مجرى الرثاء للذات قد أطيح به وغدا ينزلق على المنحدَر، مكتسبًا قوة دفع طوال الوقت. قفز على قدميه وبدأ يؤدي أدوار هاري جرينر: هاري المسكين، هاري الشريف، ذو النية الحسنة، الذليل، الكفؤ، الزوج المثالي، الأب النموذجي، المسيحي المخلص، الصديق الوفيّ.

لم يُبدِ هومر أدنى تقدير لكل هذا الأداء. كان مرعوبًا وتساءل فيما بينه وبين نفسه إذا ما كان يجب أن يتصل بالبوليس. لكنه لم يفعل شيئًا. فقط ظل رافعًا يده لهاري حتى يتوقف.

في نهاية عرضه الإيمائي، وقف هاري وقد ألقى برأسه إلى الخلف، قابضًا على حلقه، وكأنه ينتظر نزول الستار. صبَّ له هومر كوبًا آخر من الماء. لكن هاري لم يكن قد انتهى. انحنى واضعًا قبعته على قلبه، ثم بدأ من جديد. لم يطل به الوقت هذه المرة حتى شهق بألم طلبًا للهواء.

وفجأةً، مثل لعبة آلية تم لفها زيادة عن اللزوم، انقطم شيء ما بداخله وبدأ يكرّ برنامج عروضه القديمة بأكمله. كان جهدًا عضليًّا صرفًا، كرقصة مشلول. رقص بخطوات سريعة، وتلاعب بقبعته، وأوحى بأنه قد رُكل، وتعثر، وسلَّم على نفسه. مرَّ بكل هذا في نوبة مدوِّخة واحدة، ثم ترنَّح إلى الأريكة وانهار متداعيًا.

رقد على الأريكة وعيناه مغلقتان وصدره يرتفع وينخفض. كان مندهشًا أكثر حتى من هومر. كان قد أدى عرضه أربع أو خمس مرَّات بالفعل هذا اليوم ولم يحدث له شيء كهذا. كان مريضًا فعلًا.

«لقد أصابتك نوبة» قال هومر عندما فتح هاري عينيه.

بمرور الدقائق بدأ هاري يشعر بالتحسن وعادت إليه ثقته بنفسه. دفع كل فكرة عن المرض خارج عقله، بل وتمادى لدرجة تهنئة نفسه على أدائه أفضل عرض في حياته المهنية. ينبغي أن يتمكن من الحصول على خمسة دولارات من هذا المغفل الكبير الذي ينحني فوقه.

«هل لديك أي مشروبات روحية في المنزل؟» سأل بضعف.

كان البقال قد أرسل لهومر زجاجة من النبيذ الأحمر الحلو على سبيل التجربة فذهب ليحضرها. ملأ كأسًا حتى منتصفه وناوله إلى هاري، الذي شربه في رشفات صغيرة، جاعلًا وجهه يتخذ التعبيرات التي تصاحب عادةً شرب الدواء.

ثم طلب من هومر -متحدثًا بهدوء كما لو كان في حالة ألم عظيم- أن يُدخل حقيبة عيناته.

«إنها على عتبة الباب. قد يسرقها أحد. إن معظم رأس مالي الصغير مستثمَر في علب اللمعة هذه».

عندما خطا هومر خارجًا ليلبي طلبه، رأى فتاة بالقرب من الحاجز الحجري عند حافة الطريق. كانت فاي جرينر. وكانت تنظر إلى البيت.

«هل أبي هناك بالداخل؟» صاحت.

«السيد جرينر؟».

دبدبت بقدمها على الأرض.

«أخبره أن يسرع.. اللعنة! .. لا أريد أن أظل هنا طوال اليوم».

«إنه مريض».

أدارت الفتاة وجهها دون أن تبدي أي إشارة على أنها سمعت أو اهتمت.

أخذ هومر حقيبة العينات معه ودخل المنزل. وجد هاري يصب لنفسه كأسًا آخر.

«صنف معقول إلى حد ما». قال وهو يتلمظ بشفتيه على الشراب «معقول إلى حد ما، لا بأس.. لا بأس. هل تعدُّني وقحًا لو سألتك كم تدفع مقابل؟».

قاطعه هومر بسرعة؛ فقد كان لا يستحسن الأشخاص الذين يشربون، وأراد أن يتخلص منه.

«ابنتك في الخارج» قالها بقدر ما استطاع أن يحشد من صرامة. «وهي تريدك».

تداعى هاري على الأريكة، وبدأ يتنفس بصعوبة. كان يمثل مرةً أخرى.

«لا تقل لها» لهث قائلًا «لا تقل لها كم أن والدها العجوز مريض. لا يجب أن تعرف أبدًا».

كان هومر مصدومًا من ريائه.

«أنت أفضل حالًا» قالها بقدر ما استطاع من برود «لماذا لا تعود إلى البيت ؟».

ابتسم هاري ليظهر مقدار الإهانة والأذى اللذين أصاباه جرَّاء السلوك القاسي من مضيفه. ولما لم يقل هومر شيئًا، تحولت الابتسامة إلى أخرى تعبر عن شجاعة بلا حدود. وقف بحرص على قدميه، وقف منتصبًا لدقيقة، ثم بدأ يتأرجح بضعف وتعثر عائدًا إلى الأريكة.

«أنا دائخ» أنَّ قائلًا.

مرَّة أخرى أصابته الدهشة والخوف. كان دائخًا.

«ائتِ بابنتي» شهق قائلًا.

وجدها هومر واقفة عند الحاجز الحجري وظهرها إلى المنزل. ولمَّا ناداها دارت وأتت نحوه عدوًا. راقبها لثانية، ثم دخل تاركًا الباب مفتوحًا.

اندفعت فاي إلى داخل الحجرة. تجاهلت هومر وذهبت مباشرة إلى الأريكة.

«والآن ما الأمر بحق الجحيم؟» انفجرت قائلة.

«ابنتي الحبيبة. لقد أُخذت على حين غرة وبشكل سيئ، وقد كان هذا السيد المهذب طيبًا بما يكفي لتركي أستريح قليلًا».

«أصيب بنوبة أو شيء من هذا القبيل» قال هومر.

التفتت إليه بشكل مفاجئ للغاية حتى أنه جفل.

«كيف حالك؟» قالت وهي تمد له يدها مرفوعةً.

سلَّم عليها بحذر شديد.

«فرصة سعيدة» قالت عندما تمتم بشيء ما.

واستدارت على عقبها مرةً ثانيةً.

«إنه قلبي» قال هاري «لا أستطيع الوقوف».

كان العرض الصغير الذي يؤديه ليبيع المُلمِّع مألوفًا بالنسبة إليها، وكانت تعرف أن هذا ليس جزءًا منه. وعندما استدارت لتواجه هومر مرةً أخرى كانت تبدو محزونةً إلى حد كبير. ورأسها التي كانت تبقيها مشدودةً للخلف، تدلت أمامها الآن.

«من فضلك دعه يستريح هناك» قالت.

«نعم بالطبع».

أشار لها هومر تجاه مقعد، ثم ناولها عود ثقاب لتشعل سيجارتها. حاول ألا يحدِّق فيها، لكن سلوكياته المهذبة تلك ذهبت بددًا. فقد كانت فاي تستمتع بالتحديق فيها.

كان يعتقد أنها فائقة الجمال، لكن ما أثر فيه بشكل أكبر هو حيويتها.

كانت متوترة ونابضة بالحياة. وكانت لامعةً كملعقة جديدة.

وبالرغم من أنها كانت في السابعة عشرة، إلا أنها كانت تلبس كطفلة في الثانية عشرة ترتدي فستانًا قطنيًّا أبيض بياقة بحَّار زرقاء. وكانت ساقاها الطويلتان عاريتين وفي قدميها ارتدت صندلًا أزرق.

«أنا آسفة جدًّا» قالت عندما نظر هومر إلى والدها مرةً أخرى.

أشار بيده بما يعني أنه لا مشاكل في الأمر.

«إن له قلبًا رذيلًا، العزيز المسكين» تابعت قائلة «لقد توسلت وتوسلت إليه أن يذهب إلى طبيب إخصائي، لكنكم أيها الرجال كلكم متشابهون».

«نعم، لابد أن يذهب إلى طبيب» قال هومر.

كانت تصرفاتها الغريبة وصوتها المصطنع يربكانه.

«كم الساعة الآن؟» سألت.

«حوالي الواحدة».

وقفت فجأةً ودفنت يديها في شعرها على جانبي رأسها، جاعلةً شعرها ينضم لأعلى في كرة لامعة.

«أوه» شهقت بشكل جميل «ولديّ موعد على الغداء».

بقيت ممسكةً بشعرها حتى أن فستانها المحكم التفصيل التوى محبوكًا على جسمها، وكان باستطاعة هومر أن يرى ضلوعها الرقيقة المقوَّسة، وبطنها الصغيرة بنقرة صرتها. كانت هذه الإيماءة المُحكمة -مثلها في ذلك مثل كل إيماءاتها الأخرى- بلا معنى على الإطلاق،

تقريبًا رسمية، لدرجة أنها بدت راقصةً أكثر منها ممثلةً متكلفةً.

«هل تحبين سلطة السلمون؟» تجاسر هومر على السؤال.

«سلطة السـ .. لمون؟».

بدت وكأنها تعيد السؤال موجهةً إيَّاه إلى معدتها، وكانت الإجابة بنعم.

«بكثير من المايونيز، هه؟ أنا أعشقها».

«كنت سأعد بعضها للغداء. سأنتهي من صنعها».

«دعني أساعد».

نظرا إلى هاري، الذي بدا عليه أنه نائم، ثم دخلا المطبخ. وبينما كان هو يفتح علبة سلمون، اعتلت كرسيًّا مباعدةً ما بين ساقيها وقد طوت ذراعيها على أعلى ظهره وأراحت ذقنها عليهما. وكلما نظر إليها ابتسمت بحميمية وطوَّحت شعرها الفاتح اللامع إلى الأمام أولًا ثم إلى الخلف.

كان هومر مستثارًا وكانت يداه تعملان بسرعة. وبعد قليل كان لديه سلطانية كبيرة جاهزة من السلطة. أعدَّ المائدة بأفضل مفرش وأفضل فضيات وصيني لديه.

«إن مجرد النظر يجعلني جائعة» قالت.

بدت الطريقة التي قالت بها هذه الجملة، وكأنها تقصد أن هومر هو الذي جعلها جائعةً وابتسم لها هومر مبتهجًا. لكن قبل أن تواتيه الفرصة ويجلس، كانت هي تأكل بالفعل. وضعت الزبد على شريحة من الخبز،

وغطت الزبد بالسكر وأخذت قضمةً كبيرةً. ثم بسرعة فردت كتلةً من المايونيز على السلمون وشرعت في العمل. وما كاد يجلس حتى طلبت منه شيئًا تشربه. صب لها كوبًا من اللبن ووقف يرقبها كأنه ساقٍ. لم يكن ملتفتًا لوقاحتها.

ما إن أتت على السلطة، حتى أتى لها بتفاحة حمراء كبيرة. أكلت الثمرة ببطء أكثر، وهي تقضم برقة، وقد التف بنصرها مبتعدًا عن بقية يدها. وعندما انتهت منها، رجعت إلى حجرة المعيشة وتبعها هومر.

كان هاري ما زال راقدًا كما تركاه، متمددًا على الأريكة. وكانت شمس الظهيرة الثقيلة تضرب وجهه مباشرةً، ساقطةً عليه كهرَّاوة. ومع ذلك كان بالكاد يشعر بضرباتها. فقد كان منشغلًا بالألم الطاعن في صدره. كان منشغلًا جدًّا بنفسه لدرجة أنه حتى توقف عن محاولة التخطيط لكيفية الحصول على المال من المغفل الكبير.

شدَّ هومر ستارة النافذة ليظلل وجهه. لكن هاري لم يلاحظ حتى ذلك. كان يفكر في الموت. انحنت فاي فوقه. ومن تحت جفونه المواربة رأى أنها كانت تنتظر منه أن يأتي بإيماءة مطمئنة. رفض. فقد فحص التعبير التراجيدي الذي تظاهرت به ولم يعجبه. في لحظة خطيرة كتلك، كان حزنها المصطنع مهينًا.

«كلمني يا بابا» توسلت.

كانت تغريه دون أن تدري.

«ما هذا بحق الجحيم» زمجر قائلًا «عرض (توم)؟».

أخافتها غضبته المفاجئة، واعتدلت مرتجةً. لم يكن يريد أن يضحك، لكن نباحًا قصيرًا أفلت منه قبل أن يستطيع إيقافه. انتظر بقلق ليرى ما سيحدث. ولمَّا لم يجد لها سوءًا ضحك مرَّة أخرى. واستمر في الضحك، بتهيب في البداية، ثم باطمئنان متزايد. كان يضحك وعيناه مغلقتان والعرق يسيل على جبهته. لم تكن فاي تعرف سوى طريقة واحدة لإيقافه وكانت أن تفعل شيئًا يكرهه بقدر ما تكره هي ضحكه. بدأت تغني.

«يا جيبرز كريبرز![٢٦]

من أين لك هذه الأعين؟...»

كانت تقايضه، وهي ترج ردفيها وتهز رأسها من ناحية لأخرى.

وكان هومر مذهولًا. شعر أن المشهد الذي يراه تم التدريب عليه من قبل. وكان مُحقًّا. فغالبًا ما كانت أقسى شجاراتهما تتخذ هذا الشكل: هو يضحك، وهي تغني.

«يا جيبرز كريبرز!

من أين لك هذه الأعين؟

ياه! كلها صاحية!

كيف تأتَّى لها أن تكون مضيئةً هكذا؟

---

(٢٦) أغنية للوي أرمسترونج، صُورت في فيلم (الذهاب للأماكن) ١٩٣٨، وكان لوي يغنيها في الفيلم لحصان سباق شديد الجموح ولا يهدأ ويترك أحدًا يركبه، إلا إذا عزف له سائسه جابرييل (أرمسترونج) على ترومبيته وغنى له هذه الأغنية التي تحمل اسم الحصان **Jeepers Creepers**.

ياه كلها صاحية...»

وعندما توقف هاري، توقفت، وألقت بنفسها على أحد المقاعد. لكن هاري كان فقط يستجمع قواه من أجل محاولة أخيرة. وبدأ ثانيةً. لم تكن هذه الضحكة الجديدة ضحكةً انتقاديةً، بل كانت ضحكةً مرعبةً. عندما كانت فاي طفلةً صغيرةً، اعتاد أن يعاقبها بها. كانت درة أعماله. وكان هناك مُخرج دائمًا ما يستدعيه ليضحكها عندما كان يُصوِّر مشهدًا في مستشفى مجانين أو في قلعة مسكونة.

كانت تبدأ بطقطقة معدنية حادة؛ تشبه العصيّ المحترقة، ثم تزداد درجتها ارتفاعًا بشكل تدريجي حتى تصبح نباحًا سريعًا، ثم تنخفض مرةً أخرى إلى ضحكة خافتة داعرة. وبعد توقف قصير كانت تعلو حتى تكون صهيل حصان، ثم تزداد عُلوًّا لتصبح صراخًا شبه آلي.

استمعت فاي عاجزةً وقد مالت رأسها إلى جانب. وفجأةً ضحكت هي أيضًا، ليس عن طيب خاطر؛ وإنما لمحاربة الصوت.

«أنت يا ابن الحرام!» صرخت.

قفزت إلى الأريكة، وأمسكت بكتفيه، وحاولت أن تهزه حتى يهدأ.

لكنه ظل يضحك.

تحرك هومر كما لو كان سيشدها بعيدًا، لكنه فقد جرأته وخشي أن يمسها. فقد كانت عاريةً جدًّا تحت فستانها البالغ القصر.

«آنسة جرينر» توسل جاعلًا يديه الكبيرتين ترقصان في نهاية ذراعيه. «من فضلك، من فضلك...».

لم يعد بمقدور هاري أن يتوقف عن الضحك الآن. كان يضغط بيديه على بطنه، لكن الصوت كان ينساب منه. كان قد بدأ يصبح مؤذيًا مرةً أخرى.

مرجحت يدها كما لو كانت تمسك بمطرقة، ثم هوت بقبضتها على فمه بقوة. ضربته مرةً واحدةً فقط. فاسترخى وهدأ.

«اضطررت لأن أفعل هذا.» قالت لهومر عندما أخذ بذراعها وقادها بعيدًا.

أرشدها إلى مقعد في المطبخ وأغلق الباب. استمرت في النشيج لوقت طويل. وقف خلف مقعدها عاجزًا يراقب حركة الارتفاع والانخفاض المنتظمة لكتفيها. ولعدة مرات تحركت يداه للأمام كي تربتا عليها لتهدأ، لكنه كان ينجح في كبحهما.

عندما انتهت من البكاء، ناولها منديلًا وجففت وجهها. تلطخ المنديل تمامًا بأحمر شفاهها وكحل عينيها.

«لقد أفسدته» قالت وهي تنأى بوجهها عنه. «أنا آسفة جدًّا».

«لقد كان قذرا» قال هومر.

أخرجت علبة تجميل صغيرة من جيبها، ونظرت لنفسها في مرآتها المنمنمة.

«أنا مرعبة!».

سألت إذا كان بإمكانها أن تستخدم الحمَّام، فأراها مكانه. ثم مشى على أطراف قدميه إلى حجرة المعيشة ليرى هاري. كان تنفس العجوز

مزعجًا لكنه منتظم، وكان يبدو عليه أنه نائم بهدوء. وضع هومر وسادة تحت رأسه دون أن يزعجه، وعاد إلى المطبخ. أشعل الموقد ووضع إناء القهوة على اللهب، ثم جلس لينتظر عودة الفتاة. سمعها تدخل حجرة المعيشة. وبعد ثوان قليلة أتت إلى المطبخ.

ترددت معتذرة على المدخل.

«ألن تتناولي بعض القهوة؟».

ودون انتظار رد منها، صب لها قدحًا وقرَّب لها السكر والقشدة.

«كنت مضطرةً لأن أفعل هذا» قالت «فقط كنت مضطرةً».

«لا بأس».

وليُظهر لها أنه ليس من الضروري أن تعتذر، تشاغل عند الحوض.

«لا.. لقد كنت مضطرةً» أصرت «إنه يضحك بهذه الطريقة فقط ليؤدي بي إلى الجنون. وأنا لا أطيق هذا. ببساطة لا أطيق».

«نعم».

«إنه مجنون. نحن عائلة جرينر كلنا مجانين».

قالت هذه الجملة الأخيرة وكأن هناك ميزة في كون المرء مجنونًا.

«إنه مريض إلى حد ما» قال هومر معتذرًا لها «ربما أصيب بضربة شمس».

«لا، إنه مجنون».

وضع طبقًا من بسكويت الزنجبيل على المائدة، وانتهت منه مع

قدحها الثاني من القهوة. فتنه صوت الطحن الرقيق الذي كان يصدر عنها وهي تمضغ.

عندما بقيت هادئةً لدقائق عديدة، استدار من الحوض ليرى إذا كانت هناك ثمة مشكلة. كانت تدخن سيجارةً وتبدو تائهةً في أفكارها.

حاول أن يكون مرحًا.

«فيمَ تفكرين؟» قالها بطريقة خرقاء، وبعدها شعر أنه أحمق.

تنهدت لتُظهر كم كانت أفكارها مظلمةً ومُنذرةً بالشر، لكنها لم ترد.

«أراهن أنك ستحبين بعض الحلوى» قال هومر «لا توجد أيّ حلوى في البيت، لكن يمكنني أن أتصل بالصيدلية وسيرسلونها على الفور. أم بعض الآيس كريم؟».

«لا شكرًا، من فضلك».

«لا توجد مشكلة».

«أبي ليس بائعًا متجولًا في الحقيقة» قالت بطريقة مفاجئة. «إنه ممثل. وأنا ممثلة. وكانت أمي أيضًا ممثلةً، راقصةً. المسرح في دمنا».

«لم أشاهد الكثير من العروض. أنا...»

قطع كلامه لأنه رأى أنها لم تكن مهتمةً.

«سأكون نجمةً يومًا ما» أعلنت ذلك كما لو كانت تشجعه على معارضتها.

«أنا متأكد أنكِ...».

«إنها حياتي. إنه الشيء الوحيد في العالم بأكمله الذي أريده».

«من الجيد أن تعرفي ما تريدينه. لقد كنت كاتب حسابات في فندق، لكن...».

«إذا لم أكن سأنتحر».

وقفت ووضعت يديها في شعرها، وفتحت عينيها على اتساعها، وقطَّبت.

«أنا لا أذهب إلى العروض المسرحية كثيرًا» اعتذر دافعًا إليها ببسكويت الزنجبيل «الأضواء تؤذي عينيّ».

ضحكت، وأخذت قطعة من البسكويت.

«سأصبح سمينةً».

«أوه، كلا».

«يقولون إن النساء السمينات سيصبحن موضة السنة القادمة. هل تعتقد هذا؟ أنا لا أعتقد. إنها مجرد دعاية لماي ويست[٢٧]».

وافق على رأيها.

ظلت تتحدث وتتحدث بلا توقف عن نفسها وعن العمل في السينما. وظل هو يراقبها دون أن يسمع، وكلما كررت سؤالًا لتحصل منه على رد، أومأ برأسه دون أن يقول شيئًا.

كانت يداه قد بدأتا تضايقانه. حكَّهما في حافة المائدة ليخفف من

(٢٧) **Mae West** (١٨٩٣ – ١٩٨٠): ممثلة وكاتبة مسرح وسيناريست و أيقونة جنس أمريكية.

رغبته في هرشهما، لكن هذا أثارهما فقط. وعندما شبكهما خلف ظهره، أصبح التوتر لا يُحتمل. كانتا ساختنين ومتورمتين.

متحججًا بالأطباق وضعهما تحت صنبور الماء البارد في الحوض.

كانت فاي ما زالت تتحدث عندما ظهر هاري في مدخل المطبخ. كان يتكئ بضعف على إطار الباب. وكانت أنفه حمراء جدًّا، لكن بقية وجهه غاض منه الدم فغدا أبيض، وبدا أنه قد تضاءل للغاية على ملابسه. ومع ذلك، كان يبتسم.

ولدهشة هومر، حيا كل منهما الآخر وكأن شيئًا لم يكن.

«هل أنت بخير الآن يا بابا؟».

«أنا طيب و بخير يا طفلتي. سليم كالمطر، لائق كالكمان، نشط كالبرغوث، مثلما يقول (واحد بلدياتنا)».

كانت الخنة الأنفية التي استخدمها مقلدًا فلاحًا ريفيًّا أجلف قد جعلت هومر يبتسم.

«هل تريد شيئًا لتأكله؟» سأله «ربما كوب من اللبن؟».

«تكفيني وجبة خفيفة».

ساعدته فاي في التقدم للمائدة. حاول أن يخفي ضعفه بأداء مشية زنجية بطيئة بشكل مبالغ فيه.

فتح هومر علبة سردين، وقطع بعض الخبز إلى شرائح. تلمظ هاري بشفتيه على الطعام، لكنه أكل ببطء وبمشقة.

«لقد أصاب هذا الهدف، كله تمام التمام» قال عندما انتهى.

اتكأ إلى الخلف واصطاد من جيب صديريته عقب سيجار متجعد. أشعلته فاي له وبمرح نفخ في وجهها نفثة من الدخان.

«من الأفضل لنا أن نذهب يا أبي».

«في لحظة يا طفلتي».

واستدار إلى هومر.

«أنت تملك مكانًا لطيفًا هنا. متزوج؟».

حاولت فاي أن تتدخل.

«بابا!».

تجاهلها.

«أعزب.. هِه؟».

«نعم».

«حسنًا، حسنًا، شاب مثلك».

«أنا هنا لأجل صحتي» وجد هومر أنه من الضروري أن يقول هذا.

«لا تُجب على أسئلته» قاطعتهما فاي.

«والآن، الآن يا ابنتي، أنا أحاول أن أكون ودودًا. أنا لا أقصد أيّ شر».

كان ما زال يستخدم لكنةً ريفيةً مبالغ فيها. بصق بلا لعاب داخل مبصقة مُتخيَلة، وأوحى بأنه ينقل مضغة تبغ من خد إلى آخر.

فكر هومر أن تقليده مضحك.

«كنت لأشعر بالوحدة والرعب لو عشت وحدي في منزل كبير كهذا،» استمر هاري «ألا تشعر أبدًا بالوحدة ؟».

نظر هومر لفاي بحثًا عن إجابة. كانت مقطبةً بضيق.

«لا» قال ليمنع هاري من تكرار السؤال المزعج.

«لا؟ حسنا، هذا طيب».

نفخ عدة حلقات دخان في اتجاه السقف، وراقب مسلكها بحكمة.

«ألا تفكر أبدًا في تسكين أشخاص آخرين؟» سأل هاري «أقصد بعض الأشخاص الظرفاء الاجتماعيين. سيدر هذا القليل من الدخل الإضافي، وسيجعل الحياة في البيت أكثر دفئًا».

أحس هومر بالسخط، لكن تحت سخطه كمنت فكرة أخرى، فكرة مثيرة جدًّا. لم يكن يعرف ماذا يقول.

وأساءت فاي فهم إثارته.

«كف عن هذا يا أبي» صرخت متعجبةً قبل أن يستطيع هومر الرد «لقد كنتَ مصدر إزعاج كبير بما يكفي بالفعل».

«إنها مجرد ثرثرة» احتج ببراءة «مجرد محادثة».

«حسنًا، إذن دعنا نمضي» أجابت بحدة.

«في الوقت متسع» قال هومر.

كان يريد أن يضيف شيئًا آخر أقوى، لكنه لم يكن يملك الشجاعة. لكن يديه كانتا أكثر شجاعةً. فعندما سلمت عليه فاي مودعةً، تشبثتا

بيدها ورفضتا إفلاتها.

ضحكت فاي من إصرارهما الدافئ.

«مليون شكر يا سيد سيمبسون» قالت «لقد كنت طيبًا للغاية. شكرًا على الغداء وعلى مساعدة أبي».

«نحن ممتنان للغاية» تداخل هاري «لقد أديت عملًا مسيحيًّا اليوم. سيكافئك الرب».

كان قد أصبح فجأةً شديد التقوى.

«من فضلك مُرّ علينا» قالت فاي «نحن نعيش في الجوار في عمارة سان بردو؛ أسفل الوادي بحوالي خمس عمارات. إنه المنزل الأصفر الكبير».

عندما وقف هاري، اضطر أن يتكئ على المائدة ليستند عليها. أخذ هومر وفاي كل بذراع وساعداه في الخروج إلى الشارع. ساعده هومر في البقاء منتصبًا بينما ذهبت فاي لتحضر سيارتهما الفورد التي كانت مركونةً في الناحية الأخرى من الشارع.

«لقد نسينا طلبك من (المحلول المعجزة)» قال هاري «المُلمِّع الذي بلا ندٍّ أو نظير».

وجد هومر دولارًا وسرَّبه إلى يده. خبَّأ هاري النقود بسرعة وحاول أن يتخذ مظهر التاجر.

«سأترك البضاعة غدًا».

«نعم، سيكون هذا طيبًا» قال هومر «أنا بالفعل في حاجة لبعض من

مُلمِّع الفضة.»

كان هاري غاضبًا لأنه كان يؤذيه أن يتفضَّل عليه شخص مغفل. فبذل محاولة لإعادة تأسيس ما اعتبره الشكل الصحيح لعلاقتهما بالانحناء لهومر بشكل تهكميّ، لكنه لم يستطع أن يتمادى في إيماءته وبدأ يتحسس تفاحة آدم. ساعده هومر في الدخول إلى العربة حتى هبط ساقطًا في المقعد المجاور لفاي.

انطلقا بالعربة مبتعدين. استدارت فاي لتلوِّح له، لكن هومر حتى لم ينظر خلفه.

❊ ❊ ❊

١٢

قضى هومر بقية ما بعد الظهر جالسًا على كرسي البحر المكسور. كانت السحلية على الصبّار، لكنه أبدى اهتمامًا قليلًا بصيدها. أبقت يداه أفكاره مشغولةً. كانتا ترتعشان وتهتزان، كما لو كانت تقلقهما الأحلام. ولكي يبقيهما ساكنتين، شبكهما معًا. التفت أصابعهما حول بعضها ككتلة ملتفة من الأفخاذ في رسمة منمنمة. انتزعهما من بعضهما وجلس عليهما.

ولمَّا مرت الأيام ولم يستطع أن ينسى فاي، بدأ يتنامى شعوره بالخوف. كان يعرف بطريقة ما أن خط دفاعه الوحيد كان هو العِفَّة، وأنها خدمته -مثل درقة السلحفاة- كعمود فقري وكدرع في آن. ولم يكن بمقدوره أن يطرحها عنه حتى في أفكاره. فلو فعل ذلك، سيهلك.

كان على صواب. فهناك رجال يمكنهم الاشتهاء بأجزاء من أنفسهم. تحترق عقولهم أو قلوبهم فقط، وساعتها لا تحترق تمامًا. وهناك آخرون -وهم الأوفر حظًّا- يشبهون أسلاك المصباح المتوهج. يحترقون بضراوة، لكن لا شيء يُدمَّر. غير أنه في حالة هومر يبدو الأمر أشبه بإلقاء شرارة في حظيرة ملأى بالقش. كان قد هرب في حادثة رامولا مارتن،

لكنه لم يكن ليهرب مرةً أخرى. فعندئذ على الأقل كان لديه وظيفته في الفندق؛ واجب يومي يستغرق اليوم بأكمله كان يحميه بإرهاقه، لكنه الآن لا يملك أيّ شيء.

أخافته أفكاره، فاندفع إلى داخل المنزل على أمل أن يتركها وراءه كقبعة. جرى داخلًا حجرة نومه، وألقى بنفسه على السرير. كان ساذجًا إلى حد الاعتقاد بأن الناس لا يفكرون وهم نائمون.

حتى هذا الوهم تخلى عنه في حالته المضطربة تلك، ولم يستطع أن يسقط في النوم. أغلق عينيه، وحاول أن ينعس. لكن الاقتراب من النوم والذي كان فيما مضى شيئًا أوتوماتيكيًّا أصبح بشكل ما نفقًا طويلًا مضيئًا، وكان النوم في نهايته البعيدة، قطعة ظل ناعمةً في الوهج القاسي. لم يستطع أن يجري، لم يكن بمقدوره إلا الزحف نحو رقعة الأرض الصغيرة السوداء. وبالضبط في اللحظة التي كان فيها على وشك أن يكف، أتت العادة لتنقذه؛ هادمة النفق الساطع، وقاذفة إيَّاه إلى الظل.

عندما استيقظ حدث هذا بلا نضال. حاول أن يعود إلى النوم مرَّة أخرى، لكنه هذه المرَّة لم يستطع حتى أن يجد النفق. كان مستيقظًا تمامًا. حاول أن يفكر في كم كان هو مُتعبًا، لكنه لم يكن مُتعبًا. كان يشعر بأنه حيٌّ أكثر من أيّ وقت مضى منذ رامولا مارتن.

في الخارج كانت بضعة طيور ما زالت تغني بشكل متقطع؛ تبدأ وتنقطع، كما لو كانت آسفةً إذ تسلِّم بنهاية يوم آخر. ظن أنه سمع هفهفة الحرير في احتكاكه بالحرير، لكنها كانت فقط الريح تلعب في الشجر. كم كان المنزل خاويًا! حاول أن يملأه بالغناء:

«أوه.. قل هل يمكنك أن ترى

على الضوء الأول للفجر ...»[٢٨].

كانت تلك هي الأغنية الوحيدة التي يعرفها. فكر في شراء مُشغِّل إسطوانات أو مذياع. لكنه كان يعرف أنه لن يشتري أيًّا منهما. هذه الحقيقة أحزنته. كان حزنًا سارًّا، حلوًا وهادئًا جدًّا.

لكن لم يعد بمقدوره أن يظل على ما يرام وحده. أصبح ضجرًا وبدأ ينخس حزنه على أمل أن يجعله حادًّا وبالتالي يظل سارًّا بشكل أكبر. كان يتلقى كتيبات في البريد من مكتب سفريات، وكان يفكر في الرحلات التي لن يقوم بها أبدًا. كانت المكسيك على بعد عدة مئات من الأميال فقط. وكانت المراكب تغادر يوميًّا إلى هاواي.

تحول حزنه إلى عذاب قبل أن يدرك أنه قد أصبح مُرًّا. غدا بائسًا من جديد. وبدأ يبكي.

فقط هؤلاء الذين ما زال لديهم الأمل يمكنهم الاستفادة من الدموع. فعندما ينتهون من البكاء، يشعرون بالتحسن. لكن بالنسبة لهؤلاء الذين بلا أمل –مثل هومر– والذين يكون عذابهم شيئًا أساسيًّا ودائمًا، ليس من ثمة فائدة تأتي من البكاء. لا شيء يتغير بالنسبة لهم. وهم عادة يعرفون ذلك، لكنهم مع ذلك لا يستطيعون تجنب البكاء.

كان هومر محظوظًا. فقد أبكى نفسه حتى النوم.

لكنه استيقظ ثانية في الصباح وفاي تملك عليه فكره. استحم،

(٢٨) النشيد الوطني للولايات المتحدة الأمريكية.

وتناول إفطاره، وجلس في كرسيه القماشي. بعد الظهر قرر أن يخرج للتمشية. كان هناك طريق واحد بالنسبة له ليسلكه وكان يؤدي به للمرور بعمارة سان برناردينو.

في لحظة ما أثناء نومه الطويل كان قد أقلع عن المعركة. وعندما وصل إلى العمارة، استرق النظر داخل المدخل الكهرماني الإضاءة، وقرأ بطاقة جرينر على صندوق البريد، ثم استدار وعاد إلى البيت. في الليلة التالية كرر الرحلة حاملًا هدية من الزهور والنبيذ.

❊ ❊ ❊

١٣

لم تتحسن حالة هاري جرينر. ظل في السرير، يحدِّق في السقف ويداه مطويتان على صدره.

كان تود يذهب لرؤيته كل ليلة تقريبًا. وعادةً كان هناك ضيوف آخرون. أحيانًا إيب كوزيتش، أحيانًا آنا وآنابيلا لي وهما ممثلتان شقيقتان من سنوات العقد الثاني في القرن العشرين، وغالبًا رباعي جينجو وهم عائلة من مؤدي أدوار الإسكيمو أصلهم من (بوينت بارو) بألاسكا.

إذا كان هاري نائمًا أو كان هناك ضيوف، كانت فاي عادةً ما تدعو تود إلى حجرتها ليتحادثا. كان اهتمامه بها يزداد بالرغم من الأشياء التي كانت تقولها، واستمر يراها مثيرةً جدًّا. لو كانت هناك أي فتاة أخرى بكل هذا القدر من التكلُّف، لحسبها إنسانة لا تُطاق. ومع ذلك كانت أفعال فاي المتكلفة اصطناعية تمامًا لدرجة أنه كان يجدها فاتنة.

كان البقاء معها يشبه أن تكون في الكواليس أثناء مسرحية سخيفة للهواة. من مقاعد المتفرجين كانت السطور الغبية والمواقف الهزلية

ستجعله يتلوى من الضيق، لكن لأنه رأى عمال المسرح العرقانين والأسلاك التي ترفع البيت الصيفي المبهرج بكتلته المتشابكة من الزهور الورقية؛ تقبَّل كل شيء وغدا متلهفًا على نجاحها.

لم يعدم كذلك طريقة أخرى ليلتمس لها العذر. فقد كان يؤمن أنه في الوقت الذي كانت فيه غالبًا ما تدرك زيف سلوك ما، إلا أنها كانت تصر عليه لأنها لم تكن تعرف كيف تكون أكثر بساطةً أو أكثر إخلاصًا. كانت ممثلةً تعلمت من نماذج سيئة في مدرسة سيئة.

لكن فاي كان لديها ثمَّة قدرة انتقادية بما يكفي لتمييز السخيف في الأمر. كان كثيرًا ما رآها تضحك من نفسها. الأدهى من ذلك أنه رآها حتى تضحك من أحلامها.

ذات مساء تحدثا عمَّا كانت تفعله بنفسها عندما لم تكن تعمل كممثلة ثانوية. أخبرته أنها كانت غالبًا ما تقضي اليوم بأكمله في اختلاق القصص. كانت تضحك وهي تقول ذلك. ولمَّا استوضحها، وصفت طريقتها عن طيب خاطر إلى حد كبير.

كانت تدير بعض الموسيقى في الراديو، ثم تتمدد على سريرها وتغلق عينيها. وكانت لديها تشكيلة كبيرة من القصص لتختار من بينها. وبعد أن تصل إلى الحالة المزاجية المناسبة، كانت تستعرضها في رأسها، كما لو كانت حزمة من أوراق اللعب، تلقي بواحدة تلو الأخرى حتى تجد الورقة المناسبة. في بعض الأيَّام كانت تطالع الحزمة كلها دون أن تصل إلى اختيار. وعندما كان يحدث هذا، كانت إما أن تذهب إلى شارع ڤاين لتناول آيس كريم الصودا، أو -إذا كانت مفلسة- تفرّ حزمة الورق

مرةً أخرى وتجبر نفسها على الاختيار.

وفيما كانت تسلِّم بأن طريقتها تلك كانت شديدة الميكانيكية على أن تأتي بأفضل النتائج، وأنه من الأفضل الانزلاق إلى الحلم بشكل طبيعي؛ إلا أنها كانت تقول أن أيّ حلم أفضل من لا حلم، وأن الشحَّاذين لا يمكنهم أن يكونوا في خيرة من أمرهم. هي لم تقل هذا بالضبط، لكنه كان قادرًا على فهم ذلك مما قالته بالفعل. كان يرى أهميةً في أنها ابتسمت وهي تحكي له، ليس بارتباك، ولكن بطريقة انتقادية. ومع ذلك كانت قواها الانتقادية تنتهي عند هذا الحد. كانت فقط تبتسم من موضوع الميكانيكا.

كانت أول مرة على الإطلاق استمع فيها إلى واحد من أحلامها في وقت متأخر من الليل في حجرتها. قبل ذلك بنصف ساعة، كانت قد طرقت بابه لتطلب منه المجيء لمساعدتها ونجدة هاري؛ لأنها ظنته يموت. كان تنفسه الصاخب -الذي اعتبرته حشرجة الموت- قد أيقظها، وكانت مرعوبةً بشكل بالغ. ارتدى تود روب حمَّامه وتبعها نازلًا السلِّم. وعندما وصل إلى الشقة، كان هاري قد تمكن من أن يجلو غصة حلقه وأصبح تنفسه هادئًا مرةً أخرى.

دعته إلى حجرتها ليدخنا. جلست على السرير، وجلس تود بجوارها. كانت ترتدي روب شاطئ قديمًا من قماش المناشف الأبيض على منامتها، وكان لائقًا جدًّا.

كان يريد أن يطلب منها قبلةً، لكنه كان خائفًا، ليس لأنها كانت سترفض؛ ولكن لأنها كانت ستصر على جعلها بلا معنى. وليتملقها

علَّق على مظهرها. لكنه جعل الأمر سيئًا. فهو لم يكن قادرًا على الإطراء المباشر، وغرق في مستنقع من الملاحظات غير المباشرة الزائدة عن اللزوم. لم تستمع هي، وقطع هو كلامه شاعرًا أنه بدا كالأبله.

«لديّ فكرة هائلة» قالت هي فجأةً «فكرة عن كيف يمكننا أن نكسب بعض الأموال الطائلة».

حاول مرةً أخرى تملقها. هذه المرة بادِّعاء موقف الاهتمام الجاد.

«أنت متعلم» قالت «حسنًا، لديّ بعض أفكار هائلة لأفلام. وكل ما عليك هو أن تكتبها، وبعد ذلك سنبيعها للاستوديوهات».

وافق هو، وبدأت هي تصف خطتها. كانت غامضةً جدًّا حتى وصلت إلى ما اعتبرته سيكون نتاجها، وعندئذ دخلت إلى تفاصيل محددة. فبمجرد أن يبيعا قصةً، ستعطيه أخرى. وسيجنيا أكوامًا وأكوامًا من النقود. وهي بالطبع لن تكف عن التمثيل، حتى لو أصابت نجاحًا كبيرًا ككاتبة، لأن التمثيل كان هو حياتها.

أدرك وهي مستمرة في ذلك أنها كانت تصنع حلمًا آخر ليُضاف إلى حزمتها السميكة جدًّا بالفعل. وعندما انتهت أخيرًا من إنفاق المال بنجاح، طلب منها أن تخبره بالفكرة التي من المفترض به أن «يكتبها» مُبعدًا كل أثر للسخرية عن صوته.

على حائط الحجرة وخلف قائم السرير، كانت هناك صورة فوتوغرافية كبيرة لابد وأنها قد استُخدمت ذات مرة في ردهة مسرح للإعلان عن فيلم لطرزان. كان يظهر بها شاب جميل بعضلات مفتولة يرتدي فقط قطعة

قماش صغيرة حول خاصرته، يعتصر بتوُّقد فتاة رشيقة ترتدي ملابس ركوب خيل ممزقة. كانا يقفان في فضاء غابة ومن حولهما تلوَّت أغصان متسلقة هائلة الحجم ومحملة بزهور أوركيد سمينة. عندما أخبرته فاي بقصتها، أدرك أن هذه الصورة قد لعبت دورًا كبيرًا في الإيحاء بها.

فتاة شابة تبحر على يخت والدها في بحار الجنوب. هي مخطوبة للزواج من كونت روسي طويل ورفيع وكهل، لكنه ذو آداب سلوك جميلة. هو على اليخت أيضًا، ويظل يتوسل إليها لتحديد يوم الزواج. لكنها تتدلل ولا تمنحه طلبه. ربما قبلت بخطبتها له كي تغيظ رجلًا آخر. تصبح مهتمة ببحَّار شاب دونها في المستوى بكثير، لكنه وسيم جدًّا. تغازله لأنها ضجرة. يرفض البحار أن يكون لعبة تلهو بها مهما كان مقدار النقود التي تملكها، ويخبرها أنه لا يأخذ أوامر إلا من القبطان، وأن تعود إلى رجلها الأجنبي. تحتقن مثل الجحيم، وتهدده بأنها ستجعله يُفصَل، لكنه يكتفي بالضحك منها. كيف يمكن أن يُفصَل في وسط المحيط؟ تقع في حبه، رغم أنها ربما لا تدرك ذلك بنفسها؛ لأنه أول رجل على الإطلاق يقول لا لأحد نزواتها، ولأنه وسيم جدًّا. بعد ذلك تحدث عاصفة كبيرة ويتحطم اليخت بالقرب من جزيرة. يغرق الجميع، لكنها تتمكن من السباحة إلى الشاطئ. تصنع لنفسها كوخًا من الأغصان وتعيش على السمك والفاكهة. إنها المنطقة الاستوائية. وذات صباح، وبينما هي تستحم عارية في غدير، يمسك بها ثعبان كبير. تكافح بقوة لكن الثعبان أقوى منها بكثير، ويبدو مثل الحوائط المتحركة. لكن البحَّار -الذي كان يراقبها من خلف بعض الأجام- يقفز لنجدتها. يحارب الثعبان من أجلها وينتصر.

كان من المفترض بتود أن يكمل من هذه النقطة. سألها كيف ينبغي في رأيها أن ينتهي الفيلم، ولكن بدا أنها قد فقدت الاهتمام. ومع ذلك أصر تود على سماع رأيها.

«حسنًا، يتزوجها بالطبع ويتم إنقاذهما. أقصد أولًا يتم إنقاذهما، ثم يتزوجان. ربما يتبين أنه ولد غني ويعمل بحَّارًا فقط لخاطر المغامرة، أو شيء من هذا القبيل. يمكنك حل الموضوع بسهولة كافية».

«ستكون قنبلة الموسم بالتأكيد!» قال تود بجدية، وهو يحدِّق في شفتيها النديتين وطرف لسانها الشديد الصغر والذي ظل يتحرك بينهما.

«لديّ المزيد منها بالمئات والمئات».

لم يقل أيَّ شيء، وتغير أسلوبها. فأثناء حكي القصة، كانت مليئة بالحيوية الظاهرة وكانت يداها ووجهها متقدين بالإيماءات والتكشيرات الإيضاحية الصغيرة. لكن الآن تقلص إحساسها بالإثارة وغدا أعمق وأصبح لعبه داخليًّا. حدس أنها لابد تفرُّ حزمتها، وأنها عمَّا قريب ستنتقي ورقة لعب أخرى لتريه إيَّاها.

كان كثيرًا ما رآها على هذا الحال، لكنه لم يكن يفهم أبدًا ما بها. كانت كل هذه القصص الصغيرة، وأحلام يقظتها الصغيرة تلك، هي ما تعطي هذا اللون الاستثنائي وهذا السر الغامض لحركاتها. كان يبدو عليها دائمًا أنها تناضل في قبضتهم الناعمة كما لو كانت تحاول أن تجري في مستنقع. وبينما هو يرقبها، انتابه شعور أكيد بأن شفتيها لابد وأن يكون لهما طعم الدم والملح، وأنه لا بد وأن يكون هناك وهن لذيذ في ساقيها. لم يكن دافعه أن يساعدها في التحرر، ولكن أن يلقي بها إلى أسفل في

الوحل الطريّ الدافئ، وأن يبقيها هناك.

عبَّر عن بعض من رغبته في نخرة. لو فقط كان لديه الشجاعة لإلقاء نفسه عليها. لا شيء سيجدي أقل عنفًا من اغتصابها. كان الإحساس الذي انتابه يشبه إحساسه عند الإمساك ببيضة في يده. ليس أنها كانت هشة أو حتى تبدو هشة. لم يكن هذا. كان اكتمالها، اكتفاؤها الذاتي الشبيه بالبيضة هو ما جعله يرغب في تكسيرها.

لكنه لم يفعل شيئًا، وبدأت هي في الكلام من جديد.

«لديّ فكرة هائلة أخرى أريد أن أخبرك بها. ربما يجدر بك أن تكتب هذه في البداية. إنها قصة عن عالم الكواليس وهم يصنعون الكثير منها هذه السنة».

حكت له عن فتاة صغيرة في جوقة تحصل على فرصتها الكبيرة عندما تسقط نجمة العرض مريضةً. كانت روايةً مألوفةً لتيمة سندريللا، ولكن كان تكنيكها مختلفًا كثيرًا عن التكنيك الذي استخدمته في حكاية بحر الجنوب. فرغم أن الأحداث التي وصفتها كانت خارقةً، إلا أن وصفها لها كان واقعيًّا. كان تأثيرها أشبه بذلك الذي كان يحققه فنانو العصور الوسطى، الذين كانوا يحرصون -أثناء رسم موضوع مثل قيامة العُزير من بين الموتى أو مشي المسيح على الماء- على جعل كل التفاصيل واقعية بشكل مجهد. يبدو أنها كانت تعتقد -مثلهم- أن الخيال يمكن أن يكون مقبولًا بتكنيك رتيب.

«تعجبني هذه أيضا» قال عندما انتهت.

«فكر فيهما بعناية وانجز الموضوع ذا الفرصة الأفضل».

كانت تصرفه، وإذا لم يتصرَّف على الفور ستضيع الفرصة. بدأ يميل ناحيتها، لكنها أدركت مقصده وقامت واقفةً. أمسكت ذراعه بفظاظة ودودة -كانا الآن شريكي عمل-، وقادته إلى الباب.

في الصالة، عندما شكرته على النزول واعتذرت عن إزعاجه، حاول مرَّةً أخرى. بدا أنها لانت قليلًا ومدّ يده ناحيتها. قبَّلته عن طيب خاطر إلى حد كبير، ولكن عندما حاول أن يطوِّر الحضن، انتزعت نفسها منه.

«توقف عندك، أيها المتولِّه الهائج!» وضحكت «وإلا ستضربك ماما على مؤخرتك!».

قفز بسرعة صاعدًا السلالم.

«إلى اللقاء الآن» نادت عليه، ثم ضحكت مرَّةً أخرى.

سمعها بالكاد. كان يفكر في الرسومات التي أنجزها عنها، وفي اللوحة الجديدة التي سينجزها بمجرد وصوله إلى حجرته.

في لوحة «احتراق لوس أنجلوس» كانت فاي هي الفتاة العارية في المقدمة على اليسار والتي تطاردها مجموعة من الرجال والنساء الذين قد انفصلوا عن الكتلة الرئيسة من الزحام. واحدة من النساء على وشك أن ترشقها بحجر لتسقطها. تجري الفتاة بعينين مغلقتين ونصف ابتسامة غريبة على شفتيها. وبالرغم من السكينة الحالمة على وجهها، فإن جسدها يتمطى ليدفع بها إلى أقصى سرعة. التفسير الوحيد لهذا التناقض

هو أنها تستمتع بالانعتاق الذي يمنحه ذلك الفرار الوحشي بنفس الطريقة التي لا بد وأن يشعر بها طائر طراد عندما يندفع خارجًا من مكمنه -بعد الاختباء لدقائق عصيبة عديدة- في رعب تام وغير متبصر.

* * *

١٤

كان لدى تود منافسون آخرون وأكثر نجاحًا من هومر سيمبسون. واحد من أهمهم كان شابًّا يُدعى إيرل شُوب.

كان إيرل راعي بقر من مدينة صغيرة في أريزونا. كان يعمل على فترات في أفلام رعاة البقر، ويقضي بقية وقته أمام متجر سروج في (صانسيت بوليفارد). في واجهة هذا المتجر كان هناك سرج مكسيكي ضخم مكسو بالفضة المنقوشة، وحوله رُتبت تشكيلة كبيرة من أدوات التعذيب. من بين أشياء أخرى كانت هناك سياط مجدولة هائلة، مهاميز بعجلات شائكة ضخمة، شكائم مزدوجة تبدو كما لو كان بمقدورها أن تكسر فك حصان بلا أيّ مشكلة. وعبر مؤخرة الواجهة امتد رف واطئ عليه صف من الأحذية، بعضها أسود، وبعضها أحمر، وبعضها أصفر باهت. كلها برقاب مروحية الحواف وكعوب عالية جدًّا.

كان إيرل دائمًا ما يقف مستندًا بظهره على الواجهة، ومثبتًا عينيه على لافتة أعلى سطح مبنى من طابق واحد في الناحية الأخرى من الشارع كـُتب عليها: «الألبان بالشعير المنقوع سميكة جدًّا على الشفـَّاطة». وبانتظام -مرتين كل ساعة- كان يسحب كيس تبغ و(باكو بفرة) من

جيب قميصه ويلف سيجارة. ثم يحبك قماش بنطلونه برفع ركبته، ويشعل عود ثقاب بحكّه على طول الناحية السفلية لفخذه.

كان طوله أكثر من ستة أقدام، وقد أضافت قبعة (ستيتسون [٢٩]) الكبيرة التي يرتديها خمس بوصات زائدة إلى طوله، وكعبا حذائه ذي الرقبة تكفلا بثلاث بوصات أخرى. وزاد من مظهره الأشبه بالعمود ضيق كتفيه وافتقاره سواء للأوراك أو للأرداف. ولم تجعله السنين التي قضاها على السرج مقوس الساقين. في الواقع كانت ساقاه مستقيمتين للغاية لدرجة أن بنطاله المصنوع من قماش الجينز -والذي أحالت الشمس لونه إلى الأزرق الفاتح جدًّا ونحلته كثيرًا - كان يتدلى بلا أي تجعيدة؛ كما لو كان فارغا.

كان بمقدور تود أن يدرك لمَ اعتقدت فاي أنه وسيم. فقد كان لديه وجه ذو بعدين ربما أمكن لطفل موهوب أن يرسمه بمسطرة وفرجار. كانت ذقنه تامة الاستدارة، وعيناه المتباعدتان كثيرًا كانتا مستديرتين كذلك. وامتد فمه الرفيع بزوايا سليمة إلى أنفه المستقيم العمودي. كانت بشرته المحمرَّة المدبوغة بنفس اللون من خط شعره إلى حلقه، كما لو كانت مطليةً بيد خبير، لتكمل شبهه برسم آلي.

كان تود قد قال لفاي إن إيرل أحمق بليد. وافقته ضاحكة، لكنها أعقبت ذلك بقولها أنه «وسيم بشكل مجرم»؛ وهو تعبير التقطته من عمود الثرثرة في جريدة تجارية.

---

(٢٩) قبعة برأس عالية وحافة عريضة جدًّا، اعتاد أن يرتديها رعاة البقر وعمال المزارع في الولايات المتحدة.

ذات ليلة قابلها تود على السلالم، وسألها إذا كانت تحب أن تذهب للعشاء معه.

«لا أستطيع؛ لديّ موعد. لكن يمكنك أن تأتي».

«مع إيرل؟».

«نعم، مع إيرل» كررت الجملة مقلدةً انزعاجه بطريقة ساخرة.

«لا. شكرًا».

أساءت فهمه، ربما عن عمد، وقالت: «سيدفع الحساب هذه المرَّة».

كان إيرل مفلسًا دائمًا، وكلما ذهب تود معهما كان هو الذي يدفع.

«ليس هذا هو الأمر، وأنت تعرفين ذلك جيدًا».

«أوه .. أهكذا؟» تساءلت بخبث، ثم -وهي واثقة تمامًا من نفسها- أضافت: «قابلنا عند (هودج) حوالي الساعة الخامسة».

كان (هودج) ذاك هو متجر السروج. وعندما وصل تود إلى هناك، وجد إيرل شُوب في موقعه المعتاد؛ بالتحديد واقفًا ينظر إلى اللافتة عبر الشارع. كان مرتديًا قبعته العريضة وحذاءه ذا الكعب العالي، وعلى ذراعه الأيسر سترة رمادية داكنة مطوية بعناية. كان قميصه من القطن الأزرق الداكن بنقط مستديرة كبيرة؛ الواحدة منها بحجم عملة فضية من ذات العشر سنتات. لم يكن كـُمَّا قميصه مطوييين، ولكن مشدودين إلى منتصف ساعديه وممسوكين هناك بزوج من أربطة الذراع الوردية الممتازة. وكانت يداه لهما نفس الصبغة المحمرة النظيفة التي لوجهه.

«ها أنت ذا!» كانت هذه هي الطريقة التي يرد بها على تحية تود.

وكان تود يجد لكنته الغربية مسليةً. في المرة الأولى التي سمعها فيها رد قائلًا: «ها أنت ذا أيها الغريب»، واندهش لاكتشافه أن إيرل لم يعرف أنه يمازحه. حتى عندما تكلم تود عن «خيول السيسي الهندية» و«اللاتينيين الوضعاء» و«لصوص القطعان»، أخذه إيرل على محمل الجد.

«كيف الحال يا زميل؟» قال تود.

بجوار إيرل كان هناك راعي بقر آخر بقبعة كبيرة وحذاء عال، جالس على كعبيه وهو يلوك بنشاط غصنًا صغيرًا. ووراءه على مقربة كانت هناك حقيبة ورقية بالية يجمع شتاتَها حبلٌ ثقيل مربوط بعُقَـد صنعتها يد محترفة.

بعد أن وصل تود على الفور أتى رجل ثالث. قام بفحص شامل للبضائع الموجودة في الواجهة، ثم استدار، وبدأ يحدِّق عبر الشارع مثل الاثنين الآخرين.

كان في منتصف العمر وبدا مثل صبي أشغال من اصطبل سباق. كان وجهه مغطى تمامًا بشبكة دقيقة من التجاعيد كما لو كان قد نام ووجهه مضغوط في أسطوانة من أسلاك أقفاص الأرانب. كان رثًّا للغاية وربما قد باع قبعته الكبيرة، لكنه ما زال يحتفظ بحذائه العالي.

«ها يا شباب» قال.

«ها.. هينك» قال الرجل ذو الحقيبة الورقية.

لم يعرف تود إذا ما كانت التحية تشمله، لكنه انتهز الفرصة وردّ:

«كيف الحال؟».

نخس هينك الحقيبة بإصبع قدمه.

«أذاهب أنت إلى مكان ما يا كالفن؟».

«آزوسا.. هناك عرض (رودايو)[٣٠]».

«مَن ينظمه؟».

«شخص يدعو نفسه بـ (بادلاندس جاك)».

«هذا المقامر الغشاش! ... أذاهب أنت يا إيرل؟»

«لا».

«لابد أن آكل» قال كالفن.

تفكر هينك بعناية في كل المعلومات التي تلقاها قبل أن يتكلم ثانية.

«مونو يُخرج فيلمًا جديدًا لباك ستيفينز» قال «أخبرني ويل فيريس أنهم سيستخدمون أكثر من أربعين راكب خيل».

استدار كالفن رافعًا ناظريه إلى إيرل.

«أما زال لديك الصديري المرقط؟» تساءل بمكر.

«لماذا؟».

« سيضمن لك عملًا كقاطع طريق».

فهم تود أنها كانت نكتةً نوعًا ما لأن كالفن وهينك اختنقا بالضحك،

(٣٠) عرض شعبي في غربي الولايات المتحدة، يتسابق فيه رعاة البقر على ركوب الخيول الوحشية وإمساك القطعان بالحبال ..إلخ.

وأخذا يخبطان على فخذيهما فيما عبس إيرل.

مرت فترة صمت طويلة أخرى، ثم تكلم كالفن سائلًا إيرل:

«ألا زال لدى رجلك العجوز بعض الأبقار؟».

لكن إيرل كان يقظًا هذه المرة، ولم يجب.

غمز كالفن لتود ببطء وحرص، وهو يلوي جانبًا كاملًا من وجهه.

«هذا صحيح يا إيرل» قال هينك «مازال رجلك العجوز يمتلك بعض المواشي. لماذا لا تعود إلى موطنك؟».

لم يستطيعا أن يثيرا نأمة من إيرل، لذلك أجاب كالفن السؤال:

«لن يفعل. لقد قبض عليه في عربة خراف مرتديًا زوجًا من الأحذية الكاوتش».

كانت نكتة أخرى. خبط كالفن وهينك على فخذيهما وتضاحكا، لكن كان بمقدور تود أن يرى أنهما ينتظران شيئًا آخر. فجأةً ودون حتى أن يغير من وقفته، أطلق إيرل قدمه وركل كالفن بصلابة في مؤخرته. كانت تلك هي الغاية الحقيقية للنكتة. كانا مبتهجين بغضبة إيرل. ضحك تود أيضًا. كانت الطريقة التي انتقل بها إيرل من اللا مبالاة إلى الفعل دون مرحلة الانتقال المعتادة مضحكةً. كانت حتى جدية عنفه أكثر إضحاكًا.

بعدها بفترة قصيرة، لاحت فاي قادمة تقود عربتها الجوَّالة[٣١] الفورد البالية، واقتربت ببطء من حافة الرصيف على بعد حوالي عشرين قدمًا. لوَّح لها كالفن وهينك، لكن إيرل لم يتزحزح. أخذ وقته؛ كما يليق

(٣١) موديل من السيارات المكشوفة ذات السقف المتحرك انتشر في العشرينات.

بقدره. ولم يتحرك حتى أطلقت نفير سيارتها. تبعه تود على مسافة قصيرة من خلفه.

«أهلًا يا راعي البقر!» قالت فاي بمرح.

«ها، حبيبتي» قالها متشدقًا وهو يزيح قبعته بحرص، ويعيدها لمكانها بحرص أكبر.

ابتسمت فاي لتود، وأشارت لهما أن يركبا. جلس تود في الخلف. فرد إيرل السترة التي كان يحملها، وخبطها عدة مرات ليزيل التجعدات، ثم ارتداها وضبط ياقتها وعدل طيتيّ صدرها. وبعد ذلك ركب بجوار فاي.

أدارت العربة مصحوبةً برجَّة. وعندما وصلت (لابري) انعطفت يمينًا إلي (هوليوود بوليفارد)، ثم يسارًا بطول هذا الطريق. استطاع تود أن يلمح أنها كانت ترقب إيرل بطرف عينها وأنه كان يستعد للكلام.

«تقدم» قالت محاولة أن تستحثه «ما الأمر؟».

«انظري هنا يا حبيبتي، ليس لديّ أي نقود للعشاء».

«لكنني أخبرت تود أننا سندعوه. لقد دعانا بما يكفي».

«لا بأس» تدخل تود «فلتكن المرة القادمة. لديّ الكثير من المال».

«لا.. اللعنة!» قالت دون أن تدير عينيها «لقد سئمت هذا!».

اقتربت من حاجز الطريق وجذبت الفرامل بعنف.

«إنها دائمًا نفس القصة» قالت لإيرل.

ضبط قبعته وياقته وكُمَّيه، ثم تحدث:

«لدينا بعض الطعام في المعسكر».

«لوبيا على ما أعتقد!».

«لا».

نخسته.

«حسنا، ماذا لديك؟».

«لقد نصب ميج وأنا معه بعض الفخاخ».

ضحكت فاي.

«فخاخ فئران، إيه؟ سنأكل فئرانًا!».

لم يفه إيرل ببنت شفة.

«اسمع أيها المغفل الكبير القوي الصامت» قالت «إما أن تقول كلامًا له معنى أو -الله يلعنك- اخرج من هذه العربة!».

«إنها فخاخ سمَّان» قالها دون أدنى تغيير في أسلوبه المتخشب الرسمي.

تجاهلت تفسيره.

«الكلام معك يشبه خلع الأسنان. إنك تنهكني».

كان تود يعرف أن لا أمل له في هذه المشاجرة. فقد سمعها كلها من قبل.

«لم أكن أقصد شيئًا» قال إيرل «كنت فقط أمزح. لم أكن لأطعمكما

فئرانًا».

ردت فرامل الطوارئ وأدارت السيارة من جديد. وعند شارع (زاكارياس) انعطفت إلى داخل التلال. وبعد الصعود بثبات لمسافة ربع ميل، وصلت إلى طريق ترابي وتبعته إلى نهايته. نزلوا كلهم من السيارة وساعد إيرل فاي.

«قبِّلني» قالت وهي تبتسم مظهرةً صفحها.

خلع قبعته بطريقة رسمية، ووضعها على غطاء محرك العربة، ثم لفّ ذراعيه الطويلتين حولها. لم يُعيرا اهتمامًا لتود الذي وقف متقهقرًا على جانب يراقبهما. رأى إيرل يغلق عينيه ويكرمش شفتيه كصبي صغير. لكن لم يكن هناك شيء صبياني فيما فعله معها. وعندما استكفت دفعته بعيدًا.

«أنت أيضًا؟» نادت بمرح على تود الذي كان قد أدار ظهره.

«أوه، في وقت آخر» رد مقلدًا طريقتها العرضية.

ضحكت، ثم أخرجت علبة تجميل صغيرة، وشرعت في إصلاح شأن فمها. وعندما أصبحت جاهزة، انطلقوا في طريق صغير كان تتمة للطريق الترابي. كان إيرل في المقدمة، وتليه فاي وتذيل تود المسيرة.

كان الربيع في أوجه، وامتد الطريق على طول سفح واد ضيق أينما وجدت الحشائش منفذًا لها في ضفافه المنحدرة أزهرت متسربلة بالبنفسجي والأزرق والأصفر. وكانت زهور الخشخاش البرتقالية تحف بالطريق، وقد تجعدت بتلاتها مثل قماش الكريب وثقلت أوراقها

بغبار يشبه بودرة التلك.

تسلقوا حتى وصلوا إلى واد ضيق آخر. كان هذا الوادي مُجدبًا، لكن أرضه الجرداء وصخوره المثلمة كانت ذات ألوان أزهى حتى من زهور الوادي الأول. كان الطريق فضيًّا، متعرقًا بخطوط وردية رمادية، وكانت جدران الوادي تتنوع بين التركواز والموف والشيكولاتي والبنفسجي الباهت. كان الهواء نفسه ينبض باللون الوردي.

توقفوا ليراقبوا طائرًا طنـَّانًا يطارد طائر الزرياب الأزرق. مرق الزرياب كالبرق مطلقًا صراخًا حادًّا وفي أثره عدوه الصغير كرصاصة ياقوتية. فجَّر الطائران المبهرجان الهواء إلى ألف جزيء لامع مثل نـُثار معدني.

عندما خرجوا من هذا الوادي، رأوا أسفلهم واديًا صغيرًا أخضر كثيف الأشجار، معظمها من الأوكاليبتوس، وقد تخللتها شجرة حور هنا وشجرة بلوط أسود دائمة الخضرة هناك. هرولوا إلى الوادي منزلقين ومتعثرين في هبوطهم لمجرى جاف.

رأى تود رجلًا يرقب اقترابهم من حافة غابة الأشجار الصغيرة تلك. رأته فاي أيضًا ولوَّحت.

«أهلا ميج» صاحت.

«تشينيتا [٣٢]!» رد نداءها.

جرت العشر ياردات الأخيرة من المنحدر، واحتضنها الرجل بين

(٣٢) **Chinita**: كلمة أسبانية تعني الفتاة الآسيوية الخلاسية.

ذراعيه.

كان بلون الطوفي، وله عينان أرمينيتان واسعتان، وشفتان مبوِّزتان سوداوان. وكانت رأسه كتلة من اللفائف المتراصة المرتبة. كان يرتدي سويتر بشعر طويل، يُسمى (غوريلا) في لوس أنجلوس وحولها، ولا شيء تحته. وكان بنطلونه المتسخ بنسيجه القطني المتين ً بمنديل باندانا أحمر. وفي قدميه زوج ممزق من أحذية التنس.

استكملوا مسيرهم إلى المعسكر الذي كان في خلاء وسط الغابة. وكان يتكون من كوخ آيل للسقوط إلى حد ما ومرقَّع بلافتات ضئيلة تمت سرقتها من الطريق السريع، وموقد بلا أرجل ولا قعر مقام على بضعة صخور. بالقرب من الكوخ كان هناك صف من قنان الدجاج.

أشعل إيرل نارًا تحت الموقد، بينما جلست فاي على صندوق، وأخذت تراقبه. مضى تود ليلقي نظرة على الدجاج. كانت هناك دجاجة واحدة عجوز ونصف دستة من ديكة المصارعة. تكلف صنع القنان قدرًا كبيرًا من العذاب، حيث صنعت من الألواح الثلمة، والتي تم توصيلها وربطها بحرص، ورُشت أرضياتها حديثًا بطحالب الخـُث [٣٣].

اقترب المكسيكي، وبدأ يتكلم عن الديكة. كان فخورًا للغاية بهم.

«هذا هو هيرمانو، فائز بخمس مرات. إنه واحد من (الأولاد الجزارين في الشارع). بيب والنيجرو ما زالا فحلين. سأقاتل بهما في سان بيدرو الأسبوع القادم. وهذا ڤيَّا، إنه يرمش كثيرًا لكنه ما زال جيدًا.

(٣٣) الخث: هي نباتات متفحمة توجد بالأراضي الغدقة في المناطق المعتدلة. تتعفن ببطء في الطور الأول لتكون الفحم.

وهذا هو زاباتا، فائز لمرتين، إنه بلسم ناجع. وهذا چوچولتا؛ بطلي».

فتح القن ورفع الطائر مخرجًا إياه لتود.

«قاتل بالطبيعة هذا الفتى. سريع ومتمكن!».

كان ريش الديك أخضر وبرونزيًّا ونحاسيًّا، ومنقاره ليمونيًّا وساقاه برتقاليتين.

«إنه جميل» قال تود.

«بالطبع!».

قذف ميج الطائر معيدًا إياه إلى داخل القن، وعادا لينضما إلى الاثنين الآخرين عند النار.

«متى نأكل؟» تساءلت فاي.

اختبر ميجيل الحجر بالبصق عليه. ثم عثر بمقلاة حديدية كبيرة، وبدأ يدعكها بالرمال. وأعطى إيرل لفاي سكينًا وبعض حبات البطاطس لتقشرها، وبعد ذلك التقط جوالًا من الخيش.

«سآتي بالطيور» قال.

ذهب تود معه. تتبعا ممشى ضيقًا بدا كما لو أنه كان طريقًا للأغنام، حتى وصلا إلى حقل صغير جدًّا مغطى بحشائش عالية ولها شواشٍ. توقف إيرل خلف أجمة صمغ ورفع يده ليحذر تود.

كان طائر مُحاكٍ[٣٤] يغني في الجوار. وكانت أغنيته مثل حصوات

(٣٤) طائر رمادي شائع في أمريكا الشمالية، ومشهور عنه محاكاته الدقيقة لنغمات غيره من الطيور.

تـُلقى واحدة وراء الأخرى من مرتفع إلى بركة ماء. ثم بدأ طائر سمَّان ينادي، مستخدمًا نغمتين حلقيتين ناعمتين. رد عليه سمَّان آخر وبدأ الطائران يردان على بعضهما. لم تكن نداءاتهما مثل تلك الصفارة المرحة التي تميز طائر الحجل الشرقي. كانت ملآنةً بالكآبة والضجر، لكنها حلوة لدرجة مدهشة. ثم انضم طائر سمَّان آخر إلى هذا الدويتو. كان هذا ينادي من مكان قريب من وسط الحقل. كان طائرًا قد وقع في الفخ، لكن الصوت الذي كان يصدر عنه لم يكن به أدنى لمحة قلق؛ فقط حزن محايد وبلا أمل.

عندما اقتنع إيرل بأنه لا أحد كان هناك ليتجسس على سرقته لهذا الصيد، ذهب إلى الفخ. كان عبارة عن سلة من الأسلاك قريبة من حجم حوض الغسيل، ولها باب صغير في أعلاها. انحنى فوقها، وبدأ يتحسس طريقه إلى الباب. جرت خمسة من الطيور بشكل هائج على طول الحافة الداخلية، وألقت بأنفسها على السلك. واحد منها –وكان ذكرًا– كان له ريشة جميلة على رأسه معقوفة للأمام حتى منقاره تقريبًا.

أمسك إيرل بالطيور واحدًا واحدًا، وانتزع رؤوسها قبل أن يلقي بها داخل جواله، ثم انطلق عائدًا. مشى حاملًا الجوال تحت ذراعه الأيسر. وكان يرفع الطيور بذراعه اليمنى وينتف ريشها واحدًا واحدًا. كانت ريشاتها تسقط على الأرض بسنونها أولًا، مثقلات بنقاط الدم الصغيرة التي كانت ترتعش على أطرافها.

غربت الشمس قبل أن يبلغا المعسكر من جديد. ازدادت برودة الجو وكان تود سعيدًا بالنار. شاركته فاي مقعدها على الصندوق، ومال

كلاهما للأمام داخل دائرة الوهج.

جلب ميج إبريقًا من التكيلا من داخل الكوخ. ملأ برطمان زبدة فول سوداني لفاي، وناول الإبريق لتود. كان للشراب رائحة فاكهة عطنة، لكن أعجبه الطعم. وعندما بلغ كفايته، أخذ إيرل الإبريق ومن بعده ميج. وظلوا يمررونه من يد إلى يد.

حاول إيرل أن يُظهر لفاي كم كانت اللعبة قويةً، لكنها لم تكن لتنظر. أخرج أحشاء الطيور، وبدأ في تقطيعها إلى أرباع بمقص قصديري ثقيل. وضعت فاي يديها على أذنيها كي لا تسمع الطقطقة الهيِّنة الصادرة عن النصلين وهما يقطعان في اللحم والعظم. مسح إيرل القطع بخرقة وأسقطها في المقلاة الكبيرة حيث كانت قطعةً كبيرةً من دهن الخنزير تبقبق بالفعل.

بالرغم من تقززها ذاك كله، أكلت فاي بحماس لا يقل عن رفاقها الرجال. لم تكن هناك قهوة فأنهوا وجبتهم بالتكيلا. دخنوا وأبقوا الإبريق دائرًا. ألقت فاي برطمان زبدة الفول السوداني بعيدًا وشربت مثل الآخرين؛ قاذفةً رأسها إلى الوراء ومميلةً الإبريق.

كان باستطاعة تود أن يحس باستثارتها المتزايدة. كان الصندوق الذي يجلسان عليه صغيرًا جدًّا حتى أن ظهريهما تلامسا وكان بمقدوره أن يحس كم غدت ساخنة ومتململة. تحولت رقبتها ووجهها من اللون العاجي إلى اللون الوردي. وظلت تمد يدها لتسحب من سجائره.

كانت ملامح إيرل متواريةً في ظل قبعته الكبيرة، لكن المكسيكي جلس بأكمله في نور النار، توهجت بشرته ولمع الزيت في حلقات شعره

السوداء. ظل يبتسم لفاي بطريقة لم تعجب تود. وكلما شرب أكثر، كلما زاد نفوره من تلك الابتسامة.

ظلت فاي تزاحم تود، فترك الصندوق ليجلس على الأرض حيث كان بإمكانه أن يشاهدها بشكل أفضل. كانت تبادل المكسيكي الابتسام. بدت عارفة بما يفكر فيه وبدا عليها أنها تفكر في نفس الشيء. وغدا إيرل أيضًا واعيًا بما يحدث بينهما. سمعه تود يسب بصوت خفيض، ورآه يميل للأمام في النور، ويلتقط قطعة سميكة من الحطب.

ضحك ميج ضحكة شاعر بالذنب وبدأ يغني :

«النخيل يصرخ لغيابك

والبحيرة جفت – آي!

وسور الأسلاك الشائكة

الذي كان في الساحة سقط أيضا!»[٣٥].

كان صوته صادحًا حزينًا؛ أحال الأغنية الثورية إلى نواح عاطفي، حلو ومُتخِم. انضمت إليه فاي عندما بدأ مقطعًا آخر. لم تكن تعرف الكلمات، لكنها كانت قادرة على أن تساير اللحن وأن تتناغم معه.

«لأن أمي اعتنت بهم.. ياللخسارة!

كل شيء مضبوط.. آه!».

تلامس صوتاهما في الهواء الساكن الرقيق، ليشكلا نغمات متآلفة

(٣٥) بالإسبانية في الأصل.

من سُلَّم صغير، وكان الأمر كما لو كان جسداهما قد تلامسا. ومرَّةً أخرى تحولت الأغنية. ظل اللحن هو نفسه؛ لكن الإيقاع انقسم، وأصبحت وحداته غير منتظمة، لقد غدت «رومبا» الآن.

تململ إيرل بقلق وأخذ يلعب بعصاه. رآها تود تنظر إليه وأدرك أنها خائفة، ولكن بدلًا من أن تغدو حذرةً، تمادت أكثر في تهورها. أخذت جرعةً طويلةً من الإبريق وقامت واقفةً. وضعت يديها على ردفيها وبدأت في الرقص.

بدا على ميج أنه قد نسى إيرل تمامًا، صفق بيديه مُكوِّرًا إياهما ليصنعا صوتًا مجوفًا شبيهًا بالطبل، ووضع كل ما كان يحسه في صوته. كان قد تحول إلى أغنية أكثر ملاءمةً:

«زوجة توني

الأولاد في هافانا يعشقون زوجة توني...».

كانت فاي قد شبكت يديها خلف رأسها الآن وأخذت تلف فخذيها على الإيقاع المتكسر. كانت تؤدي رقصة الـ «بامب»[٣٦].

«زوجة توني

إنهم يتبارزون على زوجة توني».

ربما كان تود مخطئًا بشأن إيرل؛ فقد كان الآن يضرب بعصاه على ظهر المقلاة محاولًا أن يدق الإيقاع.

---

(٣٦) أو الخبطة: رقصة كانت شائعة خاصة في السبعينيات من القرن العشرين، وكانت حركتها الرئيسة هي خبط الفخذين ببعضهما كل عدة وحدات إيقاعية، ومع تقدم الرقصة تزداد الخبطات حميمية.

وقف المكسيكي، وهو ما زال يغني، وانضم إليها في الرقصة. كانا يقتربان من بعضهما بخطوات متبخترة قصيرة. كانت هي ترفع تنورتها وتفردها بإبهاميها وسبابتيها وكان هو يفعل نفس الشيء ببنطلونه. تلاقت رأساهما، الأسود الغطيس في مقابل الذهبي الباهت، واتخذا من رأسيهما محور ارتكاز، ثم رقصا ملتصقي الظهر وأردافهما متلامسة، ورُكبُهما مثنية ومتباعدة. وبينما كانت فاي تهز نهديها ورأسها، محتفظةً ببقيةً جسدها متصلبًا، كان هو يضرب الأرض الناعمة بقدميه ويدور حولها. تواجها مرةً أخرى وأعطيا الإيحاء بأنهما يهدهدان مؤخرتيهما في شال.

دق إيرل المقلاة بعنف أشد وأشد، حتى رنَّت مثل سندان. وفجأةً قفز واقفًا هو أيضًا وبدأ يرقص. أدى رقصة «هو داون»[٣٧] خرقاء؛ قفز في الهواء، ودق كعبيه ببعضهما. أطلق هتافًا عاليًا، لكنه لم يستطع أن يكون جزءًا من رقصتهما التي كان إيقاعها أشبه بحائط زجاجي أملس بينه وبينهما. ومهما هتف بصوت عالٍ أو ألقى بنفسه حولهما، لم يكن بمقدوره أن يعكر الدقة التي كانا بها يتراجعان ويتقدمان، ينفصلان ويلتقيان ثانية.

رأى تود الضربة قبل أن تقع. رأى إيرل يرفع عصاه ويهوي بها على رأس المكسيكي. سمع صوت التحطم ورأى المكسيكي يخر على ركبتيه وهو ما زال يرقص، وجسده غير راغب أو غير قادر على أن يقبل هذه المقاطعة.

كانت فاي مديرةً ظهرها لميج عندما سقط، لكنها لم تستدر لتنظر.

---

(٣٧) رقصة ريفية أمريكية تقوم على التباري بحركات سريعة بالأقدام.

جرت. مرقت من جوار تود. مد يده إلى كاحلها ليشدها أرضًا، لكنه أخطأها. وقف على قدميه بعد جهد وجرى خلفها.

لو أمسكها الآن لم تكن لتهرب. كان بإمكانه أن يسمعها على التل أمامه بمسافة صغيرة. هتف بها مخرجًا خوارًا عميقًا معذبًا أشبه بخوار كلب صيد عندما يكتشف خيطًا جديدًا بعد ساعات من التعقب البارد. كان بإمكانه بالفعل أن يشعر كيف سيكون الأمر عندما يشدها إلى الأرض.

لكن العدو كان ثقيلًا والحجارة والرمال كانت تتحرك تحت قدميه. سقط منكبًا على وجهه في كومة من الخردل لها رائحة المطر والشمس؛ نظيفة وطازجة وحادة. تدحرج منقلبًا على ظهره وحدَّق في السماء. كان الأداء العنيف قد أودى بمعظم السخونة من جسده، ولكن بقي به ما يكفي لجعله يشعر بوخز خفيف وسار. شعر باسترخِاء مريح، بل وبالسعادة.

في مكان ما أعلى التل بدأ طائر يغني. أنصت. في البداية بدت الموسيقى المنخفضة الثرية مثل ماء يتساقط على شيء مجوَّف، ربما قعر وعاء فضي، ثم مثل قوس مسحوب بهدوء على أوتار (هارب). رقد بهدوء ينصت.

عندما صمت الطائر، بذل تود جهده كي يبعد فاي عن باله، وبدأ يفكر في سلسلة الرسومات الكاريكاتورية التي كان يعدها من أجل لوحته «لوس أنجلوس تحترق». كان سيُظهر المدينة تحترق في ساعة الظهيرة، لذلك كان يجب أن تتنافس ألسنة اللهب مع الشمس الصحراوية ، وهكذا تبدو أقل ترويعًا، أقرب شبهًا بأعلام زاهية ترفرف فوق الأسطح

والنوافذ من أن تكون مَحرَقةً فظيعةً. كان يريد للمدينة أن تكون ذات أجواء احتفالية وهي تحترق، أن تبدو مبتهجةً على وجه التقريب. والناس الذين يحرقونها سيكونون حشود يوم عطلة.

بدأ الطائر يغني من جديد. وعندما توقف، كانت فاي قد نـُسيت وكان تود يتساءل فقط عما إذا لم يكن يبالغ في أهمية هؤلاء الناس الذين يأتون إلى هوليوود ليموتوا. لعلهم لم يكونوا بالفعل يائسين بما يكفي لحرق مدينة وحيدة، ناهيك عن بلد بأكملها. ربما كانوا فقط خلاصة مجانين أمريكا، وليسوا على الإطلاق متطابقين مع بقية الأرض.

قال لنفسه إن هذا لم يكن ليصنع أي فرق لأنه كان فنانًا وليس نبيًّا. ولم يكن عمله ليُحَاكـَم وفقًا للدقة التي يتنبأ بها بحادثة مستقبلية، وإنما وفقًا لجدارته كرسم. ومع ذلك، رفض أن يكف عن دور النبي أرميا [٣٨]. غيَّر «خلاصة مجانين أمريكا» إلى «قشدة» وشعر تقريبًا باليقين من أن اللبن الذي نُزعت منه كان غنيًّا كذلك بالعنف. سيكون هؤلاء (الأنجلوسينيون)[٣٩] هم البداية، لكن رفاقهم في كل أنحاء البلاد سيتبعونهم. وستكون حربًا أهليةً.

كان مستمتعا بذلك الشعور القوي بالرضا الذي منحته إيَّاه هذه

(٣٨) تدور النبوءات التي سجلها النبي أرميا في نحو القرن السادس (ق.م) حول ضرورة قبول دينونة الله التي لا مفر منها؛ لأن قبولها يُفضي إلى حياة جديدة. لقد عاش أرميا طوال الأربعين سنة الأخيرة من حياة مملكة يهوذا، وشاهد وعانى من هجوم الجيش الكلداني على أُورشليم ومملكة يهوذا، واستيلائه عليها، وسبي الشعب، ودمار الهيكل. كان قد أنذر وحذر الناس مما سيجري عليهم، وتوسل إليهم أن يرجعوا إلى الرب ويتخلوا عن آثامهم من غير جدوى. بل تعرض للمهانة والاحتقار والاضطهاد.

(٣٩) نسبة إلى لوس أنجلوس.

النهاية الرهيبة. هل كان كل أنبياء الهلاك والدمار رجالًا سعداء هكذا؟

قام واقفًا دون أن يحاول الإجابة. وعندما وصل إلى الطريق الترابي على قمة الوادي الضيق، كانت فاي والعربة قد ذهبتا.

* * *

١٥

«ذهبت إلى السينما مع هذا الشخص المدعو سيمبسون» أخبره هاري بذلك عندما ذهب ليراها في الليلة التالية.

جلس لينتظرها. كان العجوز مريضًا جدًّا وقد تمدد على السرير بحرص بالغ كما لو كان رفًّا ضيقا من المحتمل أن يسقط من عليه إذا تحرك.

«ماذا يصنعون في استديوهات شركتك؟» تساءل ببطء، وهو يدير عينيه نحو تود دون أن يزحزح رأسه.

«(المصير المحتوم) و(حلوة وحقيرة) و(ووترلو) و(الانقسام الكبير) و(أسألك الـ...)...».

«(الانقسام الكبير)...» قال هاري مقاطعًا بلهفة «إني أتذكر هذا العرض».

أدرك تود أنه ما كان ينبغي له أن يجعله يبدأ، لكن لم يكن هناك شيء باستطاعته أن يفعله الآن. كان لزامًا عليه أن يتركه يدور حتى يفرغ مثل الساعة.

«عند افتتاحه كنت ألعب دور (إرفينج) في نمرة صغيرة بعنوان (أدخل السيِّدين)، شيء تافه ولكن ممتع.. ممتع بحق. لعبت دوركوميدي يهودي، بمؤثرات (بن ويلش): قبعة رعاة البقر وبنطلونات كبيرة. – («بات .. لقد عرضوا عليَّ وظيفة في مغسلة النسر..» ... «أحقًّا يا إيكي؟ وهل قبلتها؟»... «لا .. ومن هذا الذي يريد أن يغسل النسور؟») – وكان جو بارفوس يعزف لي مباشرةً مرتديًا زيّ ضابط بوليس. حسنا، وفي الليلة التي افتتح فيها (الانقسام الكبير) كان جو نائمًا مع (قطة) في (الشارع الخامس) القديم عندما انفجر الموقد. وكان زوج المرأة هو الذي أطلق الصفارة. وكان...».

لم يفرغ، كان قد توقف وهو يعتصر جانبه الأيسر بكلتي يديه.

مال تود عليه بقلق.

«بعض الماء؟».

ضم هاري شفتيه ليرسم كلمة «لا»، ثم تأوه بمهارة. كانت آهة الفصل الثاني، آهةً زائفةً للغاية لدرجة أن تود اضطر لإخفاء ابتسامته. ومع ذلك لم يكن شحوب العجوز مصطنعًا.

تأوه هاري مرةً أخرى، مغيرًا طبقة صوته من الألم إلى الإنهاك، ثم أغلق عينيه. رأى تود كيف استطاع بمهارة أن يستخرج أقصى تأثير من بروفايله المعذَّب مستخدمًا الوسادة كسطح مناقض ليبرزه. ولاحظ أيضًا أن هاري، مثله في ذلك مثل ممثلين كثيرين، لديه قفا أو قمة صغيرة جدًّا لرأسه. تقريبًا كانت رأسه بأكملها وجهًا، مثل قناع، بتجاعيد عميقة بين العينين، وعبر الجبهة، وعلى جانبي الأنف والفم، شقتها هناك أعوام

من الابتسامات العريضة والتقطيب الثقيل. وبسببهم لم يكن باستطاعته أبدًا أن يعبر عن أي شيء برقة أو بدقة. فلم تكن تلك التجاعيد تسمح بتدرجات الإحساس، فقط الدرجات القصوى.

بدأ تود يتساءل عمَّا إذا لم يكن من المحتمل أن الممثلين يعانون أقل من بقية الناس. فكر في ذلك لوهلة، ثم قرر أنه كان مخطئًا. فالإحساس ينبع من القلب والأعصاب، وليس لفجاجة التعبير عنه أي علاقة بشدته. كان هاري يعاني بحدة مثل أي إنسان، بالرغم من مسرحية تأوهاته وتكشيراته.

بدا عليه أنه يستمتع بالألم، ولكن ليس كل أنواعه، بالتأكيد ليس بالمرض. مثل كثير من الناس كان يستمتع فقط بالنوع الذي تبتلي به النفس ذاتها. وكانت طريقته المفضلة هي تعرية روحه أمام الغرباء في الحانات. كان يتظاهر بالسكر، ويترنح متعثرًا حيث يجلس بعض الغرباء. وعادةً ما كان يبدأ بإلقاء قصيدة.

«دعوني أجلس للحظة

فلديّ حجر في حذائي

كنتُ ذات مرَّةً مبتهجًا وسعيدًا

كنتُ ذات مرَّةً شابًّا مثلكم»

فإذا صاح جمهوره: «انصرف أيها السكير!» كان فقط يبتسم بتواضع ويمضي مستمرًّا في فاصله التمثيلي:

«اشفقوا أيها الناس على شعري الأشيب».

كان يجب على النادل أو أي شخص آخر أن يوقفه بالقوة، وإلا سيستمر مهما قيل له. وإذا بدأ كان عادة كل من في الحانة يستمعون إليه، لأنه كان يقدم أداءً عظيمًا. كان يهدر ويهمس، يأمر ويتذلل. كان يقلد نشيج فتاة صغيرة تبكي طالبةً أمها التي اختفت، مثلما يقلد اللهجات المختلفة للمديرين القساة الكثيرين الذين عرفهم. بل كان يؤدي الأصوات الآتية من خارج خشبة المسرح، فيغرد مثل الطيور مُبشرًا بطلوع فجر الحب، ويعوي مثل حزمة من كلاب الصيد الدموية واصفًا كيف يطارده القدر الشرير للأبد.

كان يجعل جمهوره يراه وهو يبدأ في شبابه بلعب مسرحيات شكسبير في قاعة (مدرسة كامبريدج اللاتينية)، ممتلئًا بالأحلام المجيدة، مشتعلًا بالطموح. يتتبعونه، وهو ما زال مجرد غلام مراهق، وهو يموت جوعًا في بنسيون ببرودواي، شخص مثالي لا يرغب إلا في أن يقتسم فنه مع العالم. يقفون معه عندما، وهو في مطلع رجولته، تزوج من راقصة جميلة، تصدرت العناوين الرئيسة في زمن (جوس صن)[٤٠]. يقفون وراءه تمامًا عندما عاد إلى البيت ذات ليلة على غير المتوقع ليجدها في أحضان أحد كبار مرشدي الصالة. يسامحون، كما سامح، من منطلق طيبة قلبه وعظمة حبه. ثم يضحكون، متذوقين الغصة المريرة، عندما وجدها في الليلة التالية مباشرةً في أحضان موظف حجز التذاكر. مرةً أخرى سامحها، ومرةً أخرى أخطأت. حتى عندئذ لم يلقِ بها إلى الخارج، لا، رغم أنها سخرت منه وهزأت به، بل وضربته عدة مرات

(٤٠) **Gos Sun** (١٨٦٨ – ١٩٥٩): أحد مؤدي عروض الفودفيل، حاوٍ وموسيقي ومالك سلسلة مسارح باسمه فيما بعد.

بمظلة. لكنها هربت مع شخص أجنبي، مع أحد الحواة ببشرة داكنة. وخلفها تركت ذكريات وابنة رضيعة. كان يجعل جمهوره يراقبونه كظله والمصائب تأتي وراء بعضها، وهو رجل في منتصف العمر دائم التردد على مكاتب الحجز، مجرد شبح لذاته السابقة. هو الذي كان يأمل في أن يلعب أدوار هاملت، ولير، وعطيل، جعلته الحاجة يصبح (شركة) في نمرة اسمها (نات بلامستون وشركة)، ليست إلا نكات خفيفةً وثرثرةً فكهةً. كان يجعلهم يقتفون أثر خطاه المجرورة وهو رجل عجوز طاعن في السن ومرتعش، وهو...

دخلت فاي بهدوء. وثب تود واقفًا ليحييها، لكنها وضعت إصبعها على شفتيها ليصمت وتحركت نحو السرير.

كان العجوز نائمًا. فكر تود أن جلده الجاف البالي كان يشبه أرضيةً متآكلةً. لم تكن حبات العرق القليلة اللامعة على جبهته وصدغيه تحمل أي وعد بالراحة. يمكنها أن تتعفن، مثل مطر يأتي إلى حقل بعد فوات الأوان، ولكن لا يمكنها أبدًا أن تنعش.

خرج كلاهما على أطراف أصابعه من الحجرة.

في الصالة سألها إذا كانت قد قضت وقتًا جيدًا مع هومر.

«هذا البليد!» صاحت متعجبةً وهي تبدي وجه الامتعاض «إنه كالطبيخ المنزلي تمامًا!».

بدأ تود يسأل بعض أسئلة أخرى، لكنها صرفته بطريقة مقتضبة وفظة: «أنا متعبة يا حبيبي!».

١٦

بعد ظهر اليوم التالي كان تود في طريقه صاعدًا إلى حجرته عندما رأى حشدًا أمام باب شقة عائلة جرينر. كانوا في حالة من الانفعال ويتحدثون بالهمسات.

«ماذا حدث؟» سألهم.

«هاري مات».

عالج باب الشقة، لم يكن موصدًا، فدلف داخلًا. كان الجثمان متمددًا على السرير ومغطى بأكمله ببطانية. ومن حجرة فاي أتى صوت بكاء. طرق بلطف على بابها. فتحته له ثم استدارت دون أن تنطق بكلمة، ثم مضت متعثرةً إلى سريرها. كانت تنشج في منشفة وجه.

وقف في مدخل الباب دون أن يعرف ماذا يفعل أو يقول. وفي النهاية توجه إلى السرير وحاول أن يُهدئها. ربت على كتفها:

«أيتها الطفلة المسكينة!».

كانت ترتدي عباءةً فضفاضةً ورثّةً من الدانتيل الأسود بها مِزَق كبيرة. وعندما مال عليها لاحظ أن جلدها يفوح برائحة دافئة وحلوة، مثل

رائحة الحنطة السوداء في زهرتها.

استدار مبتعدًا وأشعل سيجارة. دق الباب، وعندما فتحه اندفعت ماري دوڤ متجاوزةً إياه لتأخذ فاي بين ذراعيها.

ماري بدورها قالت لفاي أن تكون شجاعة. لكنها صاغتها بطريقة مختلفة عمَّا قاله وجعلتها تبدو أكثر إقناعًا بكثير.

«أظهري بعض الشجاعة يا بنت! هيا الآن! أظهري بعض الشجاعة!»

دفعتها فاي بعيدًا وقامت واقفة. خطت بضع خطوات طائشة، ثم جلست على السرير ثانيةً.

«أنا قتلته» تأوهت قائلةً.

أنكر هو وماري ذلك بشكل مؤكد.

«أنا قتلته، أقول لكما! أنا قتلته! أنا قتلته!».

وبدأت تسب نفسها. أرادت ماري أن توقفها، لكن تود أخبرها ألا تفعل. كانت فاي قد بدأت تمثل، وشعر أنهما إذا لم يتدخلا فستتدبر مهربًا لنفسها.

«ستهدئ نفسها بالكلام» قال.

وبصوت مثقل بإدانة الذات بدأت تحكي ما حدث. كانت قد عادت إلى البيت من الاستديو، ووجدت هاري في السرير. سألته عن حاله، لكنها لم تنتظر ردًّا. وبدلًا من ذلك أدارت له ظهرها لتتفحص نفسها في مرآة الحائط. وبينما تصلح وجهها، أخبرته أنها قد رأت بِن ميرفي وأن بن قال إذا كان هاري يشعر بالتحسن فربما يمكنه استخدامه في عدة مشاهد

متوالية لاستديو باويري. اندهشت عندما لم يصرخ كعادته، كلما ذُكر اسم بن. كان يغار من بِن ودائمًا ما يصيح:

«إلى الجحيم بابن الزنا هذا! عرفته عندما كان ينظف المباصق في حانة للزنوج».

أدركت أنه لابد مريض للغاية. لم تلتفت لأنها لاحظت ما بدا مثل بداية بثرة. لم تكن إلا ذرة وسخ وأزالتها بمسحها، ولكنها اضطرت عندئذ إلى تجميل وجهها كله مرةً أخرى. وفيما هي تعمل في ذلك، أخبرته أنها يمكن أن تحصل على عمل كممثلة ثانوية بفستان لو كان لديها فستان سهرة جديد. وفقط لتمازحه اتخذت هيئةً صارمةً وقالت: «إذا لم يكن باستطاعتك أن تشتري لي فستان سهرة فسأجد شخصًا يستطيع».

ولمَّا لم يقل شيئًا انتابتها غضبة وبدأت تغني: «يا جيبرز كريبز». لم يأمرها أن تخرس، فعرفت أنه لا بد هناك خطأ ما. جرت على الفور إلى الأريكة. كان ميتًا.

بمجرد انتهائها من حكي كل هذا، بدأت تنشج بنغمة أكثر انخفاضًا، أقرب إلى الهديل، وهي تهتز إلى الأمام وإلى الخلف.

«بابا المسكين ... حبيبي المسكين!».

تلك المتعة التي اعتادا أن يحصلا عليها معًا عندما كانت صغيرة. فمهما بلغ به العوز والاحتياج؛ كان دائمًا ما يأتي لها بالعرائس والحلوى، ومهما نال منه التعب؛ كان دائمًا ما يلعب معها. تعودت الركوب على ظهره وهما يدوران على أرضية الشقة ويضحكان.. ويضحكان.

كانت نهنهات ماري قد جعلت فاي تزيد من سرعة نهنهاتها، وبدأتا هما الاثنتان تخرجان عن السيطرة.

كانت ثمة طرقة على الباب. لبَّاها تود، ووجد السيدة جونسون: البوَّابة. هزت له فاي رأسها حتى لا يسمح لها بالدخول.

«ارجعي فيما بعد» قال تود.

أغلق الباب في وجهها. بعد دقيقة انفتح الباب مرةً أخرى، ودخلت السيدة جونسون بجسارة. كانت قد استخدمت مفتاح الطوارئ.

«اخرجي!» قال.

حاولت أن تندفع متجاوزةً تود، لكنه أمسك بها حتى طلبت منه فاي أن يتركها.

كان يكره السيدة جونسون بشدة. كانت امرأةً فضوليةً مزعجةً، لها وجه يشبه التفاحة المخبوزة: ناعم ومليء بالبثور. وفيما بعد اكتشف أن هوايتها هي الجنازات. لم يكن انشغالها بها هوسًا، وإنما كان انشغالًا شكليًّا. فقد كانت مهتمةً بترتيب الزهور، بنظام الموكب، بملبس ووقار المعزِّين.

اتجهت مباشرةً إلى فاي، وأوقفت نهنهاتها بـ «والآن يا آنسة جرينر» صارمة!

كان في صوتها وسلوكها الكثير من السلطة والثقة، حتى إنها نجحت فيما فشل فيه تود وماري.

تطلعت إليها فاي باحترام.

«أولًا يا عزيزتي..» قالت السيدة جونسون وهي تعد رقم واحد بوضع إبهام يدها اليمنى على سبَّابة يدها اليسرى «أولًا أريدك أن تفهمي أن رغبتي الوحيدة في هذا الموضوع هي مساعدتك».

ونظرت بحدة إلى ماري، ثم إلى تود.

«أنا لا أحصل على أي شيء من هذا الموضوع ، وليس هناك غير الكثير من العناء».

«نعم» قالت فاي.

«حسنًا. هناك أشياء عديدة يجب أن أعرفها إذا كان لي أن أساعدك. هل ترك المرحوم أي نقود أو تأمين؟».

«لا».

«هل لديك أي نقود؟».

«لا».

«هل يمكنك اقتراض أي نقود؟».

«لا أعتقد هذا».

تنهدت السيدة جونسون.

«إذنْ ستضطر البلدية أن تدفنه».

لم تعلق فاي.

«ألا تفهمين يا صغيرتي؟ ستضطر البلدية إلى دفنه في مقبرة من مقابر الفقراء».

وضعت الكثير من الاحتقار في «البلدية» ، ومن الرعب في «الفقراء» حتى أن فاي احمرت، وبدأت تنشج من جديد.

تظاهرت السيدة جونسون أنها ستخرج، بل وأخذت عدة خطوات نحو الباب، ثم .. غيَّرت رأيها وعادت.

«كم تتكلف الجنازة؟» سألت فاي.

«مائتا دولار. لكن يمكنك الدفع بنظام التقسيط: خمسون دولارًا مقدمًا وخمسة وعشرون كل شهر».

تكلم ماري وتود كلاهما في نفس الوقت:

«سأحصل على النقود».

«لديّ بعض المال».

«هذا طيب..» قالت السيدة جونسون «وستحتاجين إلى خمسين أخرى على الأقل للنفقات الطارئة. سأبدأ وسأعتني بكل شيء. المعلم هولسيب سيدفن والدك. وسيقوم بذلك على أكمل وجه».

صافحت فاي وكأنها تهنئها، واندفعت خارجةً من الحجرة.

كان من الواضح أن محادثة السيدة جونسون العملية القصيرة قد منحت فاي بعض التحسن. فقد أصبحت شفتاها ثابتتين وعيناها جافتين.

«لا تقلقي ..» قال تود «يمكنني تدبير المال».

«لا شكرًا» قالت.

فتحت ماري حقيبة نقودها، وأخرجت لفة من الأوراق النقدية.

«ها هو بعض المال».

«لا» قالت وهي تدفعه بعيدًا.

جلست تفكر لفترة، ثم ذهبت إلى التسريحة، وبدأت تصلح من وجهها الذي لطخته الدموع. وضعت على وجهها ابتسامةً موجعةً وهي تعمل. وفجأة استدارت ممسكةً بإصبع أحمر الشفايف في الهواء، ووجهت حديثها إلى ماري.

«هل يمكنك مقابلتي بالسيدة چينينج؟».

«لماذا؟» تساءل تود «سأحصل على النقود».

كلتا الفتاتين تجاهلتاه.

«بالتأكيد..» قالت ماري «كان يجب أن تفعلي ذلك منذ زمن طويل. إنها لمسة ناعمة».

ضحكت فاي.

«كنت أدخرها».

كان التغير الذي اعتراهما قد جعل تود يجفل. فقد أصبحتا قاسيتين على حين غرة.

«عشان ولية زي الست دي. خليكي حلوة يا بت وسيبك من الكحيانين. سيبيه يركب حصان، ماهو كاوبوي.. مش كده؟».

ضحكتا بصوت عال، ودخلتا الحمَّام متعانقتين.

ظن تود أنه فهم تحولهما المفاجئ إلى اللهجة العاميَّة. كان ذلك

يجعلهما تشعران بأنهما أكثر واقعيةً واتصالًا بالحياة والناس، ومن ثمَّ أكثر قدرة على مجاراة الأمور الخطيرة.

طرق على باب الحمَّام.

«عايز إيه؟» زعقت فاي.

«اسمعي يا بنتي..» قال محاولًا تقليدهما «طب وليه وجع القلب؟ ما أنا ممكن أجيب خميرة كويسة».

«آه.. أيوه! لا متشكرين» قالت فاي.

«بس اسمعي...» بدأ مرةً أخرى.

«روح لف بكرشك شوف حد يشتريه!» صاحت ماري.

❊ ❊ ❊

١٧

في يوم جنازة هاري كان تود سكرانًا. لم يكن قد رأى فاي منذ أن انفلتت مع ماري دوف، لكنه كان يعرف أنه من المؤكد أن يلقاها في محل الحانوتي، وكان يريد أن يملك الشجاعة كي يتشاجر معها. بدأ الشرب بعد الغداء. وعندما وصل إلى محل هولسيب عند العصر كان قد تجاوز الحالة الشُّجاعة وأوغل في الحالة القبيحة.

وجد هاري في صندوقه، ينتظر أن يخرج على عجلات للعرض في المُصلَّى المُلاصق. كان التابوت مفتوحًا، وبدا الرجل العجوز مستكينًا إلى حد كبير. كان مرفوعًا إلى أعلى قليلًا من تحت كتفيه ومثنيًّا إلى الخلف؛ ليُظهر أن البطانة المتأنقة للتابوت كانت غطاء سرير من الساتان العاجي. تحت رأسه كانت هناك وسادة صغيرة من الدانتيلا. كان يرتدي حلة سهرة، أو على الأقل كان عليه بابيون أسود بقميصه المُنشَّى وياقته العريضة. كان وجهه قد حُلق حديثًا، ورُسمت حواجبه ونُتفت، ووُضع أحمر الشفاه على شفتيه وخديه. بدا مثل مُحاور في عرض منوعات كوميدي.

أحنى تود رأسه كما لو كان في صلاة صامتة عندما سمع شخصًا ما يدخل. ميَّز صوت السيدة جونسون، واستدار بحرص ليواجهها. تلاقت عيناهما وأومأ إليها، لكنها تجاهلته. كانت مشغولة مع رجل يرتدي معطف فراك سيئ التفصيل.

«إنه مبدأ الأمر..» قالت موبخة «قلت في تقديرك أنها ستكون من البرونز. هذه المقابض ليست من البرونز وأنت تعرف ذلك».

«لكني سألت الآنسة جرينر..» قال الرجل متشكيًا «وهي وافقت عليها».

«لا يهمني. إنني مندهشة منك، تحاول أن توفر بضعة دولارات ببيع طاقم من المقابض المصنوعة من معدن البنادق الرخيص إلى طفلة مسكينة».

لم ينتظر تود رد الحانوتي. كان قد رأى فاي تمر من الباب في ذراع واحدة من الأخوات لي. وعندما لحقها لم يعرف ماذا يقول. أخطأت فهم اضطرابه وأحست بالتأثر. فأخذت تنشج قليلًا من أجله.

لم تبدُ أبدًا أكثر جمالًا. كانت ترتدي فستانًا أسود جديدًا وضيقًا جدًّا، وكان شعرها الفاتح مرفوعًا إلى أعلى في كعكة لامعة تحت قبعة بحَّارة من القش الأسود. وكل هنيهة كانت ترفع منديلًا صغيرًا من الدانتيلا إلى عينيها وتجعله يرفّ هناك للحظة. لكن كل ما كان يفكر فيه هو أنها جنت المال اللازم لكل هذه التجهيزات بالنوم على ظهرها.

نما لديها إحساس بالقلق من نظرته المحدقة، وبدأت تتزحزح

مبتعدةً. فأمسك بذراعها.

«أيمكن أن أتحدث معك لدقيقة، وحدنا؟».

تلقت الآنسة لي الإشارة، وغادرت.

«ما الأمر؟» تساءلت فاي.

«ليس هنا..» همس صانعًا لغزًا من حالة ارتيابه.

قادها عبر الصالة حتى وجد حجرة عرض فارغةً. على الجدران كانت صور فوتوغرافية مؤطرة لجنازات ذات شأن، وعلى قوائم ومناضد صغيرة وُضعت عيِّنات لأقمشة الأكفان ونماذج من شواهد القبور والأضرحة.

لم يعرف ماذا يقول، فأكد بذلك ارتباكه، لاعبًا دور الأحمق غير المؤذي.

ابتسمت وغدت ودودةً تقريبًا.

«أفصح أيها الغبي الكبير!».

«قُبلة...».

«بالتأكيد يا صغيري...» ضحكت «بس ماتنعكشنيش».

تبادلا قبلةً سريعةً.

حاولت أن تبتعد، لكنه أمسك بها. انزعجت وطلبت تفسيرًا. فتش رأسه عن واحد، لكن لم تكن رأسه هي التي كان يجب عليه أن يفتشها.

كانت مائلةً نحوه، متدليةً قليلًا، ولكن ليس من تعب. كان قد رأى

أشجار بتولا صغيرة تتدلى هكذا في الظهيرة عندما ترزح تحت ثقل الشمس.

«أنت سكران» قالت وهي تدفعه بعيدًا.

«أرجوكِ!» قال متوسلًا.

«سيبني يا واطي!».

في سَوْرة غضبها عليه كانت ما زالت جميلة. هذا لأن جمالها كان شيئًا في تكوينها مثل جمال الشجرة، وليس خاصيَّة لعقلها أو لقلبها. ربما لهذا السبب لم يستطع حتى التعهر أن يدمره، ليس إلا التقدم في العمر أو الحوادث أو المرض من يمكنهم ذلك.

خلال دقيقة كانت ستصرخ طلبًا للنجدة. كان يجب عليه أن يقول شيئًا. لم تكن لتفهم الحجة الجمالية، وبأي قيم يمكنه أن يدعم الحجة الأخلاقية؟ ولم تكن الاقتصادية ذات معنى كذلك؛ فالعهر مربح بالتأكيد. نصف الثلاثين دولارًا التي يدفعها الزبون. قل عشرة رجال في الأسبوع.

رفست قصبتي ساقيه، لكنه استمر ممسكًا بها. فجأةً بدأ في التكلم، كان قد وجد حجة؛ فالمرض يمكن أن يدمر جمالها. كان يصرخ فيها مثل محاضر في جمعية الشبان المسيحيين حول الصحة الجنسية.

توقفت عن المجاهدة، وأحنت رأسها، وهي تنشج بشكل متقطع. عندما انتهى، أفلت ذراعها، وانطلقت هي من الحجرة كالسهم. تلمَّس طريقه إلى تابوت رخامي منقوش.

كان ما زال جالسًا هناك عندما دخل شاب ذو سترة سوداء وبنطلون

رمادي مخطط.

«هل أنت هنا لتحضر جنازة جرينر؟».

وقف تود، وأومأ برأسه بشكل مبهم.

«المراسم على وشك أن تبدأ» قال الشاب، ثم فتح تابوتًا صغيرًا مغطى بالساتان المضلَّع وأخرج قطعة قماش لمسح الغبار. راقبه تود وهو يدور في حجرة العرض ماسحًا العيِّنات.

«ربما قد تكون بدأت المراسم بالفعل» كرر الشاب وهو يلوِّح في اتجاه الباب.

استوعب تود الأمر هذه المرة، وغادر الحجرة. كان المخرج الوحيد الذي استطاع أن يجده يمر عبر المصلى. وفي اللحظة التي دخل فيها، أمسكت به السيدة جونسون ووجهته إلى مقعد. كان يريد بشدة أن يهرب، لكن كان من المستحيل أن يفعل ذلك دون فضيحة.

فاي كانت جالسةً في الصف الأمامي من الدكك، مواجهة المنبر. على جانبها الأخوات لي من ناحية ومن الناحية الأخرى ماري دوف وإيب كوزيتش. وخلفهم جلس ساكنو مبنى سان بردو شاغلين حوالي ستة صفوف. وكان تود وحده في السابع. بعده كان هناك العديد من الصفوف الفارغة، ثم مجموعة مبعثرة من الرجال والنساء الذين بدوا غرباء على المكان تمامًا.

استدار حتى لا يرى كتفي فاي المهتزين، وتفحص الناس في الصفوف الأخيرة. كان يعرف نوعيتهم؛ رغم أنهم أنفسهم ليسوا حاملي

مشاعل، إلا أنهم سيجرون خلف النار صانعين جلبةً هائلةً. كانوا قد أتوا ليروا هاري يُدفن، آملين في حدث درامي من نوع ما، آملين على الأقل في أن يُقاد أحد المعزين من المُصلى وهو يبكي بشكل هيستيري. بدا لتود أنهم بادلوه التحديق بتعبير من الضجر اللاذع الشرير الذي يراوح حد العنف. وعندما بدأوا يغمغمون فيما بينهم، قام بنصف استدارة، وأخذ يراقبهم من طرف عينه.

دخلت امرأة عجوز بوجه منزوع الشكل نتيجة لطاقم أسنان غير ملائم من ذلك النوع الذي يباع في المتاجر، وهمست لرجل يمتص مقبض عصا سير مصنوعة منزليًّا. مرر رسالتها بدوره فوقفوا جميعًا وخرجوا مسرعين. خمَّن تود أن أحد كشافيهم قد رأى نجمًا ما يدخل أحد المطاعم. إذا كان الأمر كذلك، فسينتظرون خارج المكان لساعات حتى يخرج النجم مرةً أخرى، أو حتى تبعدهم الشرطة.

بعد مغادرتهم على الفور، وصلت عائلة جينجو. كانت عائلة جينجو من الإسكيمو، وقد أُحضروا إلى هوليوود لعمل بعض التعديلات في فيلم عن الاستكشاف القطبي. ورغم أن الفيلم عُرض منذ فترة طويلة، إلا أنهم رفضوا العودة إلى ألاسكا. فقد أحبوا هوليوود.

كان هاري صديقًا جيدًا لهم، وكان يأكل معهم بانتظام كبير، مشاركًا إياهم في السلمون المدخن والسمك الأبيض، والرنجة المنقوعة في النبيذ والزيت والتوابل أو المطبوخة بعد نقعها في ذلك الخليط، والتي كانوا يشترونها من متاجر المـُشهيـَّات اليهودية. كان أيضًا يشاركهم الكميات الهائلة من البراندي الرخيص الذي كانوا يخلطونه بالماء

الساخن والزبدة المملحة ويشربونه في كؤوس من الصفيح.

سار كل من الأم والأب جينجو، وفي ذيلهما ولدهما، هابطين الممشى الأوسط للمصلى، وهما ينحنيان ويلوحان لكل واحد من الموجودين، حتى وصلوا إلى الصف الأمامي. وهنا التفوا حول فاي مسلَّمين عليها كل بدوره. حاولت السيدة جونسون أن تذهب بهم إلى أحد الصفوف الخلفية، لكنهم تجاهلوا أوامرها وجلسوا في المقدمة.

فجأةً خبت المصابيح المعلقة في سقف المُصلَّى، وفي وقت واحد أضيئت مصابيح أخرى خلف النوافذ المقلدة ذات الزجاج الملوَّن والتي عُلقت على الحوائط ذات ألواح البلوط المزيَّفة. مرت لحظة من الصمت المفروض لم تكسره إلا نهنهات فاي، ثم بدأ أورج إليكتروني في عزف تسجيل لأحد ترانيم باخ: «تعال أيها المنقذ، يا مخلِّصنا».

تعرف تود على الموسيقى؛ كانت أمه كثيرًا ما تعزف لحنها على البيانو في أيام الآحاد في البيت. كانت تلك الترنيمة تطلب من المسيح بأدب جم أن يأتي، في نغمات واضحة وصادقة مع القدر المناسب بالضبط من التضرع والابتهال. لم يكن الرب الذي تدعوه هو ملك الملوك، وإنما مسيح خجول ورقيق، عذراء محاطة بالعذراوات، والدعوة كانت إلى مهرجان في أحد المروج، وليس إلى بيت أحد الخطاة المتعبين المعذبين. لم تكن تترافع أو تلتمس عذرًا، بل كانت تحث بذوق وكياسة لا نهائيين، تقريبًا كما لو كانت تخشى أن تخيف الضيف المأمول.

حتى هذه اللحظة يمكن لتود أن يجزم أن لا أحد كان يستمع إلى الموسيقى. كانت فاي تنشج والآخرون بدوا منشغلين بدواخلهم. لم

تكن غزلية باخ المهذبة للمسيح تلائمهم.

كانت الموسيقى على وشك أن تغير من درجتها وتتزايد إثارتها. تساءل تود إذا ما كان ذلك سيصنع أي فارق. بالفعل كان الباص يبدأ النبر. لاحظ أن ذلك جعل عائلة الإسكيمو يتململون. وعندما بدأ الباص يزداد قوة ويهيمن على الطبقة الأعلى، سمع جينجو الأب يُشخّر بلذة. لمحت الأم جينجو السيدة جونسون ترمقه، فوضعت يدها السمينة على مؤخرة رأسه لتبقيه هادئًا.

«والآن تعال.. يا مخلصنا» توسلت الموسيقى. ذهب حياؤها ولم تعد مهذبةً، كان صراعها مع الباص قد غيرها. بل تسللت إليها لمحة من الوعيد وقليل من نفاد الصبر. ومع ذلك لم يمكنه أن يتبين أدنى أثر للشك.

فكر أنه إذا كانت هناك لمحة من وعيد ومقدار قليل من نفاد الصبر، هل يمكن أن يُلام باخ؟ غاية الأمر أنه عندما كتب هذه المقطوعة الموسيقية كان العالم قد ظل ينتظر حبيبه أكثر من ألف وسبعمائة عام. لكن الموسيقى تغيرت مرةً أخرى، واختفى كل من الوعيد ونفاد الصبر. حلقت الطبقة العالية حرةً ومنتصرةً ولم تعد طبقة الباص تجاهد لإبقائها تحتها. اتحدت الطبقتان في توافق ثري: «تعال أو لا تجئْ» بدت الموسيقى وكأنها تقول «أحبك وحبي كافٍ». كانت إقرارًا بسيطًا بالحقائق، لا بكاءً ولا تغنّيًا، يُقدَّم دون تكبُّر ولا ضِعَة.

ربما سمع المسيح، وإذا سمع فإنه لم يُعطِ أيّ علامة. لكن الحاضرين سمعوا؛ لأن تلك كانت إشارتهم كي يدوروا حول هاري في صندوقه.

تبعتهم السيدة جونسون عن قرب من خلفهم، واهتمت بأن يكون التابوت في مكانه المناسب. رفعت يدها وأُسكت باخ في منتصف جُملة.

«هلاَّ تقدّم من فضلكم هؤلاء الذين يأملون في رؤية المرحوم قبل إلقاء الموعظة؟» صاحت.

وقفت عائلة جينجو فقط على الفور، وتقدموا إلى التابوت جماعةً، حجزتهم السيدة جونسون وأشارت إلى فاي كي تنظر في البداية. مستندةً على ماري دوف والفتيات لي اختلست نظرةً سريعةً، وأسرعت من إيقاع نهنهاتها للحظة، ثم هرولت عائدةً إلى الدكة.

أخذت عائلة جينجو فرصتها بعد ذلك. مالوا على التابوت وتبادلوا حديثًا ما في سلسلة من الأصوات الحلقية الغليظة والمتفجرة. وعندما حاولوا أن يلقوا نظرةً أخرى قادتهم السيدة جونسون بحزم إلى مقاعدهم.

مشى القزم بجانبه حتى وصل إلى الصندوق، وتلاعب بمنديله وانسحب. وعندما لم يأتِ وراءه أحد فقدت السيدة جونسون صبرها، وبدا عليها أنها أخذت ما فهمته افتقارًا للاهتمام على أنه إهانة شخصية.

«هؤلاء الذين يودون أن يروا بقايا المرحوم السيد جرينر لابد أن يفعلوا ذلك على الفور» عوت قائلةً.

حدثت حركة صغيرة، لكن أحدا لم يقف.

«أنت يا سيدة جيل..» قالت أخيرًا وهي تنظر مباشرةً نحو المرأة صاحبة الاسم «ماذا عنكِ؟ ألا تريدين نظرة أخيرة؟ عمَّا قليل سيـُدفن كل ما تبقى من جارك للأبد».

لم يكن هناك مهرب من ذلك. تحركت السيدة جيل هابطةً الممشى وفي أثرها العديد من الآخرين.

وقد اتخذهم تود غطاء لهروبه.

* * *

١٨

رحلت فاي عن سان بِردو في اليوم التالي للجنازة. لم يعرف تود أين ذهبت، وكان يستجمع شجاعته كي يتصل بمدام چينينج عندما رآها من نافذة مكتبه. كانت ترتدي زي غسَّالة فرنسية من عصر نابليون. وخلال الوقت الذي استغرقه في فتح النافذة، كانت تقريبًا قد انعطفت عند زاوية المبنى. صاح فيها أن تنتظر، لوَّحت له، ولكن عندما نزل إلى أسفل كانت قد ذهبت.

من زيِّها أيقن أنها تعمل في الفيلم المدعو (ووترلو). سأل أحد رجال أمن الاستديوهات عن مكان الشركة التي تصور الفيلم، فأخبره أنها في استديو خلفهم. انطلق نحوه على الفور. مرت بجواره فصيلة من المدرعين؛ رجال ضخام يعتلون جيادًا عملاقةً. عرف أنهم لابد متوجهون إلى مكان التصوير نفسه، وتبعهم. فجأةً انطلقوا يعدون بخيولهم، وما هي إلا لحظات حتى وجدهم قد ابتعدوا عنه بمسافة كبيرة.

كانت الشمس ملتهبةً جدًّا. اختنقت عيناه وحلقه بالتراب الذي أثارته حوافر الخيل، وأخذ الدم يخفق في رأسه. بقعة الظل الوحيدة التي استطاع أن يجدها كانت تحت باخرة محيطات مصنوعة من قماش

(الكنفاه) الملوَّن، تتدلى من روافعها قوارب نجاة حقيقية. وقف في ظلها الضيق لوهلة، ثم استمر في سيره نحو تمثال ضخم لأبي الهول بارتفاع أربعين قدمًا مصنوع من عجائن الورق كان يلوح على البعد. كان عليه أن يعبر صحراء ليصل إليه، صحراء يتم توسيعها باستمرار عبر أسطول من الناقلات التي تفرغ فيها رمالًا بيضاء. لم يكد يمضي بضعة أقدام حتى أمره رجل بمكبر صوت أن يبتعد.

مشى على حافة الصحراء صانعًا دورةً واسعةً إلى اليمين، ووصل إلى شارع من شوارع الغرب الأمريكي برصيف من الألواح الخشبية. وفي شرفة «حانة الفرصة الأخيرة» كان هناك كرسي هزَّاز. جلس عليه، وأشعل سيجارةً.

من مجلسه ذاك كان بوسعه أن يرى تركيبًا دغليًّا به جاموسة مربوطة في جانب كوخ من الحشائش مخروطي الشكل. وكل بضعة ثوانٍ كانت الجاموسة تئن بطريقة مُنغَّمة. وفجأةً اندفع رجل عربي على فحل حصان أبيض. صاح تود في الرجل، لكنه لم يتلق ردًّا. بعد فترة وجيزة رأى ناقلةً محملةً بالجليد والعديد من كلاب ألاسكا التي تستخدم في جر الزحَّافات. صاح تود مرةً أخرى، رد عليه السائق صائحًا بشيء ما، لكنه لم يتوقف.

ألقى بسيجارته بعيدًا وهو يدخل من باب الحانة الدوَّار. لم يكن هناك ظهر للمبنى، ووجد نفسه في شارع باريسي. تتبعه حتى نهايته، خارجًا إلى ساحة رومانية. سمع أصواتًا على مسافة قريبة، فمشى نحوها. على مرج من الفيبر كانت هناك مجموعة من الرجال والنساء مرتدين ملابس

ركوب الخيل يتناولون طعام نزهتهم. كانوا يأكلون طعامًا كرتونيًّا أمام شلال ماء من السيلوفان. انطلق نحوهم ليسألهم عن الطريق، لكن أوقفه رجل عبس ورفع لافتة «سكوت من فضلكم.. ح نصوِّر». وعندما خطا تود خطوةً أخرى للأمام، هز الرجل قبضته متوعدًا.

بعد ذلك أتى إلى بركة صغيرة تطفو عليها بجعات كبار من السيليولويد. وعبر طرفها امتد جسر علقت عليه لافتة تقول «إلى كامب كومفيت». عبر الجسر وتتبع ممرًّا صغيرًا انتهى عند معبد إغريقي مخصص للإله إيروس. كان الإله نفسه ممددًا على وجهه في كومة من الزجاجات والجرائد القديمة.

من درجات المعبد كان بوسعه أن يرى على البعد طريقًا اصطفت على جانبيه أشجار حور من لومباردي. كان هو الطريق الذي فقد فيه أثر المدرعين. شق طريقه عبر شبكة كثيفة من الأغصان الشائكة، خلفيات ديكور قديمة وحديد خردة، تحفٌّ بهيكل منطاد زبلن، وسياج من خشب البامبو، وحصن من الطوب النيئ، وحصان طروادة الخشبي، وجزء من دَرَج قصر باروكي كانت درجاته تبدأ من قطعة أرض صغيرة مملوءة بالحشائش وتنتهي وسط أغصان شجرة بلوط، وجزء من المحطة العالية في «شارع ١٤»، وطاحونة هواء هولندية، وعظام ديناصور، والنصف العلوي من البارجة الحربية «ميريماك»[٤١]، وركن من معبد (مايي)[٤٢]،

(٤١) هناك عدة بوارج أمريكية حملت هذا الاسم عبر حروب مختلفة طوال القرنين التاسع عشر والعشرين.

(٤٢) نسبة إلى حضارة المايا التي نشأت في المكسيك بشكل أساسي من عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وحتى وصول الأسبان في القرن السادس عشر.

حتى وصل أخيرًا إلى الطريق.

انقطع نَفَسُه.. جلس تحت إحدى شجرات الحور على صخرة مصنوعة من الجص البُنيّ وخلع سترته. كان هناك نسيم لطيف يهب، وما هي إلا هنيهة حتى شعر بالتحسن والارتياح.

كان قد بدأ مؤخرًا يفكر ليس فقط في «جويا» و«دومييه»، ولكن أيضًا في فنانين إيطاليين بعينهم من القرنين السابع عشر والثامن عشر: «سلفاتور روسا»، «فرانشيسكو جاردي»، «مونسو ديزيدريو»؛ رسامو التحلل والغموض. ناظرًا من أعلى التل الآن، كان بمقدوره أن يرى تكوينات من الممكن بالفعل أن تكون مجهزةً من أعمال روسا في المرحلة الكالابرية [٤٣]: كانت هناك مبان محطمة جزئيًّا وآثار مكسورة، نصف مختبئة وراء أشجار هائلة مشوهة، التوت جذورها العارية بشكل دراماتيكي في الأرض القاحلة، وشجيرات لم تكن تحمل أزهارًا أو ثمارًا؛ بل ترسانات من الكلاّبات والمسامير الكبيرة والسيوف.

أمَّا بالنسبة لـ «جاردي» و«ديزيدريو» كانت هناك جسور لا تصل شيئًا بآخر، نحت في الأشجار، قصور تبدو مبنيةً من الرخام حتى يبدأ رواق أعمدة حجرية بأكمله في الرفرفة مع النسيم الخفيف. وكانت هناك شخوص كذلك. فعلى بعد مائة ياردة من مجلس تود كان رجل بقبعة يابسة ذات حواف مائلة يميل ناعسًا على المؤخرة المرتفعة والمطلية بالذهب لجندول فينيسي وهو يقشر تفاحةً. وأبعد منه أيضًا كانت هناك

(٤٣) نسبة إلى مقاطعة كالابري في جنوب إيطاليا.

عاملة نظافة على سلَّم نقـَّال تدعك بالماء والصابون وجه تمثال لبوذا ارتفاعه ثلاثون قدمًا.

غادر الطريق، وتسلق صاعدًا ظهر التل؛ لينظر من فوقه على الناحية الأخرى. ومن هناك كان بمقدوره أن يرى حقل عوسج مساحته عشرة أفدنة تتخلله أجام من عباد الشمس والصمغ البريّ. وفي وسط الحقل كانت هناك كومة هائلة من المعدات ولوحات الخلفيات والدعامات. وبينما هو يتفرج إذ بناقلة حمولتها عشرة أطنان تضيف حملًا آخر إلى تلك الكومة. كانت تلك الأرض هي آخر مقلب للنفايات. تذكر «بحر سارجاسو» لجانيفر(٤٤)؛ فمثلما كان ذاك الكيان المائي المُتخيَّل تاريخًا للحضارة في شكل مكبّ نفايات بحري، كانت الأرض المحيطة بالاستديو تاريخًا آخر في شكل مكبّ للأحلام.. «سارجاسو» للخيال! وكان هذا المكبّ ينمو باستمرار، فلم يكن هناك حلم طافٍ في مكان ما لن يظهر عليه عاجلًا أو آجلًا، بعد أن يُجعل فوتوغرافيًّا أولًا بالجص والكنفاه وألواح الخشب والألوان. مراكب كثيرة تغرق ولا تصل «سارجاسو» أبدًا، لكن أبدًا ليس هناك من حلم يختفي تمامًا. هو في مكان ما يُقلق شخصًا تعيسًا ما ، ويومًا ما عندما يكون هذا الشخص قد قلق بما فيه الكفاية سيُستنسخ هذا الحلم على أرض الاستديو.

عندما رأى تود وهجًا في السماء وسمع دمدمة المدافع، عرف أنه

(٤٤) «في بحر سارجاسو» رواية للأطفال كتبها القاص والمؤرخ الأمريكي «توماس آليبون جانيفر» عام ١٨٩٣.

لابد (ووترلو). ومن حول منعطف في الطريق خبَّت عدة أفواج من الفرسان. كانوا يرتدون خوذات ودروع صدر من ورق مقوى أسود اللون، ويحملون مسدسات خيول طويلة في جرابات سروجهم. كانوا جنود «فيكتور هوجو». كان قد عمل على بعض رسومات ملابسهم هو نفسه، متتبعًا بحرص أوصافها في رواية «البؤساء».

مضى في الاتجاه الذي أخذوه. وسرعان ما مرَّ به رجال «لوفيبر ديزنوتيه» [٤٥]، تبعهم فوج من الفرسان المدرعين النبلاء، والعديد من سريَّات سلاح حرس الفرسان، وفصيلة طائرة من حاملي الرماح الذين وصفهم «رامبو».

لابد أنهم يتقدمون نحو الهجوم المُدمِّر على «لا هايتي سانتي». لم يكن قد قرأ السيناريو، وتساءل إذا كانت قد أمطرت بالأمس. هل سيصل «جروشيه»[٤٦] و« بلوخر» [٤٧]؟ ربما غيَّر جروتينشتاين -المُنتِج- هذا.

كان صوت المدافع يعلو طوال الوقت، والمروحة الحمراء في السماء تغدو أكثر كثافةً. كان باستطاعته أن يشم الرائحة الحلوة والحرِّيفة للبارود الفارغ. ربما ينتهي الأمر قبل أن يصل إلى هناك. بدأ يجري. وعندما اعتلى تبَّةً بعد انعطافة حادة في الطريق، وجد سهلًا هائلًا أسفله مغطى بفرق عسكرية من أوائل القرن التاسع عشر، يرتدون كل البزَّات العسكرية

(٤٥) «شارل لوفيبر ديزنوتيه» (١٧٧٣ – ١٨٢٢): أحد جنرالات الفرسان في جيش نابليون، وهاجر فيما بعد إلى الولايات المتحدة.

(٤٦) «إيمانويل جروشيه» (١٧٦٦ – ١٨٤٧) مارشال فرنسي كان قائدًا لاحتياطي الفرسان في ووترلو.

(٤٧) «جيبهرد ليبيريجت فون بلوخر» (١٧٤٢ – ١٨١٩) فيلد مارشال بروسي، قاد جيشه ضد نابليون في معركة ووترلو.

الزاهية والمزخرفة التي طالما أسعدته كثيرًا عندما كان طفلًا، وكان يقضي ساعات طويلةً يتفرج على الجنود في قاموس قديم. وفي الطرف البعيد من الميدان كان باستطاعته أن يرى ربوةً هائلةً تجمَّع حولها الإنجليز وحلفاؤهم. كانت تلك الربوة هي «مونت سان جان»، وكانوا يستعدون للدفاع عنها بشجاعة. لم يكن الأمر قد انتهى تمامًا مع ذلك، وكان الميدان يعجّ بمسؤولي وعمال الديكور والملابس والنجارين والنقاشين.

وقف تود بجوار شجرة أوكالبتوس ليتفرج، متواريًا خلف لافتة كُتب عليها: «(ووترلو) ـ فيلم من إنتاج تشارلز هـ. جروتينشتاين». وعلى مقربة كان هناك شاب في ثوب سائس خيل ممزق بعناية يدربه أحد المخرجين المساعدين على سطوره.

«يعيش الإمبراطور!» هتف الشاب، ثم قبض على صدره وسقط على وجهه ميتًا. كان المخرج المساعد رجلًا من الصعب إرضاؤه وجعله يعيدها مرة وأخرى.

في وسط السهل كانت المعركة تدور بنشاط. بدا الأمر صعبًا على البريطانيين وحلفائهم. كان «أمير أورانج»[٤٨] قائد القلب، و«هيل»[٤٩] في الميمنة، و«بيكتون»[٥٠] في الميسرة مضغوطين بشدة من المحاربين الفرنسيين. كان الأمير اليائس والجسور في وضع لا يُحسد عليه بالمرَّة. سمعه تود يصرخ بصوت مبحوح أعلى من ضجيج

(٤٨) المقصود «ويليام الثاني» (١٧٩٢ – ١٨٤٩) والذي كان ملكًا لهولندا ودوق لكسمبورج وليمبورج.
(٤٩) الجنرال «رونالد هيل» (١٧٧٢ – ١٨٤٢) قائد الفيلق الثاني البريطاني في حرب ووترلو.
(٥٠) ليفتنانت جنرال «سير توماس بيكتون» (١٧٥٨ – ١٨١٥) ضابط إنجليزي من ويلز، قاد ميسرة الجيش في ووترلو، وقتل في المعركة.

المعركة هاتفًا بالهولنديين – البلجيك: «يا ناسو[٥١]! يا برونزويك! لا تنسحبوا أبدا!» ومع ذلك بدأ الانسحاب. وانسحب «هيل» أيضًا. وقتل الفرنسيون الجنرال «بيكتون» برصاصة في رأسه وقفل عائدًا إلى حجرة تغيير ملابسه. جُرح أولتين[٥٢] بشدة وانسحب كذلك. سقط لواء كتيبة لونينبرج[٥٣] ـ الذي كان يحمله أمير من أسرة «دو بونت»[٥٤] ـ في يد نجمٍ طفل شهير يرتدي زيّ عازف طبول باريسي صبيّ. كان «الرماديون الاسكتلنديون» قد دُمروا ومضوا ليغيروا ملابسهم بأخرى. كذلك تشرذم فرسان «بونسونبي»[٥٥] المدرعون. من المؤكد أن السيد جروتينشتاين سيكون لديه فاتورة كبيرة يجب أن يسددها لـ (شركة الأزياء الغربية).

لم يظهر للعيان نابليون ولا ويلينجتون. وفي غيبة ويلينجتون كان السيد «كرين» –أحد المخرجين المساعدين– قائدًا للحلفاء. عزز قلبه بإحدى فرق «شاسي»[٥٦] وفرقة من فرق «وينك». ودعمهما بمشاة من برونزويك، ومشاة ويلز، والحرس الوطني من «ديفون»[٥٧] والفرسان

(٥١) «ناسو» كانت مقاطعة ألمانية أثناء الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وانضمت فيما بعد إلى الكونفيدرالية الألمانية.

(٥٢) «سير تشارلز أولتين» (١٧٦٤ – ١٨٤٠) قاد الفرقة الثالثة في ووترلو، وأبلى بلاء حسنًا، استحق عليه لقب كونت فون أولتين.

(٥٣) «لونينبرج» مدينة وإقليم في ألمانيا.

(٥٤) «دو بونت» أي الجسران بالفرنسية، وهو الاسم الفرنسي لمدينة «زويبروكين» الألمانية الواقعة على نهر «شوارزباخ».

(٥٥) «سير ويليام بونسونبي» (١٧٧٢ – ١٨١٥) سياسي وعسكري بريطاني من أصل أيرلندي، قُتل في ووترلو.

(٥٦) «ديفيد هندريك» بارون شاسي (١٧٦٥ – ١٨٤٩) عسكري هولندي، حارب مع وضد نابليون، وقاد الفرقة الثالثة الهولندية التي تدخلت في لحظة حرجة أثناء حرب ووترلو.

(٥٧) «ديفون» مقاطعة كبيرة في جنوب غربي إنجلترا.

ذوي التسليح الخفيف من هانوفر بقبعاتهم الجلدية المستطيلة ذات الرياش المتدلية المصنوعة من أعراف الخيل.

أما عن الفرنسيين، كان هناك رجل بقبعة كاروهات يأمر مدرعي «ميلهود»[٥٨] أن يحملوا «مونت سان جان». بسيوفهم بين أسنانهم ومسدساتهم في أيديهم هجموا على الربوة. كان منظرًا مخيفًا.

كان الرجل ذو القبعة الكاروهات يرتكب خطأً قاتلًا. فلم تكن ربوة «مونت سان جان» قد تم الانتهاء منها. لم يكن الدهان قد جف بعد والدعامات جميعها لم تكن في مكانها. وبسبب كثافة دخان المدافع فشل في أن يرى أن التل ما زال يعمل به رجال الديكور والنجارون.

أدرك تود أنه الخطأ الكلاسيكي؛ نفس الخطأ الذي ارتكبه نابليون. بيد أنه كان خطأً لسبب مختلف. فقد أمر الإمبراطور الفرسان المدرعين بالهجوم على «مونت سان جان» وهو لا يعلم أن خندقًا عميقًا مخبأً أسفله ليوقع فرسانه الثقال في فخه. وكانت النتيجة كارثة للفرنسيين؛ بداية النهاية.

أما هذه المرة فكان لنفس الخطأ ناتج مختلف. فبدلًا من أن تكون ووترلو نهاية لـ «الجيش العظيم»[٥٩]، لم ينتج عنها سوى تعادل. لم يكسب أيّ من الفريقين، وأصبح لزامًا خوضها مرةً أخرى في اليوم التالي. لكن شركة التأمين تحملت خسائر كبيرة كتعويض للعمال. أرسل السيد جروتينشتاين بالرجل ذي القبعة الكاروهات إلى الدرك الأسفل بالضبط،

(٥٨) «ميلهود» كوميونة (أصغر وحدات التقسيم الإداري في فرنسا) في جنوب فرنسا.
(٥٩) لقب أطلقه نابليون على الجيش الفرنسي.

كما أُرسل نابليون إلى سانت هيلانه.

عندما رفع الصف الأمامي من فرقة «ميلهود» الثقيلة جانب «مونت سان جان»، انهار التل. كان الصوت رهيبًا. صرخت المسامير معذَّبةً وهي تنخلع من العوارض. وكان صوت قماش الكنفاه الممزق أشبه بصوت أطفال صغار ينشجون. انقطمت ألواح وقطع الخشب كما لو كانت عظامًا هشةً. انطوى التل بأكمله كما لو كان مظلةً هائلةً، وغطى جيش نابليون بالقماش الملوَّن.

انقلب الأمر إلى حالة من الهرجلة والشغب. ولَّى المنتصرون من بيرسينا وليبزيج وأوسترليتز هاربين مثل تلاميذ قد كسروا لوحًا من الزجاج. صرخوا «ما يمكن إنقاذه!»[٦٠] أو ربما «اهربوا على وجه السرعة!».

كان جنود إنجلترا وحلفاؤها منغمسين تمامًا في المشهد، فلم يستطيعوا الهروب. كان يجب عليهم أن ينتظروا حتى يأتي النجارون وعربات الإسعاف. رُفع رجال «اللواء الخامس والسبعين من مرتفعات أسكتلندا» الجَسور من الحطام بالبكرات والحبال. وضعهم حاملو النقالات على عربات جر ومضوا بهم، وهم ما زالوا متشبثين في بطولة بسيوفهم العريضة ذات الحدَّين.

❊ ❊ ❊

(٦٠) بالفرنسية في الأصل.

١٩

استقل تود عربة من عربات الاستوديو عائدًا إلى مكتبه. اضطر إلى الركوب جالسًا على دوَّاسة العربة؛ لأن المقاعد كانت مشغولة باثنين من رماة القنابل الوولونيين[٦١] وأربعة من المشاة السوابيين[٦٢]. واحد من جنود المشاة انكسرت رجله، أما بقية الكومبارس فقد أصيبوا بخدوش وكدمات فقط . كانوا سعداء إلى حد كبير بجروحهم؛ فقد كانوا متأكدين من حصولهم على أجر إضافي لعدة أيام، أما الرجل ذو الساق المكسورة فاعتقد أنه ربما سيحصل على ما لا يقل عن خمسمائة دولار.

عندما وصل تود إلى مكتبه وجد فاي منتظرةً لتراه. لم تكن في المعركة؛ ففي اللحظة الأخيرة قرر المخرج ألا يستخدم أيّ مُسعفات أو عاملات مقصف.

لدهشته، سلَّمت عليه فاي بمودة دافئة. ومع ذلك، حاول أن يعتذر عن سلوكه في دار الجنازة. لم يكد يبدأ حتى قاطعته، لم تكن غاضبةً، بل ممتنةً لمحاضرته عن الأمراض التناسلية.. فقد ردتها إلى وعيها.

---

(٦١) «وولونيا» الإقليم الجنوبي من بلجيكا المتحدث بالفرنسية.

(٦٢) «سوابيا» إقليم تاريخي في ألمانيا.

كانت ما زالت لديها مفاجأة أخرى له. فقد كانت تعيش في بيت هومر سيمبسون. وكان الاتفاق بينهما اتفاق عمل؛ فقد وافق هومر على أن يؤويها ويطعمها ويكسوها حتى تصبح نجمةً. وكانا يحتفظان بسجل فيه كل سنت أنفقه، وبمجرد أن يعلو نجمها في عالم السينما سترد له ماله مع فائدة قدرها ستة في المائة. وليجعلا الاتفاق قانونيًّا بمعنى الكلمة فسيأتيا بمحامٍ ليسجل عقدًا.

ألحت في طلب رأي تود، وقال إنها فكرة رائعة. شكرته، ودعته إلى العشاء في الليلة التالية.

بعد أن ذهبت، تساءل عمّا سيفعله العيش معها لهومر. فكر أن ذلك ربما يصلب عوده. تحايل على نفسه كي تصدق ذلك بصورة متخيلة؛ كما لو كان المرء قطعةً من الحديد تُسخن، ومن ثمَّ تُقوَّم بضربات المطرقة. كان ينبغي عليه أن يعرف أفضل من ذلك، لأنه إذا كان هناك من امرئ يفتقر إلى الطواعية للطرق، فهو هومر.

استمر في ارتكاب هذا الخطأ وهو يتناول العشاء معهما. بدت فاي سعيدةً جدًّا، وهي تتحدث عن عقود البيع بالتقسيط وموظفي المبيعات الأغبياء. كان هومر يضع وردةً في عروة سترته، ويرتدي خفًّا منزليًّا ويبتسم مبتهجًا لها باستمرار.

بعد أن أكلوا، وبينما كان هومر في المطبخ يغسل الأطباق، جعلها تود تخبره بما يفعلانه بنفسيهما طوال اليوم. قالت إنهما يعيشان بهدوء، وإنها سعيدة لأنها تعبت من الإثارة. كل ما كانت تريده هو مستقبل عملي. كان هومر يؤدي أعمال المنزل، وهي تحصل على راحة حقيقية. كان مرض

بابا الطويل قد أضناها تمامًا. وكان هومر يحب أعمال المنزل، وعلى أي حال هو لم يكن ليدعها تدخل المطبخ بسبب يديها.

«إنه يحمي استثماره» قال تود.

«نعم ..» ردت بجدية «يجب أن تكونا جميلتين».

ثم تابعت.. كانا يتناولان الإفطار في حوالي العاشرة، وكان هومر يأتي به إلى سريرها. اشترك في مجلة معنية بشئون البيت، وكان يُعد الصينية على مثال صورها. وبينما هي تستحم وتلبس، كان هو يقوم بتنظيف البيت. ثم كانا ينزلان إلى متاجر وسط البلد حيث كانت تشتري كل أنواع الأشياء، في الأغلب الملابس. كانا لا يتناولان الغداء بسبب الحفاظ على قوامها، لكنهما عادةً ما كانا يتناولان العشاء في الخارج، ويذهبان إلى السينما.

«ثم صودا بالآيس كريم» أكمل هومر لها، وهو يخرج من المطبخ.

ضحكت فاي واستأذنت منهما؛ كانوا ذاهبين إلى السينما، وأرادت أن تغير ملابسها. وعندما غادرت، اقترح هومر أن يخرجا للهواء في الفناء. جعل تود يأخذ كرسي البحر، بينما جلس هو على قفص برتقال مقلوب.

لم يستطع تود أن يتجنب التفكير في أنه لو كان حريصًا وتصرَّف بلياقة، فلعلها كانت تعيش معه الآن. فهو على الأقل كان أفضل شكلًا من هومر. لكن يظل هناك شرطها الآخر. فقد كان لدى هومر دخل مادي، وكان يعيش في منزل مستقل، بينما هو يكسب ثلاثين دولارًا في الأسبوع، ويعيش في حجرة مفروشة.

جعلته الابتسامة السعيدة على وجه هومر يشعر بالخجل من نفسه؛ فهو بذلك يكون ظالمًا. لقد كان هومر رجلًا متواضعًا شكورًا لن يخدعها أبدًا، بل إنه غير قادر على خداع أي شيء. وبسبب هذه الميزة العظيمة، كان بإمكانها أن تعيش معه فيما اعتبرته طائرة أرقى بكثير.

«ما الأمر؟» سأله هومر برقة وهو يضع إحدى يديه الثقيلتين على ركبة تود.

«لا شيء. لماذا؟».

تحرك تود حتى تنزلق اليد من عليه.

«كنت تعوج قسمات وجهك».

«كنت أفكر في شيء».

«أوه..» قال هومر متعاطفًا.

لم يستطع تود مقاومة أن يسأل سؤالًا قبيحًا.

«متى ستتزوجان؟».

بدا هومر متأذيًا.

«ألم تخبرك فاي عنا؟».

«بلى.. بعض الشيء».

«إنه اتفاق عمل».

«نعم؟».

وكي يجعل تود يقتنع بالأمر، سكب على مسامعه مجادلة طويلة

مفككةً، المجادلة التي لابد وأنه استخدمها مع نفسه. بل إنه تمادى مُتزيِّدًا على الجزء المادي، وزعم أنهما كانا يقومان بالأمر من أجل خاطر هاري المسكين. فلم يبق لفاي أيّ شيء في العالم ما عدا مستقبلها المهني، ولابد أن تنجح من أجل خاطر (باباها). والسبب في أنها ليست نجمة، هو أنها لا تمتلك الملابس اللائقة. وهو يمتلك النقود ويؤمن بموهبتها، لذلك كان فقط من الطبيعي بالنسبة لهما أن يدخلا في اتفاق عملي. وهل يعرف تود محاميًا جيدًا؟

كان سؤالًا بلاغيًّا منمقًا، لكنه كان ليصبح سؤالًا فعليًّا، ومُلِّحًا بشدة، لو ابتسم تود. لكنه عبس، وكان هذا خطأً أيضًا.

«يجب أن نرى محاميًا هذا الأسبوع ونسجل الأوراق».

كان تلهفه محزنًا. أراد تود أن يساعده، لكنه لم يعرف ماذا عليه أن يقول. كان ما زال يتحسس طريقه بحثًا عن إجابة عندما سمعا امرأة تصيح من التل الواقع خلف الجراج.

«آدور! آدور!».

كان لها صوت سوبرانو عال، واضح جدًّا ونقي.

«ياله من اسم عجيب!»[٦٣] قال تود سعيدًا بتغيير الموضوع.

«ربما كان اسمًا أجنبيًّا» قال هومر.

دخلت المرأة إلى الفناء قادمة من خلف زاوية الجراج. كانت متلهفةً وممتلئة الجسم وأمريكيةً جدًّا.

---

(٦٣) «adore» بالإنجليزية تعني: يعشق، يعبد، يهيم عشقًا.

«هل رأيتما ولدي الصغير؟» تساءلت مُبديَّة إيماءة عجز «إن آدور كثير التجوال».

أدهش هومر تود عندما قام واقفًا ومبتسمًا للسيدة. بالتأكيد ساعدته فاي على جبنه.

«هل ابنك مفقود؟» قال هومر.

«أوه لا ـ إنه مختبئ فقط ليغيظني».

ومدت يدها.

«نحن جيران. أنا مايبيل لوميس».

«سعيد بمعرفتك يا سيدتي. أنا هومر سيمبسون، وذاك السيد هاكيت».

سلَّم عليها تود كذلك.

«هل تعيش هنا منذ فترة طويلة؟» تساءلت.

«لا. لقد أتيت للتوّ من الشرق» قال هومر.

«أوه، أهكذا؟ أنا أعيش هنا منذ أن توفي السيد لوميس منذ ست سنوات. أنا مستوطنة قديمة».

«أنتِ تحبينها إذنْ؟» سألها تود.

«أحب كاليفورنيا؟» ضحكت على فكرة أنه من الممكن أن يوجد إنسان لا يحبها «ياللعجب.. إنها جنة على الأرض!».

«نعم» وافقها هومر بوقار.

«وعلى أيّ حال..» تابعت «يجب عليّ أن أعيش هنا من أجل آدور».

«أهو مريض؟».

«أوه، لا. من أجل مستقبله العملي. إن وكيله يدعوه بأكبر فتنة صغيرة في هوليوود».

تحدثت بحماس متوقد حتى أن هومر جفل.

«أيعمل في الأفلام؟» تساءل تود.

«بالطبع» ردت بحدة.

حاول تود أن يسترضيها.

«هذا لطيف جدًّا».

«ولولا المحسوبية..» قالت بمرارة «لكان نجمًا. الموضوع ليس في الموهبة؛ بل في النفوذ. ماذا تملك شيرلي تيمبل ولا يملكه هو؟».

«عجبا! لا أعرف..» تمتم هومر.

تجاهلت عبارته تلك وأطلقت زعقةً مخيفةً.

«آدور! آدور!».

كان تود قد رأى أناسًا من على شاكلتها حول الاستوديو. فهي واحدة من ذلك الجيش من النساء اللاتي يسحبن أطفالهن من مكتب اختيار ممثلين لآخر ويجلسن بالساعات، والأسابيع، والشهور، منتظرات الفرصة ليعرضن ما يمكن للصغير أن يفعله. بعضهن فقيرات للغاية، ولكن مهما كان فقرهن يمكنهن دائمًا أن يضيقن على أنفسهن حتى يجمعن مالًا كافيًا، عادة بتقديم تضحيات كبيرة، كي يرسلن أطفالهن إلى إحدى مدارس المواهب التي لا تُعد ولا تُحصى.

«آدور!» صرخت مرةً أخرى، ثم ضحكت وعادت ربة منزل ودودة من جديد؛ امرأة عادية ريَّانة الجسد بغمَّازات في خديها السمينين وكوعيها الممتلئين.

«هل لديك أطفال يا سيد سيمبسون؟» سألت.

«لا..» أجاب مُحمرّ الوجه.

«أنت محظوظ.. إنهم مصدر إزعاج».

ضحكت لتظهر أنها لا تقصد ذلك حقيقةً، ونادت طفلها مرةً أخرى.

«آدور... أوه، آدور...».

سؤالها التالي أذهلهما كليهما.

«مَن تتبعان؟».

«ماذا؟» قال تود.

«أقصد .. في البحث عن الصحة ، على طول طريق الحياة».

فغر الاثنان فميهما في مواجهتها.

«أنا عن نفسي من آكلي الطعام النيئ..» قالت «ودكتور بيرس هو قائدنا. لابد وأنكما رأيتما إعلاناته -(بيرس للجميع.. يعرف الجميع)».

«أوه ، نعم..» قال تود «أنتم نباتيون».

ضحكت من جهله.

«أبعد ما نكون عن ذلك. نحن أكثر صرامةً بكثير. النباتيون يأكلون الخضراوات مطبوخةً، ونحن نأكل الخضراوات النيئة فقط. إن الموت

يأتي من أكل الأشياء الميتة».

لم يجد تود ولا هومر شيئًا يقولانه.

«آدور..» بدأت مرةً أخرى «آدور...».

هذه المرة أتاها الرد من خلف زاوية الجراج.

«ها أنا ذا يا ماما».

بعد دقيقة ظهر ولد صغير يسحب وراءه مركبًا شراعيًّا صغيرًا على عجلات. كان في حوالي الثامنة من عمره، بوجه شاحب وناتئ العظام، وجبهة عريضة متوترة. كانت له عينان محدقتان بشدة، وقد نُتف حاجباه ورُسما بعناية. وباستثناء ياقة «باستر براون»[٦٤] كان يلبس كرجل، ببنطلون طويل وصديري و جاكت.

حاول أن يقبِّل أمه، لكنها صدته، وشدت ملابسه، لتعدلها وترتبها بجذبات صغيرة فظة.

«آدور...» قالت بصرامة «أريدك أن تتعرف على السيد سيمبسون جارنا».

استدار مثل جندي ينفذ أمرًا من شاويش التدريب، ومشى إلى هومر، وقبض على يده.

«ليَّ السرور يا سيدي» قالها وهو ينحني بعنف ضامًّا كعبيه.

«هذه هي الطريقة التي يُحيُّون بها في أوروبا» ابتسمت السيدة لوميس

---

(٦٤) **Buster Brown**: شخصية من شخصيات القصص المصورة لولد مولع بالأذى، رسمها «ريتشارد فيلتون أوتكولت» عام ١٩٠٢.

مبتهجةً «أليس جذَّابًا؟».

«يا له من مركب شراعي جميل!» قال هومر محاولًا أن يبدو ودودًا.

تجاهل كل من الأم والابن تعليقه. أشارت إلى تود وكرر الطفل الانحناءة وخبطة الكعب.

«حسنًا، يجب أن نذهب» قالت.

راقب تود الطفل الذي كان واقفًا متواريًا قليلًا إلى جانب أمه يُلِّعب ملامح وجهه ليغيظ هومر. قلب جفونه إلى الخلف حتى لا يبدو من عينيه إلا بياضهما، ولوى شفتيه مقطبًا إيَّاهما.

لاحظت السيدة لوميس نظرة تود واستدارت بحدَّة. وعندما رأت ما كان يفعله آدور، اقتلعته من ذراعه وجذبته رافعة إيَّاه من على الأرض.

«آدور!» صرخت .

وإلى تود قالت معتذرةً: «إنه يعتقد أنه الوحش فرانكشتاين».

رفعت الولد إليها تضمه وتقبِّله بحماس. ثم أنزلته ثانية وأصلحت ملابسه التي تجعدت.

«ألن يغني آدور شيئًا لنا؟» تساءل تود.

«لا» قال الولد الصغير بحدَّة.

«آدور..» عنَّفته أمه «غنِّ فورًا».

«لا بأس، إذا كان لا يشعر بالرغبة في ذلك» قال هومر.

لكن السيدة لوميس كانت مصرةً على أن تجعله يغني. فلم تكن

لتسمح له أبدًا أن يرفض جمهورًا.

«غنِّ يا آدور» قالت مرةً أخرى بتهديد هادئ «غنِّ (ماما «دوان» لا تريد بازلاء)».

ارتعش كتفاه كما لو كانا قد شعرا بالفعل بحزام الكتف. أمال قبعة البحَّار المصنوعة من القش على إحدى عينيه، وزرر سترته وتبختر قليلًا، ثم بدأ:

«ماما دوان لا تريد بازلاء

ولا أرزًا، ولا زيت جوز الهند

فقط زجاجة براندي في متناول يدها طوال اليوم

ماما دوان لا تريد بازلاء

ماما دوان لا تريد زيت جوز الهند..».

كان صوته في الغناء عميقًا وخشنًا، وكان يستخدم الآهات المتكسرة لمغني البلوز بخبرة جيدة. لم يكن يحرك جسمه إلا قليلًا، مخالفًا أكثر منه متوافقًا مع الموسيقى. وكانت الإيماءات التي يصنعها بيديه موحية للغاية.

«ماما دوان لا تريد خمر الچن

لأن الچن يجعلها ترتكب الخطيئة

ماما دوان لا تريد كأسًا من الچن

لأنه من المؤكد سيجعلها ترتكب الخطيئة

وسيجعلها ساخنةً ومتضايقةً طوال اليوم».

بدا عارفًا ما تعنيه الكلمات، أو على الأقل بدا جسده وصوته عارفين. وعندما وصل إلى اللازمة الأخيرة، تلوى ردفاه وحمل صوته حمولةً زائدةً من الألم الشبِق.

صفق تود وهومر. جذب آدور خيط مركبه الشراعي ودار به في الفناء. كان يقلد مركب السَّحْب. زعق «تووووت» عدة مرات، ثم جرى حتى اختفى.

«إنه مجرد طفل..» قالت السيدة لوميس بفخر «لكنه يملك الكثير من الموهبة».

وافقها تود وهومر.

أدركت أنه ذهب مرةً أخرى، وغادرت متعجلةً. كان بإمكانهما أن يسمعاها تنادي في الدغل خلف الجراج.

«آدور! آدور...».

«إنها امرأة عجيبة» قال تود.

تنهد هومر.

«أعتقد أنه من الصعب الحصول على فرصة أولى في السينما. لكن فاي جميلة بشكل رهيب».

وافقه تود. وبعد لحظة ظهرت فاي في فستان جديد منقوش بالزهور وقبعة ساحرة، وجاء دور تود ليتنهد. كانت أكثر بكثير من جميلة. اعتدلت في وقفتها، مهتزةً ومتوازنةً، على عتبة الباب ونظرت من علٍ إلى الرجلين

في الفناء. كانت تبتسم نصف ابتسامة رقيقة لا يشوبها فكر. بدت مولودةً للتوّ؛ كل شيء فيها رطب ونضر، خفيف ومعطَّر. أصبح تود فجأةً واعيًا للغاية بقدميه البليدتين عديمتي الإحساس والمحبوستين في جلد ميت، وبيديه اللزجتين الغليظتين تمسكان بقبعة ثقيلة وخشنة الملمس.

حاول أن يهرب من الذهاب معهما إلى السينما، لكنه لم يستطع. وأثبت الجلوس بجوارها في الظلام الابتلاء الذي كان يتوقع أن يكونه. جعله اكتفاؤها الذاتي يشعر بالارتباك، وأصبحت الرغبة في كسر سطحها الأملس ـ بضربة عاصفة أو على الأقل بإيماءة مباغتة ـ لا تُقاوَم.

وبدأ يتساءل إذا لم يكن هو نفسه يعاني من البلادة المتأصلة والمَرَضية التي يحب أن يرسمها في الآخرين. ربما لم يكن أمامه إلا أن يصاب بصدمة كهربية ليستعيد إحساسه، وكان هذا هو السبب وراء مطاردته لفاي.

غادر مسرعًا دون أن يلقي عليهما تحية الوداع. كان قد قرر أن يتوقف عن مطاردتها. كان قرارًا من السهل اتخاذه، لكن من الصعب تنفيذه. ولكي يتمكن من القيام به، ارتدَّ إلى واحدة من أقدم الحيل في جراب المثقفين الملآن لآخره. وفي نهاية الأمر -قال لنفسه- هو قد رسمها مرات كافيةً. أغلق الحافظة التي تحوي رسوماته لها، وربطها بدوبارة، ووضعها في جوف حقيبة سفره.

كانت حيلةً طفوليةً بالكاد تليق بمعالج سحري مبتدئ، لكنها نجحت معه. استطاع أن يتجنبها لشهور عديدة. وأثناء هذا الوقت، أخذ كراسته وأقلامه في طراد مستمر لموديلات أخرى. وقضى لياليه

في كنائس هوليوود المختلفة، يرسم المتعبدين. زار «كنيسة المسيح البدنية» حيث تتحقق القداسة عبر الاستخدام الدائم لآلات رفع الأثقال الخاصة بالصدر وآلات تقوية القبضة، و«كنيسة اللا مرئي» حيث تُقرأ الطوالع ويُستخدم الأموات لإيجاد المفقودات، و«معبد القدوم الثالث» حيث تلقي امرأة ترتدي ثيابًا رجاليةً موعظةً حول (الحملة الصليبية على الملح)، و«المعبد الحديث» الذي كان يُدرَّس تحت سقفه المصنوع من الزجاج والكروم (تنفُّس العقل.. سر قبائل الآزتيك).

وبينما كان يراقب هؤلاء الناس وهم يتلوون على المقاعد الصلبة في كنائسهم، فكر كيف كان «أليساندرو مانياسكو»[٦٥] سيجيد مسرحة التناقض بين أجسادهم الممصوصة الواهنة وبين عقولهم الطائشة المضطربة. لم يكن ليسخر منهم كما كان يمكن أن يفعل «هوجارث»[٦٦] أو «دومييه»، ولم يكن ليشفق عليهم. كان سيرسم غضبهم الشديد باحترام، مقدِّرًا طاقته المرعبة والفوضوية، وواعيًا أنهم كانوا يمتلكونها بداخلهم ليدمروا الحضارة.

ذات ليلة في يوم جمعة بـ«معبد القدوم الثالث» وقف رجل بالقرب من تود ليتكلم. بالرغم من أن اسمه كان على الأرجح ثومبسون أو جونسون، وأن مدينته الأم كانت «سُو سيتي»، إلا أنه كانت لديه نفس العينين الغائرتين، الشبيهتين برأسي مسمارين لامعين، واللتين كان

(٦٥) «أليساندرو مانياسكو» (١٦٦٧ – ١٧٤٩): فنان إيطالي اشتهر بلوحاته الخيالية والسحرية ذات الأسلوب الخاص في رسم مشاهد الحياة اليومية أو المناظر الطبيعية.

(٦٦) «وليام هوجارث» (١٦٩٧ – ١٧٦٤): فنان إنجليزي كبير، ورسام كاريكاتير ورسوم ساخرة، وناقد اجتماعي يُعد رائدًا لفن الرسوم المسلسلة الغربية.

يمكن أن تكونا لراهب رسمه «مانياسكو». ربما كان عائدًا للتوّ من إحدى المستعمرات الموجودة في الصحراء القريبة من «عيون ماء سوبوبا الساخنة»[٦٧] حيث كان يتأمل في ذاته متغذيًا على الفاكهة النيئة والجوز. كان غاضبًا جدًّا. والرسالة التي أتى بها إلى المدينة كانت من النوعية التي يمكن أن يكون ناسك أميّ قد أعطاها لروما في عصر انحطاطها. كانت خليطًا مجنونًا من قواعد التغذية، والاقتصاد والتهديدات التوراتية. زعم أنه رأى (نمر الغضب) يقترب بشموخ من أسوار القلعة و(ابن آوى الشهوة) يتسلل متواريا وسط الشجيرات، وربط هذين النذيرين بـ«ثلاثين دولارًا كل أسبوع» وأكل اللحم.

لم يضحك تود على خطبة الرجل. كان يعرف أنها ليست مهمةً. لكن ما عناه كان غضبه ذا النزعة المخلِّصة، والاستجابة العاطفية من مستمعيه. فقد قفزوا واقفين على أقدامهم، مُلوِّحين بقبضاتهم وهم يتصايحون. وعلى المذبح بدأ شخص ما يدق على طبلة عميقة الصوت، وما هي إلا لحظات حتى كان الجمع بأكمله يغني: «إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون».

* * *

(٦٧) تقع في مقاطعة ريفيرسايد جنوب كاليفورنيا.

٢٠

بمرور الوقت، بدأت العلاقة بين فاي وهومر تتغير. أصبحت ضجرةً من الحياة التي يعيشانها معًا، وإذ تعمَّق ضجرها بدأت تضايقه باستمرار. في البداية كانت تفعل ذلك بلا وعي، لكن فيما بعد غدت تفعله بشكل مُتعمَد.

أدرك هومر أن النهاية لاحت حتى قبل أن تفعل هي. وكل ما كان يمكنه أن يفعله ليمنع قدومها هو أن يزيد من خنوعه وكرمه. كان يظل منتظرًا رهن يديها وقدميها. واشترى لها معطفًا من فراء القاقُم[٦٨] الصيفي وسيّارة بويك صغيرةً وخفيفةً.

كان خنوعه أشبه بخنوع كلب أخرق ذليل ينتظر دائمًا ضربةً ما، بل ويرحب بها، للدرجة التي تجعل من الرغبة في ضربه رغبةً غامرةً. أمَّا كرمه فكان أكثر مدعاةً للسخط. فقد كان كرمًا بائسًا للغاية وغير أناني حتى أنه جعلها تشعر كم هي حقيرة وقاسية، مهما حاولت أن تكون لطيفة. كما كان كرمًا كبيرًا جدًّا حتى أنها لم تكن قادرةً على تجاهله.

(٦٨) يعتبر من أكثر أنواع فصيلة ابن عرس شيوعًا. ويتحول فراؤه أثناء الشتاء، في المناطق شبه القطبية، إلى اللون الأبيض، ويكتسب حينئذ قيمة عالية.

لم يكن أمامها إلا أن تمتعض منه. كان هومر يدمر نفسه مُجبرًا إيَّاها على تحمل الذنب، بالرغم من أنه لم يكن يقصد هذا.

كانا قد وصلا تقريبًا إلى الأزمة النهائية عندما رآهما تود ثانيةً. ذات ليلة في وقت متأخر، وبالضبط في اللحظة التي كان يتأهب فيها للنوم، طرق هومر على بابه وقال إن فاي في السيارة بالأسفل وإنهما يريدانه أن يذهب معهما إلى ملهى ليلي.

كان طاقم الملابس الذي يرتديه هومر شديد الغرابة. فقد كان يرتدي بنطالًا فضفاضًا من الكتان الأزرق، وسترة من قماش الفانلة بلون الشيكولاتة على فانلة صفراء بنصف كم. لا يمكن إلا لزنجي أن يلبس هكذا دون أن يبدو مضحكًا، وأبدًا لم يكن هناك امرؤ أقل زنجية من هومر.

ركب تود معهما إلى «بار سندريللا»؛ وهو مبنى صغير من الجص على شكل خف امرأة، في (الشارع الغربي). وكان استعراضه الرئيس عبارةً عن فتيات يقمن بالتقليد.

كانت فاي في مزاج عكر. وعندما جاء الساقي ليأخذ طلباتهم، أصرت على طلب كوكتيل شمبانيا لهومر الذي كان يريد قهوةً. أحضر الساقي الطلبين، لكنها جعلته يعود بالقهوة.

شرح هومر بجهد جهيد، حيث لا بد وأنه قد فعل ذلك مرات عديدةً، أنه لا يمكنه شرب الكحول لأنه يتعبه. استمعت فاي بصبر زائف. وعندما انتهى ضحكت ورفعت الكوكتيل إلى فمه.

«اشربه عليك اللعنة..» قالت.

أمالت الكأس، لكنه لم يفتح فمه وجرى الشراب سائلًا على ذقنه. مسح نفسه بمنشفة المائدة دون أن يفردها.

نادت فاي الساقي مرةً أخرى.

«إنه لا يحب كوكتيلات الشمبانيا..» قالت «أحضِر له براندي».

هز هومر رأسه.

«أرجوكِ يا فاي..» أنَّ متشكيًا.

رفعت البراندي إلى شفتيه، محركة الكأس عندما استدار مبتعدا.

«هيا يا بطل.. اشرب للنهاية!».

«دعيه وشأنه..» قال تود أخيرًا.

تجاهلته كأنها حتى لم تسمع اعتراضه. كانت غاضبةً وخجلةً من نفسها في نفس الوقت. خجلها ذاك قوَّى من غضبها ومنحه هدفًا.

«هيا يا بطل ..» قالت بقسوة «وإلا ستضرب ماما على المؤخرة».

واستدارت إلى تود.

«أنا لا أحب الناس الذين لا يشربون؛ هذا ليس سلوكًا اجتماعيًّا. إنهم يحسون أنهم أفضل وأنا لا أحب هؤلاء الذين يحسون أنهم أفضل».

«أنا لا أحس أني أفضل» قال هومر.

«بلى.. تحس. أنا ثملة وأنت واعٍ ولذلك تشعر أنك أفضل. شخص أفضل نتن عليه لعنة الله!».

فتح فمه ليرد، فصبت البراندي فيه، ثم أطبقت بيدها على شفتيه حتى لا يمكنه أن يبصقه. سال بعض منه من أنفه.

مرةً أخرى ودون أن يفرد منشفة المائدة مسح نفسه. طلبت فاي كأسًا آخر من البراندي. وعندما جاء رفعته إلى شفتيه مرةً أخرى، لكن هذه المرة تناوله وشربه بنفسه، مُجاهدًا في ابتلاع الشراب.

«هكذا يكون الفتى..» ضحكت فاي «أحسنت أيها الفحل القذر!».

طلب منها تود أن تراقصه كي يمنح هومر لحظةً يقضيها وحده. وعندما وصلا إلى منصة الرقص حاولت أن تدافع عن نفسها.

«إن إحساس هذا الشخص بالتفوق يقودني للجنون».

«إنه يحبك» قال تود.

«نعم، أعرف.. لكنه مقزز جدًّا!».

بدأت تبكي على كتفه واحتضنها هو بشدَّة، آخذًا فرصةً طويلةً.

«نامي معي».

«لا يا حبيبي» قالت بتعاطف.

«أرجوكِ.. أرجوكِ... مرةً واحدةً فقط».

«لا يمكنني يا عزيزي. أنا لا أحبك».

«لقد عملتي عند مدام چينينج. تخيلي أنك مازلتِ تعملين لديها».

لم تغضب.

«كان هذا خطأً. وعلى أيّ حال كان شيئًا مختلفًا. لقد ذهبت فقط

عند الطلب عدة مرات بما يكفي لدفع تكاليف الجنازة، كما أن هؤلاء الرجال كانوا غرباء عني تمامًا. أتعرف ما أقصد؟».

«نعم. لكن أرجوكِ يا حبيبتي. لن أضايقك بعدها أبدًا. سأذهب إلى الشرق بعدها تماما. ترفقي بي».

«لا أستطيع».

«لماذا...؟».

«فقط لا أستطيع. أنا آسفة يا عزيزي. لست عاشقة لتعذيبك، ولكني لا أستطيع أن أحب هذا».

«أنا أحبك».

«لا يا حبيبي .. لا أستطيع».

رقصا حتى انتهت الفقرة دون أن يقولا شيئًا آخر. كان ممتنًا لها لأنها تصرفت بشكل جيد جدًّا، لأنها لم تجعله يشعر بأنه سخيف بشكل يفوق الحد.

عندما عادا إلى المنضدة، كان هومر جالسًا بالضبط كما تركاه. كان يمسك بالمنشفة المطوية في يد، وفي الأخرى كأس البراندي الفارغ. كان عجزه وبؤسه مثيرين للغضب إلى حدّ بعيد.

«أنتِ محقة بشأن البراندي يا فاي..» قال هومر «إنه ممتاز! آها!!».

أشار بيده التي تمسك بالكأس في حركة دائرية صغيرة.

«أرغب في كأس من السكوتش» قال تود.

«وأنا أيضًا...»قالت فاي.

قام هومر بمحاولة بطولية أخرى للدخول في أجواء الليلة.

«جارسون..» نادى الساقي «مزيدًا من الشراب».

ابتسم لهما بقلق. انفجرت فاي في الضحك، وبذل هومر أقصى جهده ليضحك معها. وعندما توقفت فجأةً، وجد نفسه يضحك وحيدًا، فحوَّل ضحكته إلى كُحَّة، ثم خبَّأ كُحَّته في المنشفة.

استدارت إلى تود.

«بحق الشيطان ماذا يمكنك أن تفعل مع شخص مقرف مثل هذا؟».

بدأت الأوركسترا العزف وأصبح بمقدور تود أن يتجاهل سؤالها. واستدار ثلاثتهم ليتفرجوا على شاب يرتدي عباءةً ضيقةً من الحرير الأحمر ويشدو بتهنينة:

«أيها الرجل الصغير.. أنت تبكي

وأنا أعرف لماذا أنت حزين

شخص ما أخذ عربة أطفالك بعيدًا

من الأفضل لك أن تذهب لتنام الآن

أيها الرجل الصغير.. لقد كان يومك مليئًا...».

كان له صوت ناعم نابض بالإحساس، وكانت إيماءاته أموميةً؛ حنونةً ومُجهَضةً، سلسلةً من العناقات غير المقصودة. لم يكن ما يفعله محاكاةً ساخرةً بأي حال من الأحوال، لقد كان بسيطًا جدًّا ومحكومًا

جدًّا. لم يكن حتى مسرحيًّا. هذا الشاب الأسمر بذراعيه الرفيعين الأجردين، وكتفيه الناعمين المستديرين، والذي كان يهز مهدًا خياليًّا فيما هو يدندن، كان امرأةً بالفعل.

عندما انتهى من أغنيته، ضجت القاعة بالتصفيق. نفض الشاب نفسه وعاد ممثلًا من جديد. تعثر في ذيل عباءته وكأنه ليس معتادًا عليها، ورفع تنُّورته ليُظهر أنه يرتدي أربطة جوارب باريسية، ثم غادر المسرح بخطوات واسعة وهو يؤرجح كتفيه. كانت محاكاته للرجل خرقاء وفاحشةً.

صفق له تود وهومر.

«أكره الكوديانات» قالت فاي.

«كل النساء يكرهونهم».

كان تود يقصدها كنكتة، لكن فاي كانت غاضبة.

«إنهم أوساخ» قالت.

همَّ أن يقول شيئًا آخر، لكن فاي كانت قد تحولت إلى هومر مرةً أخرى. بدا أنها غير قادرة على مقاومة مضايقته. هذه المرة قرصته في ذراعه حتى أطلق صرخةً صغيرةً حادةً.

«هل تعرف ما هو معني كوديانة؟» سألته.

«نعم» قال بتردد.

«حسنًا إذن..» زعقت بصوت كالنباح «أفصح.. ماذا يكون الكوديانة؟».

تلوَّى هومر متقلقلًا، وكأنه فعلًا يشعر بالمسطرة على مؤخرته، ونظر متوسلًا إلى تود الذي حاول أن يساعده بتشكيل كلمة «لوطي» بشفتيه.

«نوتي..» قال هومر.

انفجرت فاي ضاحكةً. لكن نظرته المجروحة جعلت من المستحيل على أيٍّ كان ألا يرق له، لذلك ربتت على كتفه.

«يا لك من مغفل!» قالت.

ابتسم لها ممتنًا، وأشار إلى الساقي كي يأتي بدور آخر من المشروبات.

بدأت الأوركسترا تعزف، وأتى رجل يطلب من فاي أن تراقصه. تبعته إلى المنصة دون أن تقول كلمة لهومر.

«مَن هذا؟» تساءل هومر وهو يطاردهما بعينيه.

زعم تود أنه يعرفه وقال أنه كثيرًا ما رآه في المنطقة المحيطة بسان بردو. أرضى تفسيره هومر، لكنه في نفس الوقت جعله يفكر في شيء آخر. وكان بمقدور تود أن يراه تقريبًا وهو يشكل سؤالًا في رأسه.

«هل تعرف إيرل شوب؟» سأل هومر أخيرًا.

«نعم».

عندئذ انطلق هومر يحكي قصة طويلة ومرتبكة عن دجاجة سوداء قذرة. وظل يعود إلى الدجاجة مرارًا وتكرارًا، وكأنها كانت الشيء الوحيد الذي لم يتحمله في إيرل والمكسيكي. وبالنسبة لرجل غير قادر على الكراهية استطاع أن يرسم صورةً مريعةً إلى حدّ كبير للطائر.

«إنك لم ترَ أبدًا مثل هذا الشيء المقرف، الطريقة التي كانت تجثم

بها وتدير رأسها. لقد مزقت الديكة كل الريش من رقبتها وجعلوا عرفها داميًا تمامًا، ولها قدمان متقرحتان متغطيتان بالدمامل، وتقأقئ بصوت مقرف عندما يلقون بها في القن».

«مَن يلقي بها في أيّ قن؟».

«المكسيكي».

«ميجيل؟».

«نعم . إنه تقريبًا لا يقل سوءًا عن دجاجته».

«ذهبتَ إلى معسكرهم؟».

«معسكر؟».

«في الجبال؟».

«لا.. إنهما يعيشان في الجراج. سألتني فاي إذا كنت سأمانع في أن يعيش صديق لها في الجراج لفترة لأنه مفلس. لكني لم أعرف شيئًا عن الدجاج والمكسيكي... لقد أصبح الكثير من الناس بلا عمل في هذه الأيام».

«لماذا لا تلقي بهما إلى الخارج؟».

«إنهما مفلسان، وليس لهما من مكان يذهبان إليه. كما أنه ليس من المريح للغاية أن تعيش في جراج».

«ولكن إذا كانا لا يحسنان التصرف؟».

«إنها تلك الدجاجة فقط. أنا لا أمانع بشأن الديكة، فهي جميلة، لكن

هذه الدجاجة القذرة. إنها تنفض ريشها القذر كل مرَّةً وتقأقئ بطريقة مقرفة للغاية».

«أنت لست مضطرًا للنظر إليها».

«إنهما يفعلان ذلك كل أصيل في نفس الوقت عندما أكون عادةً جالسًا على المقعد في الشمس بعد عودتي من التسوق مع فاي وقبل الغداء بالضبط. يعرف المكسيكي أني لا أحب رؤيتها، لذلك يحاول أن يجعلني أنظر نكايةً فيّ فقط. أدخل إلى البيت، لكنه ينقر على النافذة وينادي كي أخرج وأتفرج. أنا لا أسمي هذا فكاهةً. بعض الناس لديهم أفكار غريبة عن ماهية التفكه».

«وما قول فاي؟».

«إنها لا تأبه بالدجاجة. وتقول إنها طبيعية ليس إلا».

عندئذ، وحتى لا يخطئ تود فهم هذا على أنه انتقاد، أخبره كم هي طفلة طيبة وصالحة. وافقه تود، لكنه عاد به إلى الموضوع.

«لو كنت مكانك..»قال «كنت سأبلغ البوليس بأمر الدجاج. يجب عليك أن تحصل على ترخيص لتربية الدجاج في المدينة. كنت سأفعل شيئًا وعلى وجه السرعة».

تجنب هومر الرد المباشر.

«لم أكن لألمس هذا الشيء لقاء أموال العالم بأجمعها. إنها مليئة بالقروح ومسلوخة تقريبًا. إنها تشبه صقر الباز، فهي تأكل اللحم. رأيتها مرَّةً تأكل بعض اللحم الذي يخرجه المكسيكي من صفيحة الزبالة. هو

يطعم الديوك بالحبوب، لكن الدجاجة تأكل الزبالة وهو يحتفظ بها في صندوق قذر».

«لو كنت مكانك لألقيت بهذين الوغدين خارجًا، وبطيورهما معهما».

«لا، إنهما شابان لطيفان بما يكفي، لكنهما فقط عاثرا الحظ مثل كثير من الناس في هذه الأيام كما تعرف. إنها فقط تلك الدجاجة...».

هزّ رأسه ضجرًا، وكأن بمقدوره أن يشمها ويتذوقها.

كانت فاي عائدةً. رأى هومر أن تود عازم على التحدث معها حول إيرل والمكسيكي، فأشار إليه باستماتة ألا يفعل ذلك. لكنها مع ذلك لمحت الموضوع وانتابها الفضول.

«ماذا كنتما تثرثران بشأنه يا شباب؟».

«أنت يا عزيزتي..» قال تود «هومر لديه شيء طريف لكِ».

«أخبرني يا هومر».

«لا ، قولي أنت شيئًا أولًا».

«حسنًا، الرجل الذي راقصته توًّا سألني إذا ما كنتَ نجمًا سينمائيًّا كبيرًا».

رأى تود أن هومر كان غير قادر على التفكير في رد لتلك المجاملة، لذلك تحدث نيابةً عنه.

«قلت إنك أجمل فتاة في المكان».

«نعم..» وافقه هومر «هذا ما قاله تود».

«لا أصدق هذا. تود يكرهني. وعلى أي حال أنا لمحتك تخبره أن يبقى صامتًا. كنت تسكته».

ضحكت.

«أراهن أني أعرف ما كنتما تتكلمان عنه..» (وقلدت اشمئزاز هومر حين يُثار «تلك الدجاجة السوداء القذرة، إنها مليئة بالقروح ومسلوخة تقريبا.)».

ضحك هومر معتذرًا، لكن تود كان غاضبًا.

«ما الفكرة من بقاء هذين الشخصين في الجراج؟» تساءل.

«وما شأنك أنت بحق الجحيم؟» ردت عليه، لكن ليس بغضب حقيقي. كانت تشعر بالتسلية.

«إن هومر يستمتع بصحبتهما. أليس كذلك يا فحلي القذر؟».

«لقد أخبرت تود أنهما شخصان لطيفان، لكنهما فقط عاثرا الحظ مثل كثير من الناس في هذه الأيام. هناك نسبة رهيبة من البطالة في كل مكان حولنا».

«هذا صحيح..» قالت «ولو ذهبا، سأذهب».

كان تود قد حدس كل هذا. أدرك أنه لا فائدة من قول أي شيء. وكان هومر يشير إليه مرةً أخرى كي يظل صامتًا.

لسبب أو لآخر، غدت فاي فجأةً خجلةً من نفسها. اعتذرت لتود بعرضها عليه أن تراقصه مرةً أخرى، وتدللت عليه وهي تقترح ذلك. لكن

تود رفض.

كسرت الصمت الذي أعقب ذلك بقصيدة مديح في دجاج ميجيل، والتي كان المقصود منها في الحقيقة أن تكون عذرًا لها هي شخصيًّا. أخذت تصف كم كانت تلك الطيور مقاتلةً رائعةً، وكم يحبها ميجيل وأيّ عناية فائقة يوليها لها.

وافقها هومر بحماس. ظل تود صامتًا. سألته إذا ما كان قد رأى أبدًا مصارعة الديكة ودعته إلى الجراج في الليلة التالية. كان رجل من سان دييجو سيأتي شمالًا بطيوره ليصارع بها ضد ديكة ميجيل.

عندما استدارت لهومر مرةً أخرى، مال مبتعدًا كما لو كانت ستضربه. احمر وجهها من الخجل، ونظرت لتود لترى إذا ما كان قد لاحظ. لبقية الليلة حاولت أن تكون لطيفةً مع هومر. بل إنها لمسته قليلًا وهي تعدل ياقته وتسوِّي شعره. وهو ابتسم بسعادة.

* * *

٢١

عندما أخبر تود «كلود إيستي» عن مصارعة الديكة، أراد الأخير أن يذهب معه. فذهبا إلى منزل هومر معًا بالسيارة.

كانت ليلة من تلك الليالي الزرقاء والبنفسجية الفاتحة التي يبدو فيها اللون الزاهي وكأنه انفرش على المشهد بفرشاة أثيرية. حتى أكثر الظلال حلكةً كان بها بعض من اللون البنفسجي.

وقفت عربة في ممشى الجراج وقد أضيئت أنوارها الأمامية. كان بإمكانهما أن يريا رجالًا عديدين في زاوية المبنى وأن يسمعا أصواتهم. كان أحدهم يضحك باستخدام صوتين فقط: ها- ها و ها- ها مرارًا وتكرارًا.

تقدم تود ليعرِّف نفسه؛ في حالة إذا ما كانوا يتخذون احتياطات ضد البوليس. وعندما دخل دائرة الضوء حيَّاه إيب كوزيتش وميجيل، لكن إيرل لم يفعل.

«المصارعة اتلغت..» قال إيب «السافل ده اللي من دييجو ما جاش».

اقترب كلود وقدَّمه تود إلى ثلاثتهم. كان القزم متعجرفًا، وميجيل

كيِّسًا، أمَّا إيرل فكان كعادته خشبيًّا مكفهرًا.

كان القسم الأعظم من أرض الجراج قد حُوِّل إلى حلبة مصارعة؛ مساحة بيضاوية طولها حوالي تسعة أقدام وعرضها سبعة أو ثمانية أقدام، فُرشت بسجادة قديمة وسُوِّرت بسياج واطئ غير مستوٍ ومصنوع من قطع عشوائية من ألواح الخشب والسلك. وكانت سيارة فاي «الكوبيه» واقفةً في الممشى، وقد وُضعت بحيث تغمر أنوارها الأمامية ساحة القتال.

سار كلود وتود في أثر إيب خارجين من بهرة الضوء، وجلسا معه على صندوق قديم في ظهر الجراج. أتى كذلك إيرل وميجيل وجلسا القرفصاء على كعوبهما في مواجهتهم. كان كلاهما يرتدي الجينز الأزرق على قميص منقط وقبعة عريضة وحذاء بكعب عالٍ. بدا الاثنان وسيمين وفاتنين للغاية.

جلسوا يدخنون في صمت، كلهم هادئون إلا القزم الذي كان يتململ في قلق. بالرغم من أنه كان لديه متسع من المكان، إلا أنه فجأةً دفع تود.

«انزاح يا فْشِلَّة!» قال مزمجرًا.

تحرك تود مزاحمًا كلود، دون أن ينبس ببنت شفة. ضحك إيرل على تود أكثر منه على القزم، لكن القزم حمل عليه على أيّ حال.

«ما لك ياخِرِع! بتضحك على مين؟».

«عليك» قال إيرل.

«بقى كده.. هه؟ طب اسمعني بقى يا حرامي الكنيف انت.. رهان على اتنين سنت إني أناولك القاضية أخليك تتخلع من جزمتك البوت

دي اللي مطوِّلاك!».

مد إيرل يده في جيب قميصه، وألقى بعملة معدنية على الأرض.

«وآدي حتة بخمسة..» قال.

همَّ القزم بالنزول من فوق الصندوق، لكن تود أمسكه من ياقته. لم يحاول أن ينفلت، لكنه مال للأمام على معطفه، مثل كلب «ترير»[٦٩] في طوق، وأخذ يؤرجح رأسه الكبيرة من جانب إلى آخر.

«ياللا..» قال ورشاش من لعابه ينقذف مع كل كلمة «يا هربان من (شركة الأزياء الغربية).. يا قملة في باروكة.. إنت..».

كان إيرل سيصبح أقل غضبًا بكثير لو فكر في رد مفحم. لكنه تمتم شيئًا من قبيل «قزعة ابن حرام» ثم بصق. ضرب مشط حذاء القزم بكتلة كبيرة من البصاق.

«شوطة حلوة!» قال ميجيل.

كان هذا كافيًا بشكل واضح بالنسبة لإيرل كي يعتبر نفسه الفائز، لأنه ابتسم وصار هادئًا. صفع القزم يد تود مزيحًا إيَّاها من على ياقته مصحوبةً بلعنة، واستقر جالسًا على الصندوق من جديد.

«كان لازم يلبس خطاطيف..» قال ميجيل.

«مش محتاجهم عشان خِرِع زي ده».

ضحكوا جميعًا، وعاد كل شيء طيبًا مرَّةً أخرى.

---

(٦٩) فصيلة من الكلاب صغيرة الحجم وشرسة.

مال إيب عبر تود ليحادث كلود.

«كانت ح تكون مصارعة ممتازة..» قال «كان فيه أكتر من دستة شباب هنا قبل ما تيجوا، وشوية منهم كان معاه خميرة كويِّسه. كنت ح أقبل الرهانات».

أخرج محفظته، وأعطى كلود أحد بطاقات عمله.

«كانت خلاص في جيبنا..» قال ميجيل «معايا خمس ديوك كانت ح تكسب بالراحة، واتنين خسرانين أكيد. كنا ح نعملها مقتلة».

«أنا لم أرَ أبدًا مصارعة دجاج..» قال كلود «في الحقيقة أنا حتى لم أرَ أبدًا رياضة دجاج».

عرض عليه ميجيل أن يريه واحدًا من ديوكه وغادر ليأتي به. وذهب تود إلى العربة ليأتي بزجاجة الويسكي التي تركاها في الجيب الجانبي. وعندما عاد، كان ميجيل ممسكًا بـ «جوجوتلا» في الضوء. وكانوا كلهم يتفحصون الطائر.

أمسك ميجيل الديك بكلتا يديه بقوة، قريبًا من الطريقة التي تُمسك بها كرة السلة من أجل رمية حرة. كان للطائر جناحان قصيران بيضاويان وذيل على شكل قلب واقف في زاوية قائمة على جسمه. وكان له رأس مثلث كرأس الثعبان ينتهي بمنقار معقوف قليلًا، سميك عند قاعدته وحاد عند طرفه. وكانت ريشاته كلها متراصةً وصلبةً، وكأنها قد دُهنت بالورنيش. كانت قد خُففت وانبرت من أجل القتال وبرزت خطوط جسده -الذي كان أشبه بوتد مشذَّب- بوضوح. ومن بين أصابع ميجيل

تدلت ساقاه الطويلتان بلونهما البرتقالي الزاهي، وقدماه الأغمق قليلًا بمخالبهما المدببة.

«جوجو اتربى على إيد جون ر. بويس من ليندال – تكساس..» قال ميجيل بفخر «كسب ست مرَّات. أنا أراهن عليه بخمسين دولار وبندقية صيد».

«ديك جميل..» قال القزم بحسد «لكن يظهر إنه مش كل حاجة».

أخرج كلود محفظته.

«أود أن أراه وهو يقاتل..» قال «يمكن أن تبيع لي واحدًا من ديوكك الأخرى وأضعه في مواجهته».

فكر ميجيل لوهلة، ونظر إلى إيرل الذي أخبره أن يُقدم على الأمر.

«عندي ديك ح أبيعه لك بخمستاشر دولار» قال.

تدخل القزم.

«خلِّيني أختار لك الديك».

«أوه، أنا لا أهتم..» قال كلود «أنا فقط أريد أن أشاهد مصارعة. ها هي الخمسة عشر خاصتك».

تناول إيرل النقود، وأخبره ميجيل أن يأتي بـ«هيرمانو»؛ الأحمر الكبير.

«الأحمر ده ح يعدِّي التمانيه رطل..» قال «بينما جوجو ما يزيدش عن ستة».

رجع إيرل حاملًا ديكًا كبيرًا له طوق عنق فضيّ. بدا أشبه بديك عادي من دواجن الحظيرة.

ما إن رآه القزم، حتى انتابه السخط.

«بتسمِّي إيه ده بقى؟ وزة؟»

«ده ديك من (شارع ولاد الجزَّار)» قال ميجيل.

«ده مش ح يخربشه حتى!» قال القزم.

«ما انتاش مضطر للمراهنة» تمتم إيرل.

رمق القزم الديك، وبادله الديك النظرة نفسها، ثم استدار إلى كلود.

«سيبني أظبَّطه لك يا أستاذ».

تحدث ميجيل بسرعة.

«إيرل هو اللي ح يتعامل. هو عارف الديك كويس».

عند ذاك انفجر القزم.

«دي نصباية بقى!» هتف زاعقًا.

حاول أن يمسك بالطائر الأحمر، لكن إيرل رفعه عاليًا في الهواء بعيدًا عن متناول الرجل الصغير.

فتح ميجيل الصندوق الكبير، وأخرج علبةً خشبيةً صغيرةً، من النوع الذي تُحفظ فيه قطع الشطرنج. كان مليئًا بالخطافات المعقوفة، ومربعات صغيرة من جلد «الشمواه» مثقوبة من منتصفها، وقطع من خيط مشمع مثل ذلك الذي يستخدمه الإسكافي.

تزاحموا حوله يشاهدونه وهو يُسلِّح جوجو. مسح أولًا الزوائد القصيرة الموجودة على ساقي الديك ليتأكد من نظافتها، ثم وضع قطعة مربعة من الجلد على إحدى الزوائد بحيث تبرز من الثقب. بعد ذلك ثبَّت فوقها خطافًا وربطه بقطعة من الخيط الناعم، وهو يلفه بحرص شديد. وفعل الشيء نفسه مع الساق الأخرى.

«ده ديك مليان شجاعة..» قال ميجيل «كسب جولات مصارعة كتيرة. يمكن يبان مش سريع، بس هو سريع تمام، وبيهبِد ضربة فظيعة».

«ع البوتاجاز بالظبط، لو تسألني» قال القزم.

أخرج إيرل مقصًّا كبيرًا، وبدأ يخفف من ريش الطائر الأحمر. راقبه القزم وهو يقص معظم ذيل الديك، لكن عندما بدأ يعمل في الصدر أمسك يده.

«سيبهم له!» عوى قائلًا «ح تموِّته بسرعة كده. هو لازمينه الحبَّة دول يحموه».

واستدار إلى كلود مرةً أخرى.

«من فضلك يا أستاذ خليني أظبَّطه».

«خلِّيه يشتري حصة من الديك» قال ميجيل.

ضحك كلود، وأشار إلى إيرل، كي يعطي الطائر إلى إيب. لم يكن إيرل راغبًا في ذلك، ونظر إلى ميجيل نظرةً ذات مغزى.

بدأ القزم يرقص من الغضب.

«انتم بتحاولوا تُخمُّونا!» صرخ محتدًّا.

«يووه.. إدِّيهوله..» قال ميجيل.

دسَّ القزم الديك تحت ذراعه الشمال، لكي تصبح يداه حرتين، وبدأ يتفحص الخطافات التي في العلبة بسرعة. كانت كلها بنفس الطول: ثلاث بوصات، ولكن بعضها كانت له انحناءات قاطعة أكثر من الآخرين. اختار زوجًا منها، وشرح استراتيجيته لكلود.

«أصله معظم عركته ح يعملها وهو ساند على ضهره. والجوز دول ح يضربوا صح. لو كان يقدر يغلب الديك التاني ما كُنتش ح أستعملهم».

جثا على ركبتيه، وشحذ الخطافين على الأرض الأسمنتية، حتى صارا مثل الإبر.

«فيه عندنا فرصة؟» سأل تود.

«ما تقدرش تقول كده أبدًا..» قال وهو يهز رأسه الكبيرة بشكل زائد «شكله تقريبًا زي الطير الميت».

بعد ضبط الخطافين بعناية فائقة، تفحص الطائر بسرعة، فاردًا جناحيه ونافخًا ريشه لكي يرى جلده.

«عُرفه مش مزهزه كفاية عشان يخش مصارعة..» قال وهو يقرص العُرف «لكن شكله عفي. يمكن كان ديك كويّس في يوم من الأيَّام».

أمسك بالطائر في الضوء ونظر في رأسه. وعندما رآه ميجيل يفحص منقاره، أخبره متوترًا أن يكف عن التسويف. لكن القزم لم يُعره اهتمامًا، واستمر في الهمهمة لنفسه. وأشار إلى تود وكلود كي ينظرا.

«بأقول لكم إيه!» قال وهو ينفخ ساخطًا «إحنا اتخمِّينا».

أشار إلى خط في سمك الشعرة، يمتد بطول الجزء العلوي من منقار الطائر.

«ده مش شرخ..» اعترض ميجيل «دي بس علامة».

مدّ يده نحو الطائر، وكأنه سيحك منقاره، فنقره الديك بقسوة. وأسعد هذا القزم.

«ح نخش المصارعة..» قال «بس مش ح نراهن».

كان إيرل هو الحَكَم. تناول قطعة من الطباشير، ورسم ثلاثة خطوط في مركز الحلبة؛ خطًّا طويلًا في المنتصف واثنين أقصر موازيين له وعلى بُعد حوالي ثلاثة أقدام.

«نزلُّوا ديوككم الحلبة» هتف مناديًا.

«لأ، خلِّيهم يتناقروا الأول..»احتج القزم.

وقف هو وميجيل على مبعدة ذراع، ودفعا الديكين في بعضهما ليهيجاهما. أمسك جوجو بالديك الأحمر الكبير من عُرفه وتشبث به بوحشية حتى انتزعه ميجيل بعيدًا. دبَّت الحياة في الديك الأحمر، الذي كان لا مباليًا من قبل حتى أن القزم واجه صعوبة في الإمساك به. دفع الرجلان الديكين في بعضهما مرةً أخرى، ومرةً أخرى أمسك جوجو بعُرف الأحمر. جُنَّ الديك الكبير من الغضب وناضل ليمسك بالطائر الأصغر.

«إحنا جاهزين» قال القزم.

خطا هو وميجيل إلى داخل الحلبة، ووضعا ديكيهما على الخطين القصيرين بحيث يواجهان بعضهما. أمسكا بهما من ذيليهما وانتظرا أن

يعطي إيرل إشارة البدء.

«سيِّبوهم على بعض..» قال آمرًا.

كان القزم يراقب شفتيّ إيرل، وأطلق ديكه أولًا، لكن جوجو ارتفع عاليًا في الهواء وغاص بأحد شوكاته في صدر الأحمر. مرَّ من الريش داخلا في اللحم. استدار الأحمر والخطاف ما زال عالقًا فيه ونقر خصمه مرتين في رأسه.

فصلا الطائرين، وأمسكا بهما عند الخطين من جديد.

«سيِّبوهم..» صاح إيرل.

مرةً أخرى اعتلى جوجو الآخر، لكن هذه المرَّة أخطأت شوكاته طريقها. حاول الأحمر أن يعتليه، لكن لم يستطع. كان غير رشيق وثقيلًا لحد يمنعه من القتال في الهواء. صعد جوجو مرةً أخرى، وهو يقطع ويضرب بسرعة كبيرة حتى أن ساقيه الذهبيتين تلطختا تمامًا. واجهه الأحمر بالعودة رابضًا على ذيله رافعًا مخالبه مثل القط. هبط جوجو مرةً أخرى وأخرى. كسر أحد جناحي الأحمر، ثم مزق بشكل عملي إحدى ساقيه.

«امسكوهم..» نادى إيرل.

عندما لملم القزم الديك الأحمر، كانت رقبته قد بدأت تتدلى، وغدا كتلة من الدم والريش المتلبد. أعول الرجل الصغير نادبًا الديك، ثم بدأ في العمل. بصق في منقاره المنفغر، وأخذ عُرفه بين شفتيه، ومصّ الدم، وردَّه إليه. بدأ الأحمر يستعيد هياجه، لكنه لم يستعد قوته. انغلق منقاره

واستقامت رقبته. ملَّس القزم على ريشه، وسرَّحه. لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئًا حيال الجناح المكسور أو الساق المتدلية.

«سيِّبوهم..» قال إيرل.

أصر القزم على أن يوضع الديكان منقارًا لمنقار على خط المنتصف، حتى لا يضطر الأحمر للتحرك حتى يصل إلى خصمه. وافق ميجيل.

كان الأحمر شجاعًا للغاية. عندما أطلق إيب ذيله، بذل مجهودًا هائلًا ليرتفع عن الأرض ويلاقي جوجو في الهواء، لكنه لم يستطع إلا أن يدفع نفسه بساق وحيدة وسقط على جانبه. حمل جوجو عليه، صانعًا نصف دورة ليهبط على عنقه، موجهما إليهما شوكتيه الاثنتين. تلوَّى الأحمر محررًا نفسه وملقيًا جوجو من عليه، وبذل مجهودًا خرافيًّا ليضرب بساقه السليمة، لكنه سقط على جانبه مرةً أخرى.

وقبل أن يتمكن جوجو من الارتفاع في الهواء، استطاع الأحمر أن يوجه ضربةً قاسيةً بمنقاره إلى رأس جوجو. أبطأت هذه الضربة من حركة الطائر الأصغر، وأصبح يقاتل على الأرض. وفي مباراة النقر، عوضت قوة الأحمر ووزنه الأكبر افتقاره لجناح وساق. واستطاع أن يبلي بلاءً حسنًا بقدر ما يمكنه. لكن فجأةً انقطم منقاره المشقوق، مخلفًا له النصف السفلي فقط. وارتفعت فقاعة كبيرة من الدم مكان ما كان منقاره. لم يتراجع الأحمر قيد أنملة، لكنه بذل مجهودًا عظيمًا ليرتفع في الهواء مرةً أخرى. وباستخدام ساقه الوحيدة ببراعة استطاع أن يرتفع ست أو سبع بوصات عن الأرض، لكنها مع ذلك لم تكن كافيةً لأن تؤدي شوكتاه ما عليهما. ارتفع جوجو معه وعلاه تمامًا، ثم وجَّه خطافيه نحو

صدر الأحمر. ومرةً أخرى علقت واحدة من الإبر الصلبة.

«امسكوهم..» صاح إيرل.

حرر ميجيل طائره، وأرجع الآخر إلى القزم. ملَّس إيب على ريشه وهو يئن بصوت خفيض ولعق عينيه لينظفهما، ثم وضع رأسه بأكملها في فمه. لكن الأحمر كان قد انتهى. لم يستطع حتى أن يصلب رقبته. نفخ القزم مزيحًا الريشات من تحت ذيله وضغط شفتي إسته معًا. وعندما بدا هذا غير مجدٍ، أدخل بنصره وحكَّ خصيتي الديك. اهتاج الديك وبذل مجهودًا كبيرًا ليقيم رقبته.

«سيِّبوهم..».

مرَّةً أخرى حاول الأحمر أن يرتفع مع جوجو، وهو يدفع جاهدًا بساقه المتبقية، لكنه لم يستطع إلا أن يلف حول نفسه بجنون. ارتفع جوجو، لكنه أخطأ الهدف. طعنه الأحمر واهنًا بمنقاره المكسور. ارتفع جوجو في الهواء مرَّةً أخرى ودفع هذه المرَّة خطافًا لينفذ من إحدى عيني الأحمر إلى دماغه. سقط الأحمر ميتًا كصخرة.

تأوه القزم بألم مبرِّح، لكن لم ينطق أحد آخر بأي شيء. وأخذ جوجو ينقر في العين الباقية للطائر الميِّت.

«ابعدوا النتن اللي بياكل لحم أخوه ده!» صرخ القزم.

ضحك ميجيل، ثم أمسك بجوجو، وأزال عنه خطافيه. وفعل إيرل مثله مع الأحمر. كان يمسك بالديك الميِّت برقة وباحترام.

ومرَّر تود الويسكي لهم.

٢٢

كانوا في طريقهم لأن يثملوا تمامًا، عندما ظهر هومر قادمًا إلى الجراج. جفل قليلًا عندما رأى الديك الميت متمددًا على البساط. سلَّم على كلود بعد أن قدَّمه تود إليه، وكذلك على إيب، ثم ألقى خطبةً قصيرةً محفوظةً داعيًا الجميع للدخول وتناول بعض الشراب. احتشدوا ماضين خلفه.

حيَّتهم فاي عند الباب. كانت ترتدي منامةً مريحةً من الحرير الأخضر، وخفًّا أخضر به زهرتا أقحوان كبيرتان وكعبان عاليان للغاية. كانت الأزرار العلوية الثلاثة لسترتها مفتوحةً، فانكشف نصيب وافر من صدرها، ولكن لم يظهر شيء من نهديها؛ ليس لأنهما صغيران، ولكن لأنهما وُضعا متباعدين ومنضغطين إلى أعلى وإلى الجانبين.

مدَّت يدها إلى تود، وربَّتت على رأس القزم. كانوا أصدقاء قدامى. وردًّا على تقديم هومر البائس لكلود، تصرفت كسيدة البيت إلى حدٍّ كبير. كان هذا هو دورها المفضل، وكانت تقوم به كلما قابلت رجلًا جديدًا، خاصةً إذا كان شخصًا ذا ثراء واضح.

«أنا مبتهجة بوجودك..» قالت بنغمات متهدجة.

ضحك القزم منها.

بصوت جاف متغطرس أمرت هومر أن يذهب إلى المطبخ ويأتي بالصودا والثلج والكؤوس.

«بيت فخم!» أعلن القزم وهو يضع على رأسه القبعة التي خلعها عند الباب.

تسلق صاعدًا أحد الكراسي الإسبانية الكبيرة، مستخدمًا ركبتيه ويديه في ذلك، وجلس على حافته وقد تدلت قدماه. بدا مثل الأراجوز.

كان إيرل وميجيل قد تخلفا قليلًا ليغتسلا. وعندما دخلا، رحبت بهما فاي بتعطف متكلَّف.

«كيف حالكما يا فتيان؟ ستأتي المرطبات في خلال لحظة. لكن لعلك تفضل كأسًا من 'الليكير' يا ميجيل؟».

«لا يا ماما..» قال وقد جفل قليلًا «أنا ح اشرب م اللي ح يشرب منه الباقيين».

ومضى في أثر إيرل عبر الحجرة حتى وصلا إلى الأريكة. كان كلاهما يسير في خطوات متخشبة طويلة، وكأنهما غير معتادين على أن يكونا في داخل منزل. وجلسا بحذر شديد وبظهرين متصلبين، واضعين قبعتيهما الكبيرتين على ركبهما وأيديهما تحت القبعتين. كانا قد رجَّلا شعريهما قبل أن يغادرا الجراج، والتمع رأساهما الصغيران المستديران بشكل جميل.

دار هومر حاملًا المشروبات على صينية صغيرة.

أظهر جميعهم سلوكًا مهذبًا، ما عدا القزم الذي ظل متغطرسًا كعادته؛ حتى أنه علَّق على جودة الويسكي. وبمجرد أن قدَّم الشراب لكل واحد من الموجودين، جلس هومر.

فاي وحدها بقيت واقفةً. كانت متمالكةً نفسها تمامًا على الرغم من تحديقاتهم. وقفت مقدَّمةً واحدًا من وركيها واضعة يدها عليه. ومن مجلسه كان بإمكان كلود أن يتتبع الخط الساحر لعمودها الفقري، وهو ينقض على ردفيها، اللذين بدوا كقلب مقلوب.

أطلق صفير إعجاب خفيضًا، ووافقه الجميع إما بالحركة المتوترة أو بالضحك.

«يا عزيزي..» قالت لهومر «ربما بعض الرجال يرغب في سيجار؟».

اندهش هومر، وغمغم شيئًا عن عدم وجود أيّ سيجار بالبيت، لكنه سيذهب إلى المتجر ليأتي ببعضه إذا... اضطراره لقول كل هذا جعله تعيسًا ودار بالويسكي مرَّةً أخرى. وصبَّ أدوارًا كريمةً للغاية.

«هذه درجة جذابة جدًّا من الأخضر..» قال تود.

تخايلت فاي عليهم جميعًا.

«اعتقدت أنها يمكن أن تكون مبهرجةً قليلًا... سوقيةً كما تعرف».

«لا..» قال كلود بحماس «إنها فاتنة».

كافأته على مجاملته بابتسامة خصوصية في الخفاء، وجرت بلسانها على شفتيها. كانت واحدةً من أكثر إيماءاتها تميُّزًا وذات تأثير بالغ. بدت

واعدةً بكل أنواع الحميميات غير المحددة، لكنها كانت بالفعل في بساطة وآلية كلمة «شكرًا». كانت تستخدمها لمكافأة أيّ شخص على أيّ شيء، مهما كان هذا الشيء غير هام.

ارتكب كلود نفس الخطأ الذي طالما وقع فيه تود، وقفز واقفًا على قدميه.

«ألن تجلسي هنا؟» قال وهو يشير بنبل نحو مقعده. أبدت قبولها بتكرار نفس الابتسامة السرية والملاطفة باللسان. انحنى كلود، لكنه عندئذ وعندما أدرك أن كلهم يرقبونه، أضاف تلويحةً هزليةً صغيرةً ليجعل نفسه أقل سخفًا. انضم تود إليهم، ثم تبعه إيرل وميجيل. قام كلود بالمغازلة بينما وقف الباقون يحدِّقون فيها.

«هل تعمل في السينما يا سيد إيستي؟».

«نعم . أنتِ تعملين في السينما بالتأكيد؟».

كان كل واحد منهم قد وعى نبرة التوسل في صوته، لكن أحدًا لم يبتسم. لم يعتبوا عليه. كان من المستحيل تقريبًا الابتعاد عن تلك النبرة أثناء التحدث معها. كان الرجال يستخدمونها حتى ليقولوا «صباح الخير» فقط.

«ليس بالضبط.. لكني أتمنى أن أكون..»قالت «لقد عملت ككومبارس، لكني لم أنل فرصةً حقيقيةً بعد. وأتوقع الحصول على واحدة في القريب. كل ما أطلبه هو فرصة. إن التمثيل في دمي. نحن آل جرينر -كما تعرف- كنا جميعًا مسرحيين من زمان بعيد».

لم تدع كلود يكمل، لكنه لم يهتم.

«ليس في عروض موسيقية، بل في أعمال دراما حقيقية. بالطبع كان هناك إمكانية لكوميديات خفيفة في البداية. كل ما أطلبه هو فرصة. لقد قمت بشراء الكثير من الملابس مؤخرًا لأصنع لنفسي فرصة. أنا لا أؤمن بالحظ. الحظ هو مجرد عمل شاق، كما يقولون، وأنا راغبة في العمل الشاق مثل أيّ شخص».

«لديكِ صوت مبهج، وأنت تتحكمين فيه بشكل جيد» قال.

لم يستطع تجنب هذا. فكونه قد رأى ابتسامتها السرية والأشياء التي تصاحبها مرَّةً، أراد أن يجعلها تكررها مرة ثانيةً وثالثةً.

«أود أن أقدم عرضًا في برودواي» تابعت «هذه هي الطريقة للحصول على بداية في هذه الأيام. إنهم لن يتحدثوا معك إلا إذا كان لديك خبرة على خشبة المسرح».

استمرت تتحدث وتتحدث، مخبرة إيَّاه عن كيفية صنع مستقبل مهني في السينما وكيف تنوي أن تصنع مستقبلها هي. كان كلامها كله هراء. كانت تخلط أجزاء من نصائح أسيء فهمها تُنشر في الجرائد المهنية، مع أجزاء أخرى منتزعة من مجلات هواة النجوم، وتقارن هؤلاء بالأساطير المحيطة بنجوم الشاشة والعاملين في السينما. ودون أيّ مرحلة انتقالية ملحوظة، أصبحت الممكنات احتمالات، وتحولت لتغدو في النهاية من الحتميات. في البداية كانت تتوقف عرضًا وتنتظر كلود ليردد وراءها موافقة حارة، لكنها عندما أخذت بزمام الأمور، كانت كل موضوعاتها بلاغية، وتدفق نهر الكلمات بلا انقطاع.

لا أحد منهم سمعها في الحقيقة. كانوا كلهم منشغلين تمامًا بمراقبتها وهي تبتسم، تضحك، ترتعش، تهمس، تزداد سخطًا، تعقد ساقيها وتحلهما، تخرج لسانها، توسع وتضيق عينيها، ترفع رأسها فجأةً حتى يتناثر شعرها الذهبي الفاتح على نسيج «البلاش»[٧٠] الأحمر الذي يكسو ظهر المقعد. الشيء الغريب في إيماءاتها وتعبيراتها هو أنها لم تكن بالفعل توضح ما كانت تقوله. كانت نقيةً تقريبًا. بدا كما لو أن جسمها قد أدرك كم كانت كلماتها حمقاء وحاول أن يثير سامعيها كي لا يكونوا منتقدين. ونجح الأمر تلك الليلة؛ فما من أحد فكر حتى في الضحك منها. الحركة الوحيدة التي قاموا بها هي أن يضيقوا الحلقة من حولها.

وقف تود على الطرف الخارجي، يرقبها عبر الفتحة ما بين إيرل والمكسيكي. وعندما شعر بنقرة خفيفة على كتفه، عرف أنه هومر، لكنه لم يستدر. وعندما تكررت النقرة، هز كتفيه مبعدًا تلك اليد. بعد عدة دقائق، سمع حذاءً يصر خلفه واستدار ليرى هومر يبتعد على أطراف أصابعه. وصل إلى مقعد بأمان وغاص فيه مطلقًا تنهيدةً. وضع يديه الثقيلتين على ركبتيه؛ واحدةً على الأخرى، وحدَّق لوهلة في ظهورهم. أحس بعيني تود عليه وتطلع إليه وابتسم.

ضايقت ابتسامته تود. كانت واحدةً من تلك الابتسامات المثيرة للغضب التي تبدو وكأنها تقول: «يا صديقي.. ماذا يمكنك أن تعرف عن المعاناة؟» كان فيها شيء ما متفضِّل ومترفِّع للغاية، و متعالٍ لدرجة لا تُحتمل.

---

(٧٠) قماش ذو وبر ناعم وكثيف.

شعر بالسخونة وقليل من الغثيان. أدار ظهره لهومر، وخرج من الباب الأمامي. لم يكن خروجه الساخط ناجحًا جدًّا. تردد بشكل سيئ، وعندما وصل إلى الممشى الجانبي اضطر إلى أن يجلس على السور الحجري مسندًا ظهره على نخلة.

من مجلسه هذا لم يكن بإمكانه أن يرى المدينة في الوادي الكبير أسفل الوادي الضيق، لكن كان بمقدوره أن يرى انعكاس أضوائها، التي تعلقت في السماء فوقها مثل مظلة خفيفة من القماش المرقش. كان الجزء غير المضاء من السماء عند طرف المظلة عميق السواد وبه خط أزرق لا يكاد يُرى.

تبعه هومر خارجًا من المنزل، وظل واقفًا خلفه، خائفًا أن يقترب. لربما انسل مبتعدًا دون أن يعرف تود بذلك، لولا أنه نظر لأسفل بغتةً ورأى ظله.

«أهلًا» قال.

أشار لهومر كي ينضم إليه على السور.

«ستصاب بالبرد» قال هومر.

فهم تود احتجاجه. لقد احتج به لأنه أراد أن يتأكد من أن صحبته مُرحَّب بها بالفعل. ومع ذلك أبى تود أن يكرر الدعوة. بل إنه لم يستدر وينظر نحوه مرَّةً أخرى. كان متأكدًا أنه يحمل ابتسامته ذات المعاناة طويلة الأجل، ولم يكن يريد أن يراها.

تساءل تود متعجبًا لماذا تحول تعاطفه كله إلى حقد. بسبب فاي؟

كان من المستحيل عليه أن يسلِّم بهذا. لأنه لم يكن قادرًا على فعل أيّ شيء لمساعدته؟ كان هذا السبب مريحًا أكثر، لكنه نبذه بعد تفكير أقل حتى من سابقه. فهو لم يُنصِّب نفسه كمعالج أبدًا.

كان هومر ينظر في الاتجاه الآخر، نحو المنزل، مراقبًا نافذة الردهة. وكان يميل برأسه إلى أحد الجانبين عندما يضحك أحدهم. كانت الأصوات الأربعة القصيرة: ها-ها ومرة أخرى ها-ها، والنغمات الموسيقية البعيدة ، تصدر كلها عن القزم.

«يمكنك أن تتعلم منه» قال تود.

«ماذا؟» تساءل هومر مستديرًا لينظر إليه.

«دع الأمور تمضي».

نفاد صبره جرح وأربك هومر. فهم ذلك وأشار له أن يجلس، مؤكدًا على ذلك هذه المرَّة.

أطاع هومر. حاول أن يجلس القرفصاء وسقط سقطةً مؤذيةً. جلس يعالج ركبته.

«ما الأمر؟» قال تود أخيرًا، محاولًا أن يكون ودودًا.

«لا شيء يا تود.. لا شيء».

كان ممتنًّا وزاد من ابتسامته. لم يستطع تود أن يتجنب رؤية كل خصائصها المزعجة: الإذعان، والرقة، والاتضاع.

جلسا هادئين، هومر منحنيًا بكتفيه الثقيلتين وعلى وجهه ابتسامته الحلوة، وتود مقطبًا وظهره مضغوط بقوة على النخلة. في المنزل كان

المذياع يصدح بالموسيقى وكان دويّ صوته يملأ الشارع.

جلسا لوقت طويل دون حديث. شرع هومر مرات عديدةً في إخبار تود بشيء ما لكن لم يبدُ قادرًا على أن يُخرج الكلمات. وأبى تود أن يساعده بسؤال.

غادرت يداه الثقيلتان حِجره، حيث كانتا تلعبان «هنا الكنيسة وهنا برج الكنيسة» واختبئتا في إبطيه. ظلتا هناك للحظة، ثم انزلقتا تحت فخذيه. وبعد لحظة كانتا قد استقرتا عائدتين في حِجره. طرقعت اليد اليمنى مفاصل اليسرى واحدًا واحدًا، ثم قامت اليسرى بنفس الخدمة لليمنى. بدتا أكثر ليونةً للحظة، ولكن ليس طويلًا. بدأتا «هنا الكنيسة..»[٧١] مرةً أخرى، مرورا بأدائها كاملةً، وانتهاءً بطرقعة المفاصل مثلما سبق. بدأ مرةً ثالثةً، لكنه توقف عندما لمح عيني تود، وحبس يديه بين ركبتيه.

كان ذلك أصعب تقلص عضلي رآه تود في حياته. وما جعله مخيفًا بشكل خاص هو دقته. لم يكن بانتومايم، كما اعتقد في البداية، لكنه كان «باليه» يدويًّا.

وعندما رأى تود اليدين تبدآن في الزحف خارجتين مرةً أخرى، انفجر.

«من أجل خاطر المسيح!».

ناضلت اليدان لتتحررا، لكن هومر أحكم إغلاق ركبتيه وحجزهما.

(٧١) أغنية للأطفال تؤدى بمصاحبة حركات تعبيرية بأصابع اليدين.

«أنا آسف» قال.

«أوه .. حسنا».

«لكن لا يمكنني الامتناع عن ذلك يا تود. يجب أن أفعلها ثلاث مرات».

«لا تأبه لي».

وأدار ظهره له.

بدأت فاي تغني وتدفق صوتها إلى الشارع.

« حلمت بمراكبي طوله خمس أقدام

لا رقيق قوي ولا جامد قوي

ح تكون عالي، بس مش على طول

لو كنت غدار.. آه غدَّاااار».

بدلًا من أدائها السوينج[٧٢] المعتاد كانت تستخدم أداءً حزينًا، جاعلة النغم منتحبًا كما لو كانت أغنية عديد. وفي نهاية كل مقطع كانت تنتقل إلى نغمة مضافة من درجة القرار.

«أنا ملكة كل شيء

ح أكون عالية قبل ما أقدر أتمرجح

ولّع الشاي وخلّي اللي يكون يكون

لو كنت غدَّار.. آه غدَّاااار».

(٧٢) نمط موسيقي ذو إيقاع سريع ومطرِّد.

«إنها تغني بشكل بديع للغاية» قال هومر.

«إنها سكرانة».

«لا أعرف ماذا أفعل يا تود..» شكا هومر «إنها تشرب كميةً فظيعةً مؤخرًا. إنه هذا الإيرل. كنا نستمتع كثيرًا قبل أن يأتي، لكنا الآن لا نحصل على أيّ متعة على الإطلاق منذ أن بدأ ينضم إلينا».

«لماذا لا تتخلص منه؟».

«كنت أفكر فيما قلته عن ترخيص تربية الدواجن».

فهم تود ما يريد.

«سأبلغ عنهم (هيئة الصحة) غدًا».

شكره هومر، ثم أصر على أن يشرح بالتفصيل لماذا لا يمكنه أن يفعل ذلك بنفسه.

«لكن هذا سيخلصك من المكسيكي فقط..» قال تود «يجب عليك أن تلقي بإيرل إلى الخارج بنفسك».

«ربما سيمضي مع صديقه؟».

أدرك تود أن هومر يتوسل إليه كي يوافقه، حتى يمكنه أن يستمر في الأمل، لكنه رفض.

«ما من فرصة لذلك. ستضطر إلى إلقائه خارجًا».

تقبل هومر ذلك بابتسامته الشجاعة الحلوة.

«ربما...».

«قل لفاي أن تفعل ذلك» قال تود.

«أوه، لا أستطيع».

«لماذا بحق الجحيم؟ إنه بيتك».

«لا تكن غاضبًا عليّ يا تودي».

«حسنًا يا هومي، لست غاضبًا عليك».

أتى صوت فاي عبر النافذة المفتوحة.

« ولما حلقنا ينشف

ح تعرف إنك فوق

لو كنت غدار».

تناغم الآخرون مرددين الكلمة الأخيرة.

«غدَّاااار».

«تودي ..» بدأ هومر «لو..».

«كُفّ عن مناداتي بـ (تودي) لخاطر المسيح!».

لم يفهم هومر. وأخذ يد تود.

«لم أقصد شيئًا. في مدينتي ننادي..».

لم يستطع تود تحمل أمارات ودِّه المرتعشة. انتفض محررًا يده.

«أوه.. لكن يا تودي.. أنا..».

«إنها عاهرة!».

سمع هومر يئن بصوت متحشرج، ثم سمع ركبتيه تصرَّان وهو يناضل كي يقف على قدميه.

أتى صوت فاي منسابًا عبر النافذة؛ عويل كعويل الناي ينقطع في المنتصف بوقفة مبحوحة.

«فوق، فوق، فوق، فوق، لمَّا تكون بنفسك فوق

كل حاجه ح تبقى تمام

تتمشى براحتك لمحل الحلويات

تولَّع مناخيرك بالباستيليا

ساعتها تعرف إن جسمك اتبعت

ما يهمكش لو ما بتدفعش الإيجار

السما عاليه.. وأنا كمان

لو كنت غدَّار.. آه غدَّاااااار».

❋ ❋ ❋

٢٣

عندما عاد تود إلى داخل المنزل، وجد إيرل وإيب كوزيتش وكلود واقفين معًا في كتلة متلاصقة، يشاهدون فاي تراقص ميجيل. كانت هي والمكسيكي يرقصان رقصة تانجو بطيئةً على موسيقى منبعثةً من الفونوغراف. كان يمسك بها بإحكام شديد، وإحدى ساقيه مغروزة بين ساقيها، كانا يتمايلان سويًّا في لفَّات لولبية طويلة تنكسر مع الإيقاع عند ذروة كل منحنى في انخفاضة سريعة. كانت كل أزرار منامتها مفتوحةً، وذراعه التي وضعها حول وسطها كانت داخل ملابسها.

وقف تود يرقب الراقصين من على عتبة الباب للحظة، ثم ذهب إلى مائدة صغيرة كانت عليها زجاجة الويسكي. صبَّ لنفسه رُبع كأس جرعه دفعةً واحدةً، ثم صبّ كأسًا آخر. حمل كأسه وسار نحو كلود والآخرين. لم يعيروه اهتماما، فرؤوسهم كانت تتحرك فقط لمتابعة الراقصين، مثل جمهور المقصورة في مباراة تنس.

«هل رأيت هومر؟» تساءل تود وهو يلمس ذراع كلود.

لم يستدر كلود، لكن القزم استدار. وتحدث كما لو كان منوَّمًا:

«إيه المُزَّة دي! إيه المُزَّة دي!».

تركهم تود وذهب ليبحث عن هومر. لم يكن في المطبخ، لذلك جرَّب البحث في حجرات النوم. واحدة منها كانت موصدة. طرق برفق، وانتظر، ثم كرر الطرق. لم يأته رد، لكنه اعتقد أنه سمع شخصًا يتحرك. نظر عبر ثقب الباب. كانت الحجرة حالكة الظلمة.

«هومر..» نادى برفق.

سمع السرير يصرّ، ثم رد هومر:

«من هذا؟».

«إنه أنا .. تودي».

استخدم اسم التصغير بجدية تامة.

«اذهب من فضلك..» قال هومر.

«دعني أدخل للحظة. أريد أن أوضح شيئًا».

«لا..» قال هومر «اذهب من فضلك».

عاد تود إلى حجرة المعيشة. كانت أسطوانة الفونوغراف قد تغيرت إلى «فوكس تروت»(٧٣)، وكان إيرل الآن يراقص فاي. كان يحيطها بذراعيه الاثنين في ضمَّة عنيفة، وكانا يدوران متعثرين في أرجاء الحجرة، مصطدمين بالحوائط والأثاث. كانت فاي تضحك بنزق وقد ألقت برأسها إلى الوراء. أمَّا إيرل فقد كانت عيناه الاثنتان مغلقتين بإحكام.

(٧٣) (جرية الثعلب): موسيقى رقصة تتنوع خطواتها بين السرعة والبطء.

كان ميجيل وكلود يضحكان أيضًا، لكن القزم لم يكن يضحك. كان يقف وقد أطبق قبضتيه ورفع ذقنه. وعندما لم يعد بإمكانه أن يتحمل أكثر من هذا، جرى وراء الراقصين ليقاطعهما. وأمسك بِحِجْر بنطال إيرل.

«سيبني أرقص..» عوى صائحًا.

أدار إيرل رأسه ناظرًا إلى القزم من فوق كتفه.

«ياللا.. كملِّي.. ياللا!».

كان إيرل وفاي قد بلغا وقفةً وأذرعتهما حول بعضهما. وعندما خفض القزم رأسه مثل ماعز، وحاول أن يدفع نفسه بينهما، مدت يدها لأسفل وقرصت أنفه.

«سيبني أرقص!» جأر زاعقا.

حاولا أن يبدآ مرةً أخرى، لكن إيب لم يكن ليتركهما. وضع يديه بينهما وأخذ يحاول مسعورًا أن يفرقهما. وعندما لم يفلح هذا، ركل إيرل بحدة في قصبة ساقه. رد إيرل الركلة فهبط حذاؤه العالي مستقرًّا في بطن الرجل الصغير، مطيحًا به ليسقط متمددًا على ظهره. وضحك الجميع.

ناضل القزم ليقوم على قدميه، ووقف خافضًا رأسه مثل كبش ضئيل. وعندما بدأ إيرل وفاي يرقصان من جديد، اندفع مهاجمًا بين ساقي إيرل ولطمه رافعًا يديه الاثنتين. صرخ إيرل متألمًا، وحاول أن ينال منه. لكنه صرخ مرةً أخرى، ثم تأوه وبدأ يهوي إلى الأرض ممزقًا منامة فاي الحريرية في طريقه للسقوط.

أمسك ميجيل إيب من حلقه. فك القزم قبضته وهوى إيرل على

الأرض. رفع ميجيل الرجل الصغير دون عناء، ونقل قبضته ليمسك به من كاحليه، وضربه في الحائط، مثل رجل يقتل أرنبًا بسحقه في شجرة. ولفَّ القزم مرةً أخرى ليضربه من جديد، لكن تود أمسك بذراعه. ثم أمسك كلود بالقزم، ومعًا سحباه بعيدًا عن المكسيكي.

كان قد فقد وعيه. حملاه إلى المطبخ وأبقياه تحت الماء البارد. عاد إلى وعيه بسرعة، وبدأ يسب ويلعن. وعندما رأيا أنه في حالة طيبة، عادا إلى حجرة المعيشة.

كان ميجيل يساعد إيرل في الوصول إلى الأريكة. كانت كل سمرته قد انسحبت من وجهه الذي تغطى بالعرق. وسَّع ميجيل من بنطاله بينما خلع كلود ربطة عنقه وفكَّ ياقته.

كان تود وفاي يراقبان من جانب.

«انظر..» قالت «منامتي الجديدة تدمرت».

واحد من الكمين كان قد انتُزع تقريبًا وبرز كتفها منه. وتمزق البنطال أيضًا. وبينما هو يحدق فيها، فكَّت رباط البنطال وخطت خارجةً منه. كانت ترتدي لباسًا داخليًّا ضيقًا من الدانتيلا السوداء. أخذ تود خطوةً نحوها ثم تردد. ألقت بنصف المنامة السفلي على ذراعها، واستدارت بهدوء، ومشت نحو الباب.

«فاي..» لهث تود.

توقفت وابتسمت له.

«أنا ذاهبة للنوم..» قالت «أخرج هذا الشخص الضئيل من هنا».

اقترب كلود، وأمسك بذراع تود.

«هيا ننطلق» قال.

أومأ تود برأسه.

«من الأفضل أن نأخذ القزم معنا، وإلا فهو كفيل بقتل مَن في المنزل بأكمله»

أومأ تود برأسه مرةً أخرى، وتبعه إلى المطبخ. وجدا القزم يمسك بقطعة كبيرة من الثلج واضعًا إيَّاها على جانب رأسه.

«فيه شوية ورم مطرح ما المشحَّم خبطني».

جعلهما يتحسسانه بأصابعهما ويتعجبان.

«هيا نذهب إلى بيوتنا..» قال كلود.

«لأ..» قال القزم «ياللا نروحوا نشوفوا لنا شوية بنات. أنا خلاص باجهز».

«تبًّا..» رد تود بحدة «هيَّا..».

دفع القزم نحو الباب.

«شيل إيدك يا خيخة!» زأر الرجل الصغير.

خطا كلود بينهما.

«هوِّن عليك يا مُواطن!!» قال.

«ماشي.. بس من غير زقّ!».

تبختر خارجًا، وتبعاه.

كان إيرل ما زال متمددًا على الأريكة. كان قد أغلق عينيه، وأمسك أسفل بطنه بيديه الاثنتين. ولم يكن ميجيل هناك.

كتم القزم ضحكاته، وهو يهز رأسه الكبيرة بمرح.

«أنا ظبَّطت عمّ الكاوبوي ده!».

على الممشى في الخارج حاول مرةً أخرى أن يقنعهما بالذهاب معه.

«ما تياللا يا جدعان.. ح ننبسط شوية».

«أنا ذاهب إلى البيت..» قال كلود.

ذهبا مع القزم إلى عربته، وشاهداه يصعد خلف عجلة القيادة. كان لديه امتدادات خاصة في جهاز تعشيق التروس والفرامل؛ لكي يمكنه أن يبلغهما بقدميه الصغيرتين.

«جايين البلد؟».

«لا شكرًا..» قال كلود بأدب.

«طب في داهية انتم الاتنين!».

كانت هذه هي جملة وداعه. أطلق سراح الفرامل، وتدحرجت العربة مبتعدةً.

* * *

٢٤

استيقظ تود صبيحة اليوم التالي بصداع يكاد يقسم رأسه. اتصل بالاستديو ليقول إنه لن يأتي وظل في السرير حتى الظهر، ثم ذهب إلى وسط البلد ليتناول إفطاره. بعد عدة فناجين من الشاي الساخن شعر بتحسن طفيف وقرر أن يزور هومر. كان ما زال يريد أن يعتذر.

تسلُّق التل إلى (بينيون كانيون) جعل رأسه تخفق، وأحس بالراحة عندما لم يرد أحد على طرقاته المتكررة. وبينما كان يشرع في الرحيل، رأى إحدى الستائر تتحرك، فعاد ليطرق مرةً أخرى. ومن جديد لم يتلقَّ ردًّا.

استدار ذاهبًا إلى الجراج. كانت عربة فاي قد ذهبت، وكذلك ديوك المصارعة. ذهب إلى مؤخرة المنزل، وطرق على باب المطبخ. بطريقة ما بدا الصمت تامًّا بشكل زائد عن الحدّ. عالج المقبض، ووجد أن الباب لم يكن موصدًا. هتف «هاللو» عدة مرَّات، على سبيل التحذير، ثم ذهب عبر المطبخ إلى حجرة المعيشة.

كانت الستائر المصنوعة من المخمل الأحمر كلها مشدودةً بإحكام،

لكنه استطاع أن يرى هومر جالسًا على الأريكة ومحدِّقًا في ظهر يديه اللتين تكورتا على ركبتيه. كان يرتدي جلباب نوم قطنيًّا عتيق الطراز وقدماه حافيتان.

«استيقظتَ للتوّ؟».

لم يرد هومر، ولم يتحرك.

حاول تود مرةً أخرى.

«ياله من حفل!».

كان يعرف أنه من الغباء أن يكون مرحًا ووديدًا هكذا، لكنه لم يعرف ماذا يكون غير ذلك.

«يا فتى.. ها أنا مصاب بالصداع من ساعتها..» تابع ، بل وذهب إلى حدّ محاولة أن يضحك ضحكةً خافتةً.

لم يُعره هومر أدنى انتباه.

كانت الحجرة كما تركوها في الليلة السابقة بالضبط؛ الموائد والمقاعد مقلوبة والصورة المحطمة راقدة حيث سقطت. وليعطي نفسه سببًا للبقاء، بدأ تود يرتب الأشياء من حوله. عدل المقاعد، وشد السجادة، والتقط أعقاب السجائر التي تناثرت على البلاط. أزاح الستائر أيضًا وفتح نافذة.

«ها.. هكذا أفضل.. أليس كذلك؟» تساءل بمرح.

رفع هومر رأسه متطلعًا لثانية، ثم عاد ينظر ليديه مرةً أخرى. أدرك تود أنه بدأ يخرج من حالة ذهوله.

«أتريد بعض القهوة؟».

رفع يديه من على ركبتيه وخبأهما في إبطيه مثبِّتًا إيَّاهما بإحكام، لكنه لم يرد.

«بعض القهوة الساخنة.. ماذا تقول؟».

أخرج يديه من تحت ذراعيه، وجلس عليهما. وبعد انتظار لبرهة قليلة هز رأسه رافضًا، ببطء، وثقل، مثل كلب في أذنه «ذيل ثعلب» (٧٤).

«سأصنع بعضها..»

ذهب تود إلى المطبخ، ووضع الإناء على الموقد. وأثناء غليه، استرق النظر داخل حجرة فاي. كانت قد جُرِّدت. كل أدراج السرَّاحة كانت منزوعةً وامتلأت أرضية الحجرة بالصناديق الفارغة. قارورة عطر مكسورة رقدت في منتصف السجادة وفاح المكان برائحة الجاردينيا.

عندما أصبحت القهوة جاهزةً، صب فنجانين وحملهما على صينية إلى حجرة المعيشة. وجد هومر كما تركه تمامًا، جالسًا على يديه. قرَّب تود منه منضدةً صغيرةً ووضع الصينية عليها.

«جلبت فنجانًا لنفسي أيضًا..» قال «هيَّا.. اشربها وهي ساخنة».

---

(٧٤) «ذيل الثعلب»: نوع من الأعشاب الضارة التي تنمو فقط غرب المسيسبي، تكبر سريعًا أثناء أمطار الشتاء والربيع وتجف في شهور الصيف. عندما تنضج هذه الأعشاب، تتكون في أعلى ساقها بذرة تشبه ذيل الثعلب، ومن هنا جاءت التسمية. عند جفاف تلك الأعشاب تنفصل بذرتها بسهولة وتلتصق بالملابس والفرو. يمكن لهذه البذرة أن تدخل من أذن أو أنف أو بشرة الكلب وتتوغل في جسده. حجمها الصغير يجعل من الصعب اكتشافها إلا من أعراض مثل هز الرأس أو لعق المخلب أو تورم في الجسم أو العطس المفاجئ والمستمر. بذرة ذيل الثعلب في الأذن أو الأنف أو العين خطيرة جدًّا ويمكن أن تودي بحياة الكلب إذا لم يتم علاجها بسرعة.

رفع تود فنجانًا ومدَّ يده به، لكنه عندما رأى أن هومر سيتكلم، أنزله وانتظر.

« سأعود إلى (واينفيل)» قال هومر.

«فكرة هائلة.. عظيم!».

دفع القهوة إليه مرةً أخرى. تجاهلها هومر. بلع ريقه عدة مرَّات محاولًا ازدراد شيء ما محشور في حلقه، ثم بدأ ينشج. بكى دون أن يغطي وجهه أو يحني رأسه. كان صوت بكائه مثل فأس تقطع شجرة صنوبر؛ صوت ثقيل، وأجوف، ومتقطع. كان يتكرر في إيقاع متواتر لكن من دون نبرة. لم يكن هناك تغير فيه. كل جزء يشبه سابقه تمامًا. لم يكن ليصل إلى ذروة أبدًا.

أدرك تود ألا فائدة من محاولة إيقافه. لم يكن ليملك الشجاعة على فعل هذا إلا رجل شديد الغباء. ذهب إلى أبعد ركن في الحجرة وانتظر.

وبينما هوعلى وشك أن يشعل سيجارته الثانية ناداه هومر.

«تود !».

«أنا هنا يا هومر».

أسرع مهرولًا إلى الأريكة مرةً أخرى.

كان هومر ما زال يبكي، لكنه توقف بغتةً على نحو أكثر مفاجأةً مما بدأ.

«نعم يا هومر؟» سأل تود مشجعًا.

«لقد رحلت».

«نعم أعرف.. اشرب بعض القهوة».

«لقد رحلت».

كان تود يعرف أن هومر يؤمن إيمانًا كبيرًا بالأقوال المأثورة، لذلك جرَّب واحدًا.

«تخلُّصٌ جيدٌ من زبالة سيئة».

«رحلت قبل أن أستيقظ» قال.

«وما الذي يعنيك بحق الجحيم؟ أنت ستعود إلى (واينفيل)».

«لا يجب أن تلعن..» قال هومر بنفس الهدوء الأبله.

«أنا آسف..» تمتم تود.

كانت كلمة «آسف» مثل إصبع ديناميت انفجر تحت سدّ. قفز الكلام خارجًا من هومر في سيل عكر ملتوٍ. في البداية، اعتقد تود أنه سيفيده كثيرًا أن ينسال في الحكي هكذا. لكنه كان مخطئًا. فالبحيرة التي كانت خلف السدّ امتلأت مرةً أخرى وبسرعة هائلة. وكلما تكلم كلما تعاظم الضغط؛ لأن الفيضان كان دائريًّا وكان يجري عائدًا وراء السدّ من جديد.

بعد المضي في الحكي بشكل مستمر ولمدة حوالي عشرين دقيقة، توقف في منتصف جملة، مال إلى الخلف، وأغلق عينيه، وبدا أنه سقط نائمًا. وضع تود وسادةً تحت رأسه. وبعد مراقبته لوهلة رجع عائدًا إلى المطبخ.

جلس وحاول أن يخرج بمعنى مما أخبره به هومر. كان جزء كبير منه كلامًا مُبهمًا. لكن بعضه لم يكن كذلك. عثر على مفتاح رموز

ساعده؛ عندما أدرك أن كثيرًا من هذا الكلام لم يكن مختلطًا بقدر ما كان في غير أوانه. كانت الكلمات تأتي خلف بعضها بدلًا من أن تأتي وراء بعضها. وكان ما اعتبره خيوطًا طويلةً مجرد كلمة واحدة كثيفة في الحقيقة وليست جملة. وبنفس الطريقة كانت العديد من الجمل متوازية الحدوث وليست فقرة. باستخدام هذا المفتاح، استطاع أن يرتب جزءًا مما سمعه كي يأتي بمعنى مألوف:

بعد أن جرحه تود بقول ذلك الشيء القذر عن فاي، جرى هومر مستديرًا إلى مؤخرة البيت ودخل من خلال المطبخ، ثم ذهب ليختلس النظر إلى داخل الردهة. لم يكن غاضبًا من تود، لكنه كان فقط مندهشًا ومنزعجًا لأن تود كان فتًى لطيفًا. من الصالة التي كانت تؤدي إلى الردهة كان بإمكانه أن يرى الجميع يقضون وقتًا جيدًا وكان سعيدًا لأنه من المُمِّل نوعًا ما بالنسبة لفاي أن تعيش مع رجل كهل مثله. كان ذلك يجعلها ضجرةً. لم يلاحظه أحد وهو يسترق النظر هناك. كان سعيدًا لأنه لم يشعر برغبة كبيرة في مشاركتهم مرحهم، رغم أنه كان يحب مشاهدة الناس وهي تستمتع بوقتها. كانت فاي تراقص السيد إيستي وكانا يكوِّنان ثنائيًّا لطيفًا. بدت سعيدةً. وجهها كان مشرقًا مثلما يكون دائمًا عندما تكون سعيدةً. بعد ذلك رقصت مع إيرل. لم يُعجبه ذلك بسبب الطريقة التي كان يمسكها بها. لم يستطع أن يفهم ما يعجبها في هذا الشخص. هو فقط لم يكن لطيفًا، وهذا هو كل شيء. كانت له عينان حقيرتان. في عمله بالفنادق، كانوا يحترسون من الأشخاص المشابهين له ولم يكونوا يعطونهم الثقة أبدًا لأنهم من الممكن أن يهربوا من سداد فواتيرهم. ربما

لم يمكنه الحصول على وظيفة لأن أحدًا لم يثق به، رغم أنه كان صحيحًا كما قالت فاي أن الكثيرين كانوا بلا عمل في تلك الأيام. وفيما هو واقف هناك يتلصص على الحفل، ويستمتع بالضحك والغناء، رأى إيرل يمسك بفاي ويلوي ظهرها ويقبِّلها، وضحك الجميع رغم أنه كان بإمكانك أن ترى أن فاي لم يُعجبها ذلك؛ لأنها صفعته على وجهه. لم يبالِ إيرل، فقط قبَّلها مرَّةً أخرى، قبلةً قذرةً طويلةً. انفلتت مبتعدةً عنه، وجرت نحو الباب الذي كان يقف عنده. حاول أن يختبئ، لكنها أمسكت به. بالرغم من أنه لم يقل أيّ شيء، قالت إنه قذر يتجسس عليها، ولم تستمع عندما حاول أن يفسِّر. ذهبت إلى حجرتها، وتبعها ليكلمها بشأن التلصص، لكنها بقيت على فظاعتها، وألقت عليه المزيد من السباب بينما تضع الأحمر على شفاهها. حينئذ أسقطت زجاجة العطر على الأرض. ضاعف هذا من جنونها. حاول أن يشرح، لكنها لم تستمع، واستمرت فقط في نعته بكل أنواع البذاءات. لذلك ذهب إلى حجرته وخلع ملابسه وحاول أن ينام. عندئذ أيقظه تود وكان يريد أن يدخل ويتحدث. لم يكن غاضبًا، لكنه فقط لم يشعر بالرغبة في التحدث ساعتها، وكل ما كان يريد أن يفعله هو أن يخلد إلى النوم. ابتعد تود، ولم يكد يصعد عائدًا إلى سريره حتى حدثت جلبة وصراخ فظيع. خشى أن يخرج ويرى، وفكر في الاتصال بالشرطة، لكنه كان مرعوبًا لدرجة تمنعه من الخروج إلى الصالة، حيث كان الهاتف هناك، لذلك بدأ يلبس ليخرج من النافذة، ويذهب بحثًا عن النجدة؛ لأن الأمر بدا وكأنه جريمة قتل، لكن قبل أن ينتهي من ارتداء حذائه سمع تود يتكلم مع فاي، وتصوَّر أنه لا بد أن تكون الأمور بخير وإلا لم تكن

لتضحك، لذلك خلع ملابسه، وعاد إلى السرير مرَّةً أخرى. لم يستطع أن ينام متسائلًا عمَّا حدث، لذلك عندما أصبح البيت هادئًا انتهز الفرصة وطرق على باب فاي ليعرف الأمر. أذنت له فاي بالدخول. كانت متكوِّرةً في سريرها كفتاة صغيرة. نادته بـ «دادي»، وقبلته، وقالت له أنها ليست غاضبةً منه على الإطلاق. قالت إنه كانت هناك معركة، ولكن لم يُصب أحد بشكل بالغ، وقالت له أن يرجع إلى السرير، وأنهما سيتحدثان أكثر في الصباح. رجع مثلما قالت وسقط نائمًا، لكنه استيقظ ثانيةً بالضبط لحظة انبلاج ضوء النهار. في البداية تساءل عمَّا جعله يستيقظ لأنه عندما كان يسقط نائمًا لم يكن يصحو عادةً قبل أن يرنّ جرس المنبه. أدرك أن شيئًا ما قد حدث، لكنه لم يعرف ماهيته حتى سمع جلبة في حجرة فاي. كانت أنَّةً وظن أنه يحلم، لكنه سمعها مرةً أخرى. بالتأكيد كانت فاي تئن بالفعل. اعتقد أنها لا بد مريضة. تأوهت مرّةً أخرى وكأنها تتألم. قام من سريره، وذهب إلى بابها، وطرق، وسألها إذا ما كانت مريضةً. لم ترد، وتوقف الأنين، فرجع إلى سريره. بعد قليل تأوهت مرةً أخرى، فقام من سريره، معتقدًا أنها من الممكن أن تكون راغبةً في زجاجة ماء ساخن أو بعض الأسبرين وشربة ماء أو شيء ما وطرق على بابها مرةً أخرى، قاصدًا فقط أن يساعدها. سمعته وقالت شيئًا ما. لم يفهم ماذا، لكنه حسبها تقصد منه أن يدخل. مرَّات كثيرة عندما كانت تُصاب بصداع كان يحضر لها حبَّة أسبرين وكوبًا من الماء في منتصف الليل. لم يكن الباب موصدًا. كنت لتعتقد أنه كان يجدر بها أن توصد الباب لأن المكسيكي كان في السرير معها، كلاهما عارٍ وقد أحاطته بذراعيها. رأته فاي وشدت الملاءات فوق

رأسها دون أن تقول شيئًا. لم يعرف ماذا يفعل، فتقهقر بظهره خارجًا من الحجرة وأغلق الباب. كان واقفًا في الصالة محاولًا أن يستوعب ما يجب عليه فعله، وهو يشعر بخجل كبير من نفسه، عندما ظهر إيرل ممسكًا حذاءه العالي في يده. لابد أنه كان نائمًا في الردهة. كان يريد أن يعرف ما المشكلة. «فاي مريضة..» قال «وأنا أُحضر لها كوبًا من الماء». لكن عندئذ تأوهت فاي مرةً أخرى وسمعها إيرل. دفع الباب فانفتح. صرخت فاي. كان بمقدوره أن يسمع إيرل وميجيل يسبَّان بعضهما ويتعاركان. خشى أن يتصل بالشرطة بسبب فاي، ولم يعرف ماذا يفعل. استمرت فاي في الصراخ. عندما فتح الباب مرَّةً أخرى، سقط ميجيل خارجًا وفوقه إيرل وكلاهما يتجاذبان بعنف. جرى داخلًا الحجرة، وأوصد الباب. كانت تصرخ والملاءات على رأسها. كان بمقدوره أن يسمع إيرل وميجيل يتعاركان في الصالة، ثم لم يعد بإمكانه سماعهما بعد ذلك. أبقت الملاءات على رأسها. حاول أن يحادثها لكنها لم ترد. جلس على مقعد ليحرسها إذا ما عاد إيرل وميجيل، لكنهما لم يرجعا، وبعد فترة أزاحت الملاءات عن وجهها وأمرته أن يخرج. شدَّت الملاءات على وجهها مرةً أخرى عندما ردّ، لذلك انتظر حينها وقتًا أطول بقليل، ومرةً أخرى أمرته أن يخرج دون أن تتركه يرى وجهها. لم يمكنه أن يسمع ميجيل أو إيرل. فتح الباب ونظر خارجًا. كانا قد ذهبا. أوصد الأبواب والنوافذ وذهب إلى حجرته واستلقى على سريره. قبل أن يعي شيئًا سقط نائمًا، وعندما استيقظ كانت قد رحلت. كان كل ما استطاع أن يجده هو حذاء إيرل العالي في الصالة. ألقى به من الفناء الخلفي، وهذا الصباح كان قد اختفى.

٢٥

دخل تود إلى حجرة المعيشة ليرى كيف كان هومر. كان ما زال على الأريكة، لكنه كان قد غيَّر وضعه. كان قد لفّ جسمه الكبير متكوِّرًا. كانت ركبتاه مشدودتين إلى ذقنه تقريبًا، وكوعاه مثنيين على مقربة من بعضهما ويداه مستندتين على صدره. لكنه لم يكن مسترخيًا. قوة داخلية ما من الأعصاب والعضلات كانت تتوتر لتجعل الكرة مشدودةً، وتُبقيها مشدودةً. كان أشبه بزنبرك من الصلب قد تحرر من وظيفته في آلة ما وسُمح له أن يستخدم كل قوته منجذبًا نحو مركزه. حينما كان جزءًا من آلة كانت طاقة جذب الزنبرك مستخدمة ضد قوى أخرى أقوى، لكن الآن، وهو حرٌّ أخيرًا، كان من المجهد أن يحتفظ بشكل ملفِّه الأصلي.

الملفّ الأصلي... في كتاب عن علم نفس غير الأسوياء مستعار من مكتبة الكليَّة، كان قد رأى ذات مرَّة صورة امرأة نائمة في أرجوحة نوم مصنوعة من الشباك، وكان وضعها يشبه وضع هومر كثيرًا. «الطيران الرحميّ»، أو شيء من هذا القبيل، كان هو التعليق الموضوع تحت تلك الصورة الفوتوغرافية. كانت المرأة تنام في الأرجوحة دون أن تغيِّر وضعها؛ المشابه لوضع الجنين في الرحم، لسنوات كثيرة جدًّا. تمكن

أطباء مستشفى المجانين من إيقاظها فقط لفترات قصيرة من الوقت وفي شهور متباعدة.

جلس ليدخن سيجارةً، وتساءل عما يجب عليه أن يفعله. يستدعي طبيبًا؟ لكن في النهاية كان هومر مستيقظًا معظم الليل ومرهقًا. سيهزه الطبيب عدة مرات، وسيتثاءب، ويسأل ما الأمر. كان يمكنه أن يحاول إيقاظه بنفسه. لكن ألم يكن بالفعل مصدر بلاء بما فيه الكفاية؟ كان أفضل حالًا بكثير وهو نائم، حتى لو كان في حالة من «الطيران الرحميّ».

يا له من هروب تام ذلك الرجوع إلى الرحم. أفضل إلى أقصى حدّ من الدين أو الفن أو جزر بحر الجنوب. كانت هناك استكانة ودفء كبيران، والتغذية كانت آلية. كل شيء ممتاز في هذا الفندق. لا عجب أن ذكرى تلك الإقامة كانت تبقى في دم وأعصاب كل إنسان. كانت مظلمةً، نعم، لكن يا لها من ظلمة دافئة وثرية. لم يكن فيها شيء من القبر. لا عجب أن المرء كان يقاتل يائسًا ضد أن يُطرَد عندما تنتهي فترة إيجار التسعة أشهر.

سحق تود سيجارته. كان جائعًا ورغب في تناول غدائه، ومعه كأس مزدوج من السكوتش والصودا. بعد أن يتناول طعامه، سيعود ويرى كيف سيكون هومر. لو كان ما زال نائمًا، سيحاول إيقاظه. وإذا لم يستطع يمكنه أن يستدعي طبيبًا.

ألقى نظرةً أخرى عليه، ثم خرج من البيت على أطراف أصابعه، وهو يغلق الباب خلفه بحرص.

٢٦

لم يذهب تود للغداء مباشرةً. مضى أولًا إلى متجر سروج (هودج)، معتقدًا أنه من المحتمل أن يتمكن من معرفة شيء عن إيرل، ومن ثمَّ عن فاي. كان كالفن واقفًا هناك مع هندي متجعد له شعر طويل مربوط بشريط من الخرز حول جبهته. وتدلت على صدر الهندي لوحة إعلانية مزدوجة كُتب عليها:

بازار تاتل

لـ

الآثار الأصلية للغرب القديم

خرز، فضة، مجوهرات، نعال جلدية

عرائس، لعب، كتب نادرة، بطاقات بريدية

عُد بتذكار

من

بازار تاتل

كان كالفن ودودًا دائمًا.

«يا أهلًا!» هتف عندما اقترب تود.

«أعرفك بالزعيم..» أضاف بابتسامة عريضة «الزعيم (كيس ـ ماي ـ توكاس [٧٥])».

ضحك الهندي بحماس من النكتة.

«الواحد لازم يعيش..» قال.

«ما ظهرش إيرل النهارده؟» تساءل تود.

«أيوه.. عدَّى من ساعة..».

«أصل كنا فـ حفلة ليلة امبارح وأنا..».

قاطعه كالفن بخبطة عنيفة على فخذه بباطن كفه.

«كانت تقريبًا حفلة سُكْر صغيره زيّ ما حكى إيرل.. مش كده يا كبير؟».

«كنت هناك يا شارلي؟[٧٦]» وافقه الهندي مظهرًا جوف فمه الأسود، ولسانه الأرجواني وأسنانه البرتقالية المكسورة.

«سمعت إنه حصلت عركه بعد ما مشيت..».

---

(٧٥) أي (قبِّل مؤخرتي).

(٧٦) تعبير شاع في أمريكا لفترة في ثلاثينات القرن العشرين نقلًا عن برنامج إذاعي كوميدي كان بطله هو الممثل «جاك بيرل» الذي كان يقوم بدور بارون من أصل ألماني يحكي حكايات طويلة لرجل يُدعى شارلي.. وكلما أبدى الرجل تشككًا أسكته البارون بهذه الجملة التي ينطقها بلكنته الألمانية "vas you dere, Sharley?" (أشبه بشخصيتي أبي لمعة والخواجة بيجو في برنامج ساعة لقلبك المصري في خمسينيات القرن العشرين).

خبط كالفن فخذه مرةً أخرى.

«أكيد.. كان فيه سواد حوالين عينين إيرل.. هاهاي!!».

«ده اللي بييجي من مصاحبة واحد مكسيكي وسخ..» قال الهندي بانفعال.

دخل هو وكالفن في جدال طويل حول المكسيكيين. قال الهندي إنهم جميعًا سيئون. وزعم كالفن أنه قد عرف قلةً قليلةً من المكسيكيين في عمره. وعندما استشهد الهندي بحادثة (الإخوة هيرمانوس) الذين قتلوا شخصًا وحيدًا ينقب عن المعادن من أجل نصف دولار، ردّ عليه كالفن بحكاية طويلة عن رجل يُدعى (توماس لوبيز) والذي اقتسم آخر ثُمن جالون من الماء لديه مع شخص غريب عندما ضل الاثنان طريقهما في الصحراء.

حاول تود أن يعيد المحادثة إلى ما يهمه.

«المكسيكيين شطار قوي مع الستات..» قال.

«بس أشطر مع الخيول..» قال الهندي «أنا فاكر مرَّة على طول نهر البرازوس [٧٧]، أنا...».

حاول تود مرَّةً أخرى.

«اتعاركوا ع البنت بتاعة إيرل.. مش كده؟».

«ما سمعناهوش بيقول حاجة عن كده..» قال كالفن «بيقول السبب

(٧٧) أطول نهر في ولاية تكساس ، سمَّاه المستكشفون الإسبانيون الأوائل (ريو دي لوس برازوس دي ديوس) أي (نهر ذراعي الرب).

الفلوس.. بيقول المكسيكي سرقه وهو نايم.».

«الفار الوسخ الحرامي!» قال الهندي وهو يبصق.

«بيقول إنه خلاص مافيش أيّ حاجة بينه وبين المومس دي..» تابع كالفن «أيوة تمام.. دي حكايته.. ده اللي قاله بلسانه.».

نال تود ما يكفيه.

«طب سلام بقى..».

«سعيد بمقابلتك» قال الهندي.

«إوعى تاخد أي نكلة خشب»[٧٨] صاح كالفن في أثره.

تساءل تود عمَّا إذا كانت قد ذهبت مع ميجيل. ظن أنه من الأرجح أنها ستعود لتعمل لدى مدام چيننج. لكن في الحالتين ستخرج بسلام. لم يكن باستطاعة شيء أن يؤذيها. كانت أشبه بقطعة من الفلِّين؛ مهما كان البحر هائجًا، ستمضي راقصةً فوق نفس الأمواج التي أغرقت سفنًا حديديةً وانتزعت أعمدةً من الخرسانة المُسلَّحة. تخيلها وهي تركب بحرًا هائلًا، وموجةً في إثر موجة تشيد طنًّا فوق طن من الماء المتكتل، وتسقط متحطمةً بينما هي فقط تدور حول نفسها مبتعدةً في مرح.

عندما وصل إلى مطعم «موسو فرانك» طلب شريحة لحم وكأسًا مزدوجًا من السكوتش. أتى الشراب أولًا، وجلس يرتشفه بينما عينه الداخلية ما زالت على قطعة الفلين التي تدور حول نفسها.

كانت قطعةً شديدة الجمال من الفلين، ذهبيةً بكسرة لامعة من مرآة

(٧٨) مثل أمريكي، بمعنى: كن حريصًا في تعاملاتك.

مثبتة أعلاها. كان البحر الذي ترقص فيه جميلًا، أخضر في غور الأمواج وأبيض عند قممها. لكن بالرغم من كل قوة تلك الأمواج التي يتحكم فيها القمر، لم يكن بوسعها أن تفعل شيئًا أكثر من أن تطوِّق الفلينة اللامعة للحظة بزَبَد من رباط مُعقَّد. وفي النهاية رست على شاطئ غريب حيث التقطها شخص بدائي بأصابع مثل سجق لحم الخنزير وعجيزة مليئة بالبثور، وضمها على بطنه المترهلة. تعرف تود على الرجل المحظوظ؛ كان أحد زبائن مدام چيننج.

أحضر النادل طلبه، وتوقف قليلًا بظهر منحنٍ منتظرًا تعليق تود. هيهات. كان تود منشغلًا إلى حد بعيد، لدرجة تمنعه من اختبار شريحة اللحم.

«هل هو مُرضٍ يا سيدي؟» سأل النادل.

أشاح تود صارفًا إياه، وكأنه (يهش) ذبابًا. اختفى النادل. حاول تود كذلك أن (يهش) ما كان يشعر به، لكن الحكَّة العاتية أبت أن تنصرف. لو فقط كانت لديه الشجاعة أن ينتظرها ذات ليلة ويضربها بزجاجة ويغتصبها.

كان يعرف كيف سيكون الكمون في الظلام في استديو فارغ، منتظرًا إيَّاها. وأيًّا كان هذا الطائر الذي يغني ليلًا في كاليفورنيا، فسيتمزق قلبه في تهدجات وامتدادات مسرحية، وسيفوح هواء الليل البارد برائحة القرنفل الحرِّيفة. ستقود عربتها مقتربةً، وتطفئ المحرك، وتنظر عاليًا إلى النجوم حتى أن نهديها سيرتفعان، ثم تلقي برأسها إلى الخلف وتتنهد. ستلقي بمفاتيح التشغيل في كيس نقودها وتغلقه بسرعة، ثم تخرج من العربة.

خطوتها الواسعة التي ستخطوها، سترفع فستانها الضيق لكي تظهر بوصة من اللحم المتوهج أعلى جوربها الأسود. وعندما يقترب هو بحذر، ستكون منشغلةً بجذب فستانها لأسفل وتسويته بلطف فوق وركيها.

«فاي.. فاي.. دقيقه بس..» سينادي.

«مين؟ تود! أهلًا!».

ستمد له يدها في نهاية ذراعها الطويل الذي ينحدر برشاقة بالغة ليلتقي بكتفها المستدير.

«خوِّفتني!».

ستبدو مثل غزالة على حافة الطريق، عندما تأتي عربة نقل كبيرة على غير توقع حول المنعطف.

كان بإمكانه أن يشعر بالزجاجة الباردة التي يمسك بها خلف ظهره، والخطوة التي سيأخذها للأمام كي يأتي بـ...

«هل توجد أي مشكلة فيه يا سيدي؟».

كان النادل الشبيه بالذبابة قد عاد. أشاح تود في اتجاهه، لكن هذه المرة استمر الرجل يحوم.

«ربما ترغب في أن أعيده يا سيدي؟».

«لا.. لا».

«شكرًا يا سيدي».

لكنه لم يرحل. انتظر ليتأكد من أن الزبون سيأكل بالفعل. التقط تود

سكينه وقطع جزءًا. ولم يرحل الرجل إلا بعد أن وضع في فمه كذلك بعضًا من البطاطس المسلوقة.

حاول تود أن يستعيد مجرى الاغتصاب مرةً أخرى، لكنه لم يشعر بالزجاجة وهو يرفعها ليضرب. فاضطر أن يقلع عن المحاولة.

عاد النادل. نظر تود إلى شريحة اللحم. كانت شريحةً جيدةً للغاية، لكنه لم يعد جائعًا على الإطلاق.

«الحساب من فضلك..».

«ألا تريد شيئًا من الحلوى يا سيدي؟».

«لا. شكرًا.. الحساب فقط».

«ها هو الحساب يا سيدي» قال الرجل بمرح، وهو يتحسس جيوبه بحثًا عن نوتته وقلمه.

❊ ❊ ❊

٢٧

عندما وصل تود إلى الشارع، رأى دستةً من حزم ضوء بنفسجية هائلة تتحرك عبر سماء المساء في اندفاعات واسعة ومجنونة. وكلما وصل واحد من تلك الأعمدة المتقدة إلى أدنى نقطة في قوسه، أضاء للحظة القباب ذات اللون الوردي والمآذن المرهفة لـ (مسرح القصر الفارسي) المملوك لـ (كاهْن). كان الغرض من هذا الاستعراض هو الإعلان عن العرض العالمي الأول لفيلم جديد.

أدار تود ظهره للكشافات، وشرع يمشي في الاتجاه العكسي؛ نحو بيت هومر. قبل أن يقطع مسافةً طويلةً، رأى ساعةً أشارت بأنها السادسة إلا الربع، فغيَّر رأيه بشأن العودة التي لم يحن وقتها بعد. لعله كذلك يترك هذا المسكين ينام لساعة أخرى، ويقتل بعض الوقت بمشاهدة الجموع.

كان قد بقي أمامه صف من البيوت قبل أن يصل إلى المسرح، عندما رأى لافتةً كهربيةً هائلةً عُلقت فوق منتصف الشارع. في حروف بارتفاع عشرة أقدام قرأ أن:

«السيِّد كاهْن .. قبة متعة مُرخَّصة».

رغم أنه كان ما زال هناك عدة ساعات قبل وصول النجوم، كان آلاف الأشخاص قد تجمعوا بالفعل. وقفوا مواجهين المسرح مُوَلِّين ظهورهم لقناة تجمُّع مياه الأمطار في صف كثيف يمتد لمئات الأقدام. وكانت فرقة كبيرة من رجال الشرطة تحاول الإبقاء على ممر ضيق مفتوحًا بين الصف الأمامي من الجموع وواجهة المسرح.

دخل تود الممر، بينما كان رجل الشرطة المكلف بحراسته مشغولًا بامرأة تمزق كيس مشترياتها، وانفتح مسقطًا برتقالات ملأت المكان بأكمله. صاح فيه رجل شرطة آخر كي يعبر الشارع بحق الجحيم، لكنه انتهز الفرصة وتابع المسير. كان لديهم ما يكفيهم ويحول دون مطاردته. لاحظ كم بدوا قلقين وكم حاولوا أن يكونوا حذرين. إذا اضطروا للقبض على أحدهم، كانوا يمزحون بروح طيبة مع ذلك المتهم، مخففين الأمر حتى يأتوا به خلف الناصية، وعندئذ يتصيدونه بهراواتهم. فقط طالما كان الرجل بالفعل جزءًا من الحشد كانوا يضطرون لأن يكونوا لطيفين.

لم يمشِ تود غير مسافة قصيرة بطول الممر الضيق، حتى بدأ ينتابه الخوف. كان الناس يتصايحون، ويعلقون على قبعته، ومشيته، وملابسه. كان هناك هدير مستمر من صفير الاستهجان والضحك والصياح، تخترقه صرخة حادة بين الفينة والفينة. كانت تلك الصرخة تتبعها عادةً حركة مفاجئة في الحشد الكثيف، ويتدفق جزء منه للأمام حيثما كان صف الشرطة في أضعف نقاطه. وبمجرد أن يُدَّك هذا الجزء للخلف، كان النتوء يبرز خارجًا في موضع آخر.

ستضطر قوة الشرطة لأن تتضاعف عندما يبدأ النجوم في الوصول. فلدى رؤية أبطالهم وبطلاتهم، سيتلبس الحشد مسٌّ من الشيطان. حركة صغيرة ما، سواء كانت مبهجةً بشكل زائد أو مهينةً بشكل زائد، ستطلق عنانهم وعندئذ لن يوقفهم شيء غير البنادق الآلية. ربما يكون غرض أعضاء هذا الحشد كل على حدة هو ببساطة الحصول على تذكار، لكن بشكل جماعي سينتزعون ويُمزِّقون.

كان هناك شاب بميكروفون محمول يصف المشهد. وكان صوته المتسارع الهيستيري يشبه صوت واعظ سلفيّ يسوط طائفته نحو نشوة نوبات الانجذاب:

«ياله من حشد أيها الناس! يا له من حشد! لابد وأن هناك عشرة آلاف من المعجبين المتلهفين الصارخين خارج قصر كاهْن الفارسي الليلة. الشرطة لا تستطيع أن تسيطر عليهم. ها هم.. اسمعوهم يهدرون..».

مد يده بالميكروفون، فتصايح من أجله بكرم وافر هؤلاء القريبون منه.

«هل سمعتم هذا؟ إنها حالة من الهرج والمرج يا قوم! هرج ومرج حقيقي! يا لها من إثارة! من بين كل العروض الأولى التي حضرتها، هذا هو الأكثر.. الأكثر.. إذهالًا أيها الناس! هل يمكن للشرطة أن تسيطر عليهم؟ هل يمكنهم ذلك؟ لا يبدو هذا أيها الناس!».

أتت فرقة أخرى من رجال الشرطة المتحفزين. ناشد الرقيبُ المذيعَ أن يقف مسافة أبعد إلى الخلف، حتى لا يتمكن الناس من سماعه. وألقى رجاله بأنفسهم على الحشد. تركت الجموع أنفسها تُدفع بخشونة

وتُزاح بحكم العادة ولأنهم كانوا يفتقرون لهدف. تحملوا رجال الشرطة بالضبط كما يفعل الفيل عندما يسمح لولد صغير أن يقوده بعصا خفيفة.

تمكن تود من رؤية قلة قليلة من أناس بدوا غلاظًا، ولم يمكنه أن يرى أي عُمَّال. تكوَّن الحشد من الطبقات الوسطى الدنيا، ومن كل شخصين كان هناك واحد من مُلهميه.

بالضبط عندما اقترب من نهاية الممر، انغلق أمامه بحركة تدافع، واضطر أن يقاتل ليشق طريقه. دفع شخص ما قبعته فسقطت، وعندما توقف ليلتقطها ركله شخص ما. استدار بغضب ووجد نفسه محاطًا بالناس وهم يضحكون منه. كان على معرفة كافية لكي يضحك معهم. أصبح الحشد متعاطفًا. خبطته امرأة متينة البنيان على ظهره، بينما ناوله رجل قبعته بعد أن مسحها بكُمِّه بعناية. وكان رجل آخر ما زال يصرخ ليُخلوا له طريقًا.

بقدر كبير من الدفع والتلوِّي، محاولًا دائمًا أن أن يبدو كأنه يستمتع بوقته، تمكن تود أخيرًا من الانفلات إلى البراح. بعد إعادة ترتيب ملابسه، انتقل إلى موقف سيارات وجلس على السور الحاجز المنخفض الذي امتد بطول واجهته.

استمرت مجموعات جديدة، وعائلات بأكملها، في التوافد. كان يمكنه أن يرى تغيرًا يعتريهم بمجرد أن يصبحوا جزءًا من الحشد. حتى اللحظة التي يصلون فيها إلى الصف كانوا يبدون مختلفين، تقريبًا ماكرين، لكن لحظة أن يصبحون جزءًا من الجموع كانوا يستحيلون متغطرسين ومشاكسين. كان من الخطأ أن تظنهم باحثي طرائف غير

مؤذين. كانوا متوحشين وقساةً، خاصةً متوسطي العمر والعجائز، وقد غدوا هكذا بفعل الملل والإحباط.

طوال حياتهم كانوا عبيدًا لنوع ما من العمل الممل والمُضني، خلف المكاتب و الطاولات، في الحقول ووراء الماكينات المضُجرة من كافة الأنواع، مدخرين قروشهم وحالمين بالرفاهية التي ستكون لهم عندما يمتلكون ما يكفي. أخيرًا أتى هذا اليوم. أصبح بإمكانهم أن يسحبوا إيرادًا أسبوعيًّا قدره عشرة أو خمسة عشر دولارًا. إلى أي مكان آخر ينبغي أن يذهبوا غير كاليفورنيا؛ أرض الشمس الساطعة والبرتقال؟

وإذ يأتون هناك، فإنهم يكتشفون أن سطوع الشمس ليس كافيًا. يسأمون البرتقال، بل والأفوكادو والفواكه الاستوائية. لا شيء يحدث. لا يعرفون ماذا يفعلون بوقتهم. لا يملكون الإمكانات الذهنية اللازمة للرفاهية، ولا المال، ولا الإمكانات الجسمانية اللازمة للمتعة. هل استُعبدوا طوال هذا العمر فقط كي يذهبوا في رحلة خلوية إلى (أيوا) كلما اتُفق؟ ماذا هنالك أيضًا؟ هم يشاهدون الأمواج وهي تأتي في فينيسيا[٧٩]. لم يكن هناك أيّ محيط حيث أتى معظمهم، لكن بعد أن ترى موجةً واحدةً فقد شاهدتها جميعًا. نفس الأمر صحيح بالنسبة للطائرات في (جليندیل)[٨٠]. لو فقط تحطمت طائرة مرةً كل فترة لكي يمكنهم أن يروا الركاب وهم يتبددون في «محرقة اللهب» كما تقول

(٧٩) مقاطعة غربي لوس أنجلوس بكاليفورنيا، مشهورة بقنواتها وشواطئها وكورنيش محيطها الأشبه بالسيرك، حيث تجد المؤدين بملامح الوجه وقارئي الغيب والباعة.

(٨٠) مدينة في لوس أنجلوس، اشتهرت بدورها الكبير في رعاية عصر الطيران الناشئ بمطارها المركزي الكبير الذي اندثر الآن.

الجرائد!! لكن الطائرات لا تتحطم أبدًا.

يزداد مللهم فظاعةً أكثر فأكثر. يدركون أنهم قد خُدعوا ويشتعلون غيظًا. في كل يوم من حياتهم كانوا يقرأون الجرائد، ويذهبون لمشاهدة الأفلام. وغذتهم الجرائد والأفلام بحوادث الإعدام من دون محاكمة والقتل وجرائم الجنس والانفجارات والحطام وأعشاش الحب والحرائق والمعجزات والثورات والحروب. هذه الوجبة اليومية جعلت منهم متثاقفين. الشمس نكتة. والبرتقالات لا يمكنها أن تدغدغ حواس تذوقهم المنهكة. ليس ثمة من شيء يمكنه أن يبلغ من العنف ما يقدر به أن يشد عقولهم وأجسادهم المرتخية. لقد خُدعوا وغُرر بهم. لقد كدحوا وادخروا من أجل لا شيء.

وقف تود. خلال الدقائق العشرة التي جلس فيها على السور، كان الحشد قد نما ثلاثين قدمًا، وخشى أن يُحال بينه وبين الهرب إذا توانى أكثر من ذلك. عبر إلى الجانب الآخر من الشارع وبدأ طريق العودة.

كان يحاول أن يقرر ما يجب عليه فعله إذا لم يستطع أن يوقظ هومر، عندما ـ فجأةً رأى رأسه تبرز من فوق الحشد. أسرع ناحيته. من مظهره كان واضحًا أن هناك شيئًا ما خطأً بلا شك.

كان هومر يمشي مثل رجل آلي سيئ الصنع -أكثر من كل مرة- وقد اكتست ملامحه بتكشيرة ميكانيكية صارمة. كان يرتدي بنطلونه فوق جلباب نومه، وقد تدلى جزء منه خارجًا من ثنية قماش السوستة. كانت هناك حقيبة سفر في كل يد. ومع كل خطوة، كان يميل إلى جانب، ثم الآخر، مستخدمًا الحقيبتين لحفظ توازنه.

توقف تود أمامه مباشرة، سادًّا طريقه.

«إلى أين أنت ذاهب؟».

«واينفيل..» رد مستخدمًا مقدارًا غير عادي من حركة الفك ليخرج هذه الكلمة الوحيدة.

«هذا طيب.. لكن لا يمكنك أن تمشي إلى المحطة من هنا. إنها في لوس أنجلوس».

حاول هومر أن يلتف حوله، لكنه أمسك بذراعه.

«سنأتي بتاكسي.. أنا سأذهب معك».

كانت كل عربات الأجرة تغير مسارها لتلتف حول صف البيوت بسبب هذا العرض الأول. شرح هذا لهومر، وحاول أن يجعله يمشي حتى الناصية.

«هيَّا.. من المؤكد أن نجد واحدًا في الشارع التالي».

بمجرد أن يُدخله في عربة الأجرة، كان تود ينتوي أن يأمر السائق بالذهاب إلى أقرب مستشفى. لكن هومر لم يكن ليتزحزح، مهما جذبه بعنف أو ناشده بقوة. توقف أناس ليتفرجوا عليهما، وأدار آخرون رؤوسهم بفضول. قرر أن يتركه ويأتي بعربة أجرة.

«سأعود على الفور..» قال.

لم يكن بإمكانه أن يتبين سواء من عيني هومر أو تعبيره إذا ما كان قد سمع، لأن كلتيهما كانتا خاليتين من كل شيء، حتى الضيق. عند الناصية التفت ناظرًا، ورأى أن هومر كان قد بدأ يعبر الشارع، متحركًا كالأعمى.

صرخت الفرامل وكاد أن يُدهس مرتين، لكنه لم ينحرف أو يسرع. كان يتحرك في خط قُطري مستقيم. وعندما وصل إلى الناحية الأخرى، حاول أن يصعد إلى الرصيف عند نقطة كان الزحام فيها كثيفًا للغاية، ودُفع للخلف بعنف. حاول مرةً أخرى، وفي هذه المرَّة أمسكه رجل شرطة من قفاه، ودفعه إلى آخر الصف. وعندما أفلته الشرطي، استمر في المشي كأن شيئًا لم يحدث.

حاول تود أن يصل إليه، لكنه لم يستطع أن يعبر حتى تغيرت أضواء المرور. وعندما وصل إلى الناحية الأخرى، وجد هومر جالسًا على دكة على بُعد خمسين أو ستين قدمًا من أطراف الزحام.

وضع ذراعه حول كتف هومر، واقترح عليه أن يمشيا عدة صفوف أخرى من البيوت. عندما لم يرد هومر، مد يده ليلتقط واحدة من الحقيبتين. تشبث هومر بها.

«سأحملها من أجلك» قال وهو يشد برقة.

«حرامي!».

قبل أن يتمكن هومر من إعادة الصيحة، قفز مبتعدًا. سيكون الأمر مُربكًا للغاية لو صاح هومر «حرامي!» أمام شرطي. فكر في أن يتصل بالإسعاف. لكن عندئذ، وفي نهاية الأمر، كيف يمكنه أن يكون واثقًا من أن هومر مجنون؟ كان يجلس بهدوء على الدكة، متدبرًا أمر نفسه.

قرر تود أن ينتظر، ثم يحاول مرةً أخرى أن يُدخله في عربة أجرة. كان الحشد يتعاظم في الحجم طوال الوقت ، لكن بقي أمامه نصف ساعة

على الأقل قبل أن يدهس الدكة. وقبل أن يحدث هذا، كان عليه أن يفكر في خطة ما. تحرك مبتعدًا لمسافة قصيرة، ووقف موليًا ظهره لواجهة متجر؛ كي يمكنه أن يراقب هومر دون أن يجذب الانتباه.

على مبعدة عشرة أقدام من حيث كان هومر جالسًا، نمت شجرة أوكالبتوس ضخمة وخلف جذعها كان ولد صغير. رآه تود يسترق النظر حولها بحرص كبير، ثم يرتد برأسه فجأةً إلى الوراء. وبعد دقيقة كرر المناورة. في البداية ظن تود أنه يلعب (الاستغمَّاية)، ثم لاحظ أن لديه خيطًا في يده مربوطًا بكيس نقود قديم ملقى أمام دكة هومر. وكل فترة كان الطفل ينتر الخيط؛ جاعلًا الكيس ينط مثل ضفدع كسول. تدلت بطانته الممزقة من فمه الحديدي مثل لسان مكسو بالفراء، وحامت عليه بضع ذبابات غير واثقة.

كان تود يعرف اللعبة التي يلعبها الطفل. اعتاد أن يلعبها هو نفسه عندما كان صغيرًا. إذا مد هومر يده ليلتقط الكيس، معتقدًا أن به مالًا، سيجذبه الطفل بعيدًا ويصرخ ضاحكًا.

عندما توجه تود إلى الشجرة، فوجئ باكتشافه أنه آدور لوميس، الطفل الذي كان يعيش في الناحية الأخرى من الشارع أمام هومر. حاول تود أن يطارده، لكنه راوغ حول الشجرة واضعًا إبهامه على أنفه وفاردًا بقية أصابعه ساخرًا. كف تود عن مطاردته، وعاد إلى موضعه الأصلي. وفي اللحظة التي تركه فيها، انشغل آدور بكيس نقوده مرةً أخرى. لم يُعر هومر أيّ اهتمام للطفل، لذلك قرر تود أن يتركه وحده.

لابد وأن السيدة لوميس في مكان ما وسط الحشد، هكذا فكر تود.

والليلة عندما تعثر على آدور ستعطيه علقةً. فقد مزق جيب سترته وياقته (الباستر براون) تلطخت بالشحم.

أصبح مزاج آدور سيئًا لدرجة القذارة. الإهمال التام الذي تعامل به هومر معه ومع كيس نقوده جعله شديد الاهتياج. كف عن ترقيص كيسه بطرف الخيط، واقترب من الدكَّة على أطراف أصابعه، معوجًا ملامح وجهه في تعبيرات ضارية، ولكن متأهبًا للجري لدى أول حركة من هومر. توقف عندما كان على مبعدة أربعة أقدام تقريبًا، وأخرج لسانه بشدة. تجاهله هومر. أخذ خطوةً أخرى للأمام، واستمر يكرر من الإيماءات المهينة.

لو عرف تود أن الولد كان يمسك بحجر في يده، لكان قد تدخل. لكنه أحس بالثقة من أن هومر لن يؤذي الطفل، وكان ينتظر ليرى إذا ما كان لن يتحرك بسبب إزعاجه. عندما رفع آدور ذراعه، كان الوقت قد فات. ضرب الحجر هومر في وجهه. استدار الولد ليهرب، لكنه تعثر وسقط. وقبل أن يتمكن من الزحف مبتعدًا، هبط هومر على ظهره بقدميه الاثنتين، ثم قفز مرةً أخرى.

صرخ تود فيه كي يتوقف وحاول أن يجذبه بعيدًا. لكن هومر دفعه واستمر مستخدمًا كعبيه. ضربه تود بأقصى ما يمكنه من قوة، أولًا في بطنه، ثم في وجهه. تجاهل الضربات، وظل يدوس بقوة على الولد. ضربه تود مرةً أخرى وأخرى، ثم ألقى بذراعيه الاثنتين حوله، وحاول أن يشده بعيدًا. لم يستطع أن يزحزحه. كان مثل عمود من الحجر.

ما عرفه تود بعد ذلك، انه انتُزع بعيدًا عن هومر، وأُلقي على ركبتيه بفعل ضربة على مؤخرة رأسه جعلته يدور حول نفسه مائلًا. كان الحشد الواقف أمام المسرح قد هجم. وكان هو محاطًا بسيقان وأقدام رافسة. أمسك بمعطف رجل ليجذب نفسه واقفًا، ثم ترك نفسه ليُحمل إلى الخلف في انقضاضة طويلة مقوَّسة. رأى هومر يرتفع فوق الحشد للحظة، مدفوعًا نحو السماء، وقد تدلى فكُّه كما لو أنه كان يرغب في الصراخ ولم يستطع. ارتفعت يدٌ وأمسكته من فمه المفتوح، وشدته إلى الأمام وإلى أسفل.

تلا ذلك اندفاعة أخرى مُدوِّخة. أغلق تود عينيه، وقاتل كي يبقى منتصبًا. كان يُدفع بالمناكب في موجة متضاربة متلاطمة من الأكتاف والظهور، محمولًا بسرعة في اتجاه ما ثم في الاتجاه العكسي. ظل هو يدفع ويضرب في الناس المحيطين به، محاولًا أن يواجه الاتجاه الذي يمضي إليه. فقد أرعبه كونه محمولًا للخلف.

متخذًا من شجرة الأوكالبتوس علامة طريق، حاول أن يسعى نحوها بالانزلاق بشكل جانبي ضد التيار، دافعًا بقوة عندما يُحمل بعيدًا عنها وراكبًا التيار عندما يتحرك ناحية هدفه. كان في مدى بضعة أقدام فقط من الشجرة عندما حملته اندفاعة عاتية بعيدًا عنها. جاهد يائسًا للحظة، ثم كفّ وترك نفسه تنجرف بعيدًا. كان رأس حربة لوتد طائر عندما اصطدم بحشد ذاهب في الاتجاه العكسي. جعله التصادم يدور. وبينما كانت القوتان تتطاحنان، كان هو يدور ويدور، مثل حبة بين الرحى. لم يتوقف هذا حتى غدا جزءًا من القوة المقابلة. استمر الضغط في التزايد

حتى ظن أنه لابد أن ينهار. كان يُدفع ببطء إلى أعلى في الهواء. ورغم أنه أمكن لضلوعه المتصدعة الحصول على بعض الراحة بالاستمرار في الارتفاع، إلا أنه قاتل ليُبقي قدميه على الأرض. كان عدم القدرة على لمسها إحساسًا أكثر هولًا حتى من أن يُحمل للخلف.

كانت هناك اندفاعة أخرى، أقصر هذه المرَّة، ووجد نفسه في نقطة ميتة حيث كان الضغط أقل ومتعادلًا. أصبح واعيًا بألم فظيع في ساقه اليسرى، بالضبط فوق الكاحل، وحاول أن يجعلها في وضع أكثر راحةً. لم يستطع أن يدير جسمه، لكنه استطاع أن يلف برأسه. كان هناك صبي نحيف للغاية ، يرتدي كاب (ويسترن يونيون)، انحشر ظهره منضغطًا في كتف تود. استمر الألم في التزايد، وأخذت ساقه بأكملها ـ وبارتفاع عظمة الفخذ ـ تنبض. أخيرًا حرَّر ذراعه اليسرى، وأمسك بقفا الولد بين أصابعه. لواه بأقصى ما يستطيع من قوة. بدأ الصبي يقفز صاعدًا هابطًا في ملابسه. تمكن تود من أن يفرد كوعه بالدفع في مؤخرة رأس الصبي، وهكذا استطاع أن يلف نصف دائرة ويحرر ساقه. لم يقلّ الألم.

أتت موجة هائجة أخرى انتهت به في نقطة ميتة أخرى. كان الآن في مواجهة فتاة تنشج بشكل مستمر. كان فستانها المصنوع من الحرير المطبوع قد تمزق صدره لأسفل وتدلت مشدة صدرها الضئيلة متعلقة بشريط واحد. حاول أن يفسح لها مكانًا بالضغط للخلف، لكنها كانت تتحرك معه كلما تحرك. بين لحظة وأخرى كانت ترتج بعنف وتساءل تود إذا ما كانت ستصاب بنوبة صرع.

أحد فخذيها كان بين رجليه. جاهد كي يتحرر منها، لكنها تعلقت به، متحركةً معه ومنضغطةً عليه.

أدارت رأسها، وقالت: «بطَّل.. بطَّل!» لشخص ما وراءها.

تبين تود ماهية المشكلة. رجل عجوز يرتدي قبعة من القش ونظارات بإطارات عاجية كان يحتضنها. كانت إحدى يديه داخل فستانها وهو يعض رقبتها.

حرَّر تود ذراعه الأيمن بجذبة قوية، ومد ذراعه فوق الفتاة، وهبط بقبضته على رأس الرجل. لم يستطع أن يضرب بقوة كبيرة لكنه تمكن من إسقاط قبعة الرجل ، وكذلك نظارته. حاول الرجل أن يخفي وجهه في كتف الفتاة، لكن تود أمسك بإحدى أذنيه، وجذبها بشدة. بدأت الجموع في الحركة من جديد. تشبث تود بالأذن قدر ما استطاع، متمنيًا أن تخرج في يده. تمكنت الفتاة من الانثناء تحت ذراعه. تمزق جزء من فستانها، لكنها تحررت من مهاجمها.

مرت نوبة تشنج أخرى عبر الجمع، وحُمل تود نحو الرصيف. قاتل في اتجاه عمود إضاءة، لكنه انجرف قبل أن يتمكن من الإمساك به. رأى رجلًا آخر يمسك بالفتاة ذات الفستان الممزق. صرخت طالبةً النجدة. حاول أن يصل إليها، لكنه حُمل في الاتجاه المعاكس. انتهت تلك الاندفاعة أيضًا إلى نقطة ميتة. وهنا كان كل جيرانه أقصر منه. رفع رأسه نحو السماء وحاول أن يسحب بعض الهواء النقي إلى داخل رئتيه المتألمتين، لكن الهواء كان كله ملوثًا بشدة برائحة العرق.

في هذا الجزء من الزحام لم يكن هناك أحد مُصابًا بالهيستيريا. في الحقيقة، بدا معظم الناس مستمتعين بوقتهم. بالقرب منه كانت هناك امرأة ممتلئة ورجل يضغط بقوة عليها في مواجهتها. كانت ذقنه على كتفها، وذراعاه حولها. لم تعره انتباهًا وواصلت حديثها مع امرأة بجوارها.

«أول حاجه عرفتها..» سمعها تود تقول «كانت فيه هوجة وأنا في النُّص».

«أيوة.. واحد زعق: جاري كوبر أهو جاي! وبعدين بوووم!».

«الموضوع مش كده..» قال رجل ضئيل يرتدي قبعة رياضية من القماش وبلوفر خفيفًا «اللي انتم فيه ده اسمه شغب».

«أيوة..» قالت امرأة ثالثة تدلى شعرها الرمادي الأفعواني على وجهها وكتفيها «واحد منحرف هاجم طفل».

«ده لازم يتعدم من غير محاكمة».

وافق الجميع بحماس.

«أنا من سان لويس..» أعلنت المرأة الممتلئة «ومرَّة كان عندنا واحد من المنحرفين دول في منطقتنا. قطَّع بنت بمقص».

«أكيد كان مجنون..» قال الرجل ذو القبعة الرياضية «أنهي متعة دي؟».

ضحك الجميع. وتوجهت المرأة الممتلئة بالحديث إلى الرجل الذي كان يحتضنها.

«إيه.. إنت..» قالت «أنا مش مخدة».

ابتسم الرجل بابتهاج، لكنه لم يتحرك. ضحكت، ولم تبذل أي جهد كي تفلت من حضنه.

«شاب جلف».

ضحكت المرأة الأخرى.

«أيوة..» قالت «وآهي حاجة ببلاش كده!».

ظن الرجل ذو القبعة الرياضية والبلوفر الخفيف أنها ضحكة أخرى على تعليقه حول المنحرف.

«تقطيع بنت بمقص.. مش هي دي العِدَّة الصحّ».

كان مُحقًّا. ضحكوا بصوت أعلى من المرة الأولى.

«كنت ح تقطعها بحاجة تانية.. هه يا واد؟» قال شاب برأس على شكل كُلية وشوارب مدهونة بالشمع.

ضحكت المرأتان. شجع هذا الرجل ذا القبعة الرياضية، فمدَّ يده وقرص صديقة المرأة الممتلئة. أطلقت صرخةً طويلةً.

«بطَّل كده..» قالت مرحبة.

«حدّ زقّني..» قال.

صرخت سارينة إسعاف في الشارع. دفع عويلها المُولول الحشد إلى الحركة مرةً أخرى، وحُمل تود في دفعة بطيئة ثابتة. أغلق عينيه، وحاول أن يحمي ساقه النابضة بالألم. هذه المرة عندما انتهت الحركة، وجد

نفسه مستندًا بظهره على جدار المسرح. أبقى عينيه مغلقتين، ووقف على ساقه السليمة. بعد فترة بدت وكأنها ساعات، بدأ الجمع يرتخي وتحركوا مرةً أخرى حركةً مُرتجَّةً. استجمع الحشد قوته وانطلق مندفعًا. ركبه تود حتى خبط في أسفل سياج حديدي كان يحيط بممر العربات الذي يؤدي من الشارع إلى المسرح. انقطع نَفَسه بسبب التصادم، لكنه تمكن من التعلق بالسياج. تشبث يائسًا، مقاتلًا من أجل ألا يُشفط للخلف. أمسكته امرأة من حول وسطه، وحاولت أن تتعلق به. كانت تنهنه بشكل إيقاعي. أحس تود بأصابعه تنزلق من حول السياج، فرفس للخلف بأقصى ما استطاع. أفلتته المرأة.

بالرغم من آلام ساقه، كان بإمكانه أن يفكر بوضوح في لوحته «احتراق لوس أنجلوس». بعد مشاجرته مع فاي، كان قد اشتغل عليها بشكل مستمر ليهرب من تعذيب نفسه، وأصبح الطريق إليها في باله أوتوماتيكيًّا تقريبًا.

بينما هو واقف على ساقه السليمة، متشبثًا بيأس في السياج الحديدي، كان بإمكانه أن يرى كل ضربات الفحم الأوليَّة التي ملأ بها لوحة الكنفاه الكبيرة. عبر أعلاها وبالتوازي مع الإطار، كان قد رسم المدينة المشتعلة، حريق هائل من الأنماط المعمارية، تمتد من المصري إلى نمط (كيب كود)[٨١] الاستعماري. عبر وسط اللوحة، متجهًا من اليسار إلى اليمين، كان هناك شارع طويل على تل تأتي منه -متدفقةً إلى منتصف صدر اللوحة- جموع الغوغاء حاملين مضارب البيسبول والمشاعل. بالنسبة

(٨١) شبه جزيرة في أقصي شرق ولاية ماساشوستس شمال شرقي الولايات المتحدة.

لوجوه أعضاء هذا الحشد، كان يستخدم الاسكيتشات اللا نهائية التي رسمها للبشر الذين يأتون إلى كاليفورنيا ليموتوا؛ أتباع الطوائف من كل نوع: الاقتصادية وكذلك الدينية، مشاهدو الأمواج، والطائرات، والجنازات، والعروض الأولى للأفلام ـ كل هؤلاء الشياطين المساكين الذين يمكن أن يُثاروا بمجرد وعد بالمعجزات، وعندئذ فقط يندفعون إلى العنف. لقد قدَّم السوبر دكتور (بيرس للجميع.. يعرف الجميع) الوعد اللازم، وكانوا يسيرون وراء رايته في جبهة مُوحَّدة هائلة من الكرات الملتفة[٨٢] ومربعات المسامير[٨٣] ليطهروا الأرض. وبعدما ذهب عنهم السأم، صاروا يغنون ويرقصون مبتهجين في الضوء الأحمر لألسنة اللهب.

في أدنى صدر اللوحة، رجال ونساء يهربون مهتاجين قبل طليعة الحشود الصليبية. من بينهم فاي، هاري، هومر، كلود وتود نفسه. كانت فاي تعدو بكبرياء رافعةً ركبتيها إلى أعلى. ووراءها كان هاري يعدو متعثرًا، متشبثًا بقبعته الجافة الحبيبة بيديه الاثنتين. بدا هومر وكأنه سيسقط من قماش الكنفاه، بوجهه نصف النائم، ويديه الكبيرتين تخدشان الهواء في تمثيل إيمائي مُعذَّب. أما كلود فقد أدار رأسه وهو يجري ليغيظ متعقبيه بوضع إبهامه على أنفه. وتود نفسه كان يلتقط حجرًا ليرمي به قبل متابعة هربه.

---

(٨٢) رمية في كرة البيسبول تُستخدم لكسر رمية أخرى، ويستخدم المصطلح كذلك لوصف الأشخاص غريبي الأطوار.

(٨٣) آلة تتكون من مربع ومسمارين لولبيين للإمساك بالأشياء.

كان تقريبًا قد نسي كلًّا من ساقه ومأزقه. وليجعل هروبه أكثر اكتمالاً وقف على كرسي، واشتغل على النيران في ركن علوي من لوحة الكنفاه، مشكلًا ألسنة اللهب، بحيث تلعق حتى بشكل أكثر شراهة عمودًا كورينثيًّا[٨٤] كان يرفع السقف المصنوع من سعف النخيل لكشك (جوزبرجر)[٨٥].

كان قد انتهى من لهب، وبدأ يعمل في آخر، عندما أعاده شخص ما يصرخ في أذنه. فتح عينيه ورأى شرطيًّا يحاول الوصول إليه من خلف السياج الذي كان متعلقًا به. أفلت يده اليسرى، ورفع ذراعه. أمسكه الشرطي من رسغه، لكنه لم يستطع أن يرفعه. خشي تود أن يترك السياج حتى أتى رجل آخر ليساعد الشرطي، وأمسكه من ظهر سترته. أفلت السياج، ورفعوه عاليًا حتى استوى فوقه.

عندما رأوا أنه غير قادر على الوقوف، أنزلوه برفق إلى الأرض. كان في ممر سيارات المسرح. على الحاجز الحجري بجواره جلست سيدة تبكي في تنورتها. وبطول الجدار كانت هناك مجموعات من أناس آخرين مشعثين. في نهاية الممر كانت هناك عربة إسعاف. سأله شرطي إذا ما كان يريد أن يذهب إلى المستشفى. هز رأسه رافضًا. عندئذ عرض عليه أن يوصله إلى البيت. كان لدى تود حضور الذهن الكافي ليعطيه عنوان كلود.

---

(٨٤) نسبة إلى مدينة كورينثيا، وهي من مدن اليونان الكبيرة القديمة، والتي اشتهرت بثرائها وفخامة عمارتها.

(٨٥) من وجبات النباتيين.. ساندوتش يتكون من الجبن والبيض والبصل والفلفل والكاري والجوز المقطع.

حُمل عبر نقطة الخروج إلى الشارع الخلفي، ورُفع إلى داخل عربة شرطة. بدأت السارينة في الصراخ، وظن في البداية أنه هو الذي يُصدر ذلك الصوت المزعج بنفسه. تحسس شفتيه بيديه. كانتا منغلقتين بإحكام. عرف عندئذ أنها كانت السارينة. لسبب ما جعله هذا يضحك، وبدأ يقلد السارينة بأعلى ما يستطيعه من صوت.

- تمت -